

إسماعيل بن عبد الله

# الحياة فوق الضباب

الناشر

مكتبة مصر  
٣ شارع كامل مكتبي - الجيزة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

إنه رغم العمر الطويل لا ينسى يوماً واحداً من أيام عشرته لصديقه كمال يحيى الروزنامجي .. صداقة بدأت منذ أوائل الأربعينات وأصبحت هي المؤثر الأكبر في كل حياته وفي كل ما يطرأ على فكره .. وربما لا تزال هي الأقوى في التأثير عليه حتى اليوم ..

وابتسم ابتسامة تنبض بالسعادة كأنه يهنئ بها نفسه على ما وصل إليه بهذه الصداقة .. وتنبض ابتسامته بالعجب عما جرى له خلال كل هذه السنوات حتى وصل إلى ما وصل إليه ..

لقد التقى بكمال لأول مرة في الإسكندرية على شاطئ ميامي في حي سيدى بشر .. وكان هذا الشاطئ يعتبر أيامها خاصاً بأولاد الذوات .. أولاد الطبقة الغنية التى تحكم مصر وتملك كل أرضها .. وهو نفسه لم يكن من أولاد الذوات ولا ينتسب من قريب ولا من بعيد إلى هذه الطبقة .. ولكن كان من هواياته منذ صباه أن يعايش كل طبقات المجتمع المصرى ويدخل فيها بدافع الفرجة عليها .. كيف يعيش أولاد الأغنياء وكيف يعيش أولاد الفقراء .. وكيف يتكلمون .. وماذا يأكلون .. وماذا يحبون ويكرهون .. وكان يعتمد فى فتح مجالات الفرجة على كل نواحي المجتمع على زملائه من طلبة المدرسة .. إنها مدرسة تجمع بحكم موقع الحى الذى تقع فيه بين أبناء كل الطبقات .. وكان بين زملائه ليس متحيزاً لطبقة دون طبقة .. ربما لأنه هو نفسه من عائلة متواضعة تعتبر من النصف الأسفل للطبقة المتوسطة ..

وعلى شاطئ ميامي بالذات الذى سمع وقرأ عنه حتى يتفرج على حياة أولاد  
النوات وكيف يقضون الصيف .. ولكن الخمسة جنهات وإن كانت مبلغا  
كبيرا محترما بالنسبة له إلا أنها لا تعتبر شيئا بالنسبة لحياة الطبقة الغنية ..  
ربما كان الواحد من أفراد هذه الطبقة يصرف الخمسة جنهات وأكثر منها في  
يوم واحد أو في جلسة واحدة .. ولكنه اعتمد على ذكائه الطبيعي الذى  
لا يفعله .. إن له زميلا في المدرسة من أبناء الأسكندرية وإن كانت العائلة  
تقم في القاهرة ووالده يعمل فيها .. وقد قال له زميله إن شبان العائلة  
وأصدقاءهم أقاموا لأنفسهم عشة خشبية في صحراء تقع خلف شاطئ  
سيدى بشر ينفردون فيها بأنفسهم يعيشون أياما حرة إلى آخر منتهى  
الحرية .. وقد وصل مع زميله إلى أن دعاه إلى قضاء أجازته في هذه العشة بعد  
أن علم أنه مسافر وحده إلى الأسكندرية وحائر كم تكلفة الإقامة فيها ولو  
لبضعة أيام ..

وسافر منير غانم إلى الإسكندرية بعد أن وافق والده بمضاضة فلم يكن  
مرتاحا أن يترك الحرية لأبنيه إلى هذا الحد .. وودعه أمه وأخواته البنات  
بالموع .. فلم يكن من عادة العائلة أن تترك بيتها حتى ولو لقضاء أجازة  
صيف ولم تكن تملك ما يكفى ولو مجرد تخيل مثل هذه الأجازة .. إنه أول فرد  
في العائلة يسافر لمجرد الفسحة وقضاء أجازة الصيف .. وحرصت أمه على  
أن تملأ حقيبته بأطعمة قد تكفيه أسبوعا أو أكثر .. إنها تخاف عليه  
ولا تطمئن إلا إذا كانت هى نفسها المسئولة عن كل ما يحتاجه حتى عما  
يأكله وهى تريد أن تحس بمسئوليتها عنه حتى وهو بعيد عنها ..

وبدأ منير يرتب حياته في العشة الخشبية التى سيقم فيها .. إنه يستطيع  
أن يعتمد على نفسه في كل ما يحتاجه .. وقد تعود وهو مع أمه وأخواته أن

فلا يعتبر غنيا ولا يعتبر فقيرا .. ولذلك فمن السهل عليه أن يعاشر الأغنياء  
والفقراء .. يعاشرهم دون هدف استغلال .. أى لا يحاول استغلال معاشرته  
للأغنياء أو معاشرته للفقراء .. إنما هو يتفرج .. ويتحس وهو يتفرج بأنه يقرأ  
كتابا يزوده بمعلومات جديدة .. وقد كان منذ صباه يهوى قراءة الكتب ..  
ويسرف في تحقيق هواياته إلى حد أنه تعود أن يسرق الكتب من أى مكان  
تصل إليها يده .. إن سرقة الكتب لقرائها لا تعتبر جريمة يحرمها الله ..  
ما دام لا يسرقها لبيعها .. بل أنه كان يحاول دائما إعادة الكتاب إلى  
صاحبه الذى سرقه منه بعد أن ينتهى من قراءته ..

ولكن كمال الروزناجى لم يكن زميلا له في مدرسة .. ولم يكن يعرفه أو  
يسمع عنه .. إلى أن التقى به على شاطئ ميامي .. وإن كان قد تعمد  
الوصول إلى هذا الشاطئ بدافع هواية الفرجة على أولاد الأغنياء بعد أن سمع  
عنه كثيرا بل وقرأ عنه — عن هذا الشاطئ — في الصحف .. وكان في  
هذا العام قد حصل على الشهادة التوجيهية .. التى كانت نهاية المرحلة  
الثانوية .. وأراد والده أن يكافئه على هذا النجاح مكافأة كبيرة رغم أنه كان  
قد تعود منه أن ينجح في كل الامتحانات يتفوق .. إن الامتحان الدراسى  
بالنسبة له ليس أكثر من تذكّر بعض ما قرأه .. وقراءته للكتب المدرسية  
لا تختلف في استيعابها لها عن قراءة الكتب التى يشتريها أو يسرقها .. الكتب  
التى تجمع القصص أو التى تسرد التاريخ والتى كان يهوى قراءتها .. إنه يتذكر  
الإجابة على أى سؤال يقدم له في الامتحان تذكره لمغامرات أرسين لوبين التى  
قرأها في الكتب التى تجمعها ..

وقد كان والده كريما في مكافأته فأعطاه خمسة جنهات .. وفكر كيف  
يستغل هذا المبلغ وقرر بسرعة أن يستغله في قضاء أجازته بالإسكندرية ..

يتعلم كل ما تفرضه مطالب الحياة حتى لا يتقل عليهم بكل مطالبه .. حتى إنه تعلم كيف يطبخ الطعام وإن كان لا يجيد إلا إعداد صينية البطاطس .. بل وتعلم أيضا الحياكة .. إنه يستطيع أن يعيد حياكة الزرار الذى يسقط من جلبابه أو قميصه .. ويستطيع أن يرتق أى تمزق في ثيابه .. ويستطيع ببساطة أن يغسل ويكوى هذه الثياب .. وقد وضع لنفسه ميزانية ثابتة ينفق على أساسها هذه الجنيئات الخمسة .. كل يوم ينفق فيه قرشين ونصف .. أى خمسة قروش تعريفة .. وفى كل أسبوع له ليلة يصاحب أصدقائه فى السهر وينفق من الميزانية عشرين قرشا .. إن هذه الميزانية تكفيه أن يعيش فى الإسكندرية شهرا كاملا بخمسة جنيئات .. إلا إذا حدث ما لم يحسب حسابه ..

وأخذ فى كل صباح يتبى من إعداد مطالبه فى العشة فى وقت مبكر ثم يذهب إلى شاطئ ميامى وهو يرتدى المايوه . إن المايوه هو الذى يزيل الفوارق بين الطبقات .. كل الناس يرتدون زيا واحدا على الشاطئ يرتدون المايوه .. كأنهم كلهم يعيشون مجتمعاً واحدا وطبقة واحدة .. وطبعاً لا يفكر واحد منهم فى الاقتراب من الآخر ليتحسس القماش الذى صنع به المايوه الذى يرتديه حتى يعرف إذا كان يرتدى الغالى أم الرخيص .. وهل هو من طبقة الأغنياء أو من الطبقة المتواضعة التى لا تملك ثمن المايوه الغالى ..

وقد عرف من اليوم الأول أنه لى يدخل إلى شاطئ ميامى يجب أن يدفع للحرس الواقف عند المدخل الثلاثة قروش صاغ .. إلا إذا كان صاحب كابين على الشاطئ فيدخل مجاناً .. إنها إجراءات وضعت لحماية أولاد اللوات من زحف أولاد الشعب من الطبقة الفقيرة عليهم حتى لا يستولون على متعتهم ويحرمونهم من الانفراد بالشاطئ ويعكرون هدوءهم وحرمتهم ..

حرية صاحب الملك .. صاحب رأس المال ..

ومنى لم يحسب حساب هذه القروش الثلاثة وهو يضع ميزانية العشة التى يقيم فيها .. فبدأ يتحائل واكتشف طريقاً للوصول إلى شاطئ ميامى دون أن يمر بالمدخل .. إنه يقفز فوق الصخور التى تقوم بجانب الشاطئ ثم يسبح مسافة صغيرة إلى أن يجد نفسه فى ميامى .. وقد استمر أياماً يتبع هذا الطريق إلى أن تعود حراس المدخل على رؤيته بين رواد الشاطئ وكل منهم يظن أنه دخل عن طريق حراس آخر وأنه لا شك صاحب كابين بمظهر نشاطه بين رواد الشاطئ .. لذلك أصبح يدخل حتى من المدخل دون أن يدفع شيئاً ومع تحية الحراس .. وإن كان مهددا دائما بأن يكشف سره أحد الحراس .. إلى هذا الحد كان مستوى الحياة أيامها .. إلى حد التحاليل هرباً من دفع ثلاثة قروش فقط ..

وقد التقى على شاطئ ميامى ببعض زملاء الدراسة ممن يعرفهم .. وهؤلاء الزملاء عرفوه بأصدقاء كثيرين .. وكلهم من أولاد اللوات .. ولم يكن كمال الروزنامجى يثير انتباهه بين شبان الشاطئ أو يتهم بمعرفته والسؤال عنه .. ولكن كان أول من أثار انتباهه من عائلة الروزنامجى هى أخته دلير ..

كان من عادته أن يذهب إلى الشاطئ مبكراً .. ولمح فى صباح أحد الأيام والشاطئ لم يزدحم بعد برواده فنهأ تخرج من أحد كبائن الشاطئ وهى تضع « برنسا » طويلاً فوق المايوه الذى تخفيه تحته .. وتنتجه إلى شاطئ البحر تتبعها امرأة عجوز غامقة السمار سمينة مرهلة الجسد .. لا شك أنها « الدادة » أو مربيتها المسئولة عنها .. وتدخل الفتاة بقدميها فى مياه البحر والمرية تتبعها إلى أن تقارب مياه البحر البرنس الذى تلبسه فتقدم المرية من خلفها فترفع عنها البرنس الطويل وتركها تغوص فوراً فى مياه البحر وهى

كأنه يتعجب من انجذابه كل هذا الانجذاب إلى هذه الفتاة .. ويحاول أن يفتح نفسه بأنه ملحوس .. إنها لا شك من أرقى مستويات طبقة ميامي .. وهو يستطيع دائما أن يصادق شبان هذه الطبقة ولكنه لا يعتقد أنه يستطيع أن يصل إلى بنت من بناتها .. وهو لم يحاول أبدا مع بنات هذه الطبقة بل إن هوايته الفرجة لم تصل به إلى محاولة الفرجة على حياة هاتيك البنات .. ولم تجذبه منهن إلا هذه الفتاة .. ويبدو أنها تعيش كل تقاليد طبقتها وترفع حتى عن أن تصل عيون الناس إليها إلا في الجلود التي تسمح لهم بشرف رؤيتها .. إنه لم ير ساقها ولا خصرها ولا نهدنها ولا حتى ذراعها من شدة حرص الدادة التي تتبعها على تغطيتها بالبرنس حين تغوص في الماء وقبل أن تخرج منه ..

وظلت صورة هذه الفتاة تحت كل خيال منير .. بل إنه وجد نفسه يتغير منذ التقت عيناه بها فأصبح يعيش في خياله حتى وهو مع أصدقائه رغم ما هو معروف عنه بينهم من مرح الشخصية وانطلاق لسانه في كل الموضوعات .. وفي اليوم التالي تعمد أن يذهب إلى الشاطئ وكأنه على موعد معها .. وعندما غاصت في الماء لم يكف بالوقوف على الشاطئ ليترجع عليها من بعيد .. وإنما ألقى بنفسه في البحر وراها .. وبقي بعيدا عنها ولكنه سعيد بإحساسه أنه معها .. وقد أصبح ينزل معها إلى مياه البحر كل صباح .. ويبقى دائما بعيدا .. ولكنه بدأ يلاحظ لمحات من عينها تلتقي بعينه .. ولا يدري هل هي لمحات صدفة عابرة أم لمحات مقصودة .. لماذا لا يكون قد جذبها كما جذبت .. إنه يعلم عن نفسه أنه وسيم الوجه رشيق القوام وأخواته البنات تعودن أن يقلن له إن بنات الحي كلهن يذبن فيه وكل منهن تمناه لنفسها .. ولم يكن يهتم بما يقلنه فلم يكن يهتم بالبنات ولا يحس

ووجد منير نفسه يجذب انجذابا عنيفا إلى هذه الفتاة .. ليس مجرد انجذاب الفرجة الذي تعود أن يشده للفرجة على كل البنات .. إنه انجذاب ينبض بالدهشة .. كأنه فوجئ برؤية كان ينتظرها منذ زمن طويل دون أن يدري أنه في انتظارها .. كأنه لم يكن يدري أن هذا هو ذوقه في تقدير الجمال .. وأن هذا هو الأمل الذي يمكن أن يبحث عنه .. إنه منذ النظرة الأولى أحس بجمالها .. ولكنه ليس هذا الجمال الزاعق الذي يشد كل العيون .. إنه جمال هادئ تقاطعه مرتبة كأن كل خط فيها رسمه فنان ليناسب الخط الآخر .. أنفها يناسب عينها وشفثها .. وعيناها الملونتان اللتان لم يلمح فيهما اللون الأسود من اللون الأخضر أو الأزرق وضعتا بحيث تناسبان جبينها الواسع كأنه يتسع لاستيعاب كل ما توحيه الحياة .. وهي يضاء .. ولكن ليس هذا البياض الصارخ كيباض نور الشمس ولكنه بياض هادئ كيباض وردة أصيلة كريمة تترك اللون أوارقها الخضراء أن ينعكس عليها .. وشعرها ليس أشقر صارخا وليس غامق السواد كالليل الذي لا ترى فيه شيئا إنه كعينها تعيش فيه كل الألوان كأنه لم يعد هنالك لون ينقصها فيه ..

ووقف منير بعيدا وعيناه متعلقتان برأسها الذي يعود فوق الماء .. إنها تسيح وذراعاها تحت الماء .. ثم بعد فترة وجدها تدير رأسها ناحية المرأة التي تنتظرها على الشاطئ .. وبلا أدنى كلمة أو إشارة قامت المرأة وغاصت بقدميها في مياه البحر وألست الفتاة البرنس فخرجت به إلى الشاطئ ثم سارت إلى الكابين في خطوات سريعة رشيقة .. ومنير يتبعها وكأن عينيه تشهقان .. إلى أن اختفت داخل الكابين .. وعلت شفثي منير ابتساما

بحاجته إليهن حتى بعد أن كبر وأصبح في الثامنة عشرة من عمره .. وهذه أول فتاة يحس بها ويتذكر وسامته وشرافته على أمل أن يجذبها .. لماذا لا يكون قد جذبها بمجرد لقاء الصدفة وتبادل النظرات من بعيد .. ولا يهم شكله .. إنها هي نفسها ليست أجمل فتاة رآها .. ثم إنها لا شك لا تعرف بعد شيئا عن أصله وفصله وعن الطبقة التي ينتمي إليها .. إنها لا تراه إلا وهو بالمايوه .. والمايوه يخفي الأصل والفصل ويوحد بين طبقات الناس ..

وفي هذه الأيام كان يستدرج أصدقاءه ليعرف كل شيء عنها وهو حريص على ألا يبدو أنه يعتمد الاهتمام بها .. كان ينتظر المناسبات كأن تمر بهم من بعيد فيشير الحديث عنها .. وعرف أن اسمها دلبر .. ابنة يحيى باشا الروزنامجي .. وهو من أغنى الأغنياء ويملك مئات الأفدنة بالقرب من قديوب .. وعضو بارز في حزب الوفد ودخل الوزارة الوفدية عدة مرات رغم أنه لم يعرف كشخصية شعبية وليس له مواقف وطنية خاصة .. إن حزب الوفد كان يضم بين قاداته وأعضائه شخصيات ليس لها قيمة إلا أنها شخصيات غنية تملك الأرض .. وليس المهم أبوها إنما الأهم هي أمها .. إنها من عائلة محمد علي .. عائلة الملك .. وهي سيدة محافظة حريصة على التمسك بكل مظاهر وتقاليد الأتراك .. ثم الأهم من أيها وأمها هو أخوها كمال يحيى الروزنامجي .. إن أصدقاء منير يتحدثون عنه بحماس وإعجاب شديد .. وهم يقولون عنه إنه متفرغ تفرغا كاملا لتتقيف نفسه .. لقد قرأ أضعاف ما قرأوه جميعا .. وتخصص في القراءات السياسية .. إنه في نظره عالم من علماء السياسة وتعودوا أن يجلسوا إليه كأستاذ لهم .. يعلمهم ما لا يعلمون .. وهو كما كان منير يسمع عنه أكبر منه بعام أو عامين وقد حصل على الشهادة الثانوية منذ عامين ومن مدرسة الجيزويت .. أي تعلم

الفرنسية .. ولكنه لم يدخل الجامعة بعد ذلك .. إن أولاد قمة الطبقة الراقية يترفعون عن دخول الجامعة المصرية ولما أن يسافروا إلى الخارج للاتحاق بجامعة أوروبية أو يعملون على تعليم أنفسهم بأنفسهم إذا أرادوا العلم .. وقد أراد منير أن يتعرف بكمال الروزنامجي ليتفرج عليه كما هي عادته .. ثم بعد أن رأى أخته أصبح يتننى أكثر أن يعرفه .. ولكن لم تسنح فرصة تجمعهما .. وهو لا يريد أن يبدو كأنه يسعى إلى معرفته .. وقد كانت هذه هي عادته في التعرف بأبناء هذه الطبقة .. ألا يسعى إليهم حتى لا يظنوا أنه مبهور بهم أو طامع في الإحسان عليه بالوقوف أمامهم أو التمتع بمظاهر مجتمعهم .. ثم إن كمال لا ينتقل من كايين العائلة .. إنه يجلس فيها طوال اليوم مسترخيا على مقعد مرعج دون أن يقوم ليتمشى على الشاطئ أو يسبح في مياه البحر ولو كمجرد رياضة .. وربما لهذا فهو سمين .. وقوامه متنفخ يشوه قوامه وشبابه .. وكان يجلس طوال اليوم في الكايين أو تحت الشمسية من شماسي الشاطئ ويلتف أصدقاؤه حوله في حديث لا ينتهي .. وعادة ما يستمر الحديث حتى يخين موعد الغداء فيتقدم الخدم وهم مرتدون أزياء الخدمة الرسمية ورئيسهم يرتدى بدلة كأنها بدلة سموكنج مما يلبسها أولاد الذنوات في الحفلات .. ثم يعلنون مائدة فخمة زاوية وألوان متعددة من أصناف الأطعمة الراقية .. كأن الشاطئ قد انقلب إلى قصر من قصور الروزنامجي ..

ولم تسنح الفرصة لينضم منير إلى شلة كمال دون أن يتعمد السعي إليه .. إلى أن ذهب يوما في الصباح الباكر لينتظر رؤية دلبر من بعيد كما تعود منذ أيام .. ولكن دلبر لم تأت رغم طول انتظاره .. فقام يسير أمام كايين العائلة لعله يستطيع أن يلمحها .. وقد رأى أخاها كمال من بعيد وهو جالس خارج الكايين .. وكان وحده فالوقت لا يزال مبكرا حتى تجتمع الشلة ..

وكان ينوي أن يمر أمامه بسرعة ويلقي لمحة خاطفة داخل الكابين بخنا عن دلبر .. ولكنه ما كاد يضع خطوته أمام الكابين حتى سمع صوت كمال كأنه يناديه :

— أهلا وسهلا .. تفضل ..

وتوقف منير وهو دهش والتفت إلى كمال كأنه يسأله .. هل يناديه هو .. ووقف كمال أمامه وهو يمد يده مكررا :

— تفضل يا أستاذ منير ..

ودهش منير وهو يصافح اليد التي مدت له .. إنه يعرف اسمه .. وقال من خلال دهشته :

— صباح الخير أستاذ كمال .. تشرفت ..

وقال كمال وهو يلقي جسده السمين على المقعد المريح وعلى شفثيه ابتسامة مرحية :

— إن أصدقاءنا حدثوني عنك كثيرا .. حتى أصبحت أعرفك دون أن نلتقي ..

وقال منير وهو يبخلق في وجه كمال :

— إني أعرفك من قبل أن يحدثني عنك الأصدقاء فأنت شخصية معروفة ..

وأحس بالراحة وهو يبخلق في وجه كمال .. إنه وجه ليس فيه لمحة مفتعلة كوجوه أولاد الذوات الذين يفتعلون التعالي والجديفة مع الغرباء .. إن كل ما على وجهه يبدو مرحبا فعلا به ترحيبا طبيعيا كأن لا فرق بينهما .. لا فرق بين الطيقتين .. وابتسامته تبدو صادقة في الترحيب به وليست مجرد ابتسامة مجاملة .. وهو أكثر بياضا في لون بشرته من أخته دلبر .. لعله أخذ

من لون أمه أكثر مما أخذ من لون أبيه ..

وقال كمال من خلال ابتسامته المريحة :

— لقد قال لي الأصدقاء إنك من هواة القراءة .. وأنا أيضا من هواة

القراءة ..

وقال منير ضاحكا :

— إني لا أحب قرقرة اللب .. فأقرقر السطور المكتوبة بدلا من قرقرة

اللب .. هذا هو كل شيء ..

وقال كمال وهو يشاركه ضحكته :

— وهل تهوى قرقرة اللب الأبيض أم اللب الأسمر .. أى ماذا تقرأ ؟

وقال منير بلا اهتمام :

— لا يهمنى أن أختار ما أقرأه .. فإنى أبدأ بقراءة أى سطور وإما أن

أعيش فيها إلى أن أنهبها وإما أن ألقى بها بعيدا بعد سطرين أو ثلاثة .. إني

أحس وأنا أقرأ كأنى أنفراج .. وهناك ما يشدنى إلى الفرجة وما يصرفنى

عنها .. وأنا حر .. ولكن الواقع أنى أميل إلى الفرجة بقراءة القصص والكتب

التاريخية ..

وقال كمال بصوته الطبيعي العادى الذى لا تكبر فيه يعبر عن إحساسه

بطبقته :

— لقد كنت مثلك وأنا شاب .. كنت أهوى قراءة القصص وكتب

التاريخ .. ولكنى اكتشفت أن القصص تمتعنى بخيالى والتاريخ يشدنى إلى

الماضى .. فى حين أنى أبحث عن الواقع وأريد أن أعيش فيه .. ووجدت

الكتب التى تربطنى بالواقع فتعلقت بها وأدمنتها ..

وقال منير كأنه يصحح له :

— إنك لا تزال في عرشيا بك ..

وقال كمال في جدية :

— إن العمر يقاس بما يملأ فكري من معرفة .. وإني أحيانا من كثرة ما عرفت يخيل إلي أني اجتزت عمر الشباب ..

وقال منير كأنه يتباهى بأنه يعرف عنه كل شيء :

— إني أعرف عنك أنك تخصصت في الدراسات السياسية ..

وقال كمال ساخرا :

— لا أحب أن أسميها سياسة .. إن الدراسات التي تقصدها هي دراسة الواقع .. وهناك واقع عام .. وواقع طبقي .. وواقع شخصي .. والفكر في حاجة إلى دراسة وفهم كل هذا الواقع حتى يصبح فكرا سياسيا يخطط سياسة التعامل مع هذا الواقع ..

وقال منير وهو مبهور :

— لم أصل بفكرى إلى هذا الحد من الفهم ..

وقال كمال مبتسما دون أن تبدو في كلامه نبرة الأستاذ :

— أى كلية ستلتحق بها بعد أن حصلت على التوجيهية كما عرفت ؟

وقال منير في بساطه :

— لقد كنت في قسم أدبي وقد اخترت أن التحق بكلية الحقوق ..

( وضحك قائلا ) .. ليس معنى هذا أني أريد أن أكون وزيرا كما يقولون إن

كل الوزراء من خريجي الحقوق ..

وقال كمال وهو يلوى شفتيه كأنه يستهين بما يقال :

— لقد كان أبى وزيرا كما لا شك قد سمعت عنه .. ورغم ذلك لم يكن من

خريجي الحقوق .. ولا من خريجي أى كلية .. إنه وزير بحكم الطبقة التي

ينتمى إليها .. الطبقات هي التي يقوم عليها تنظيم الحكم .. والأحزاب التي تتبادل الحكم تختلف بنسبة تمثيلها لكل طبقة .. ولا يقوم أى حزب منها على مذهب أو على علم ولا حتى على خطة .. إنها مجرد تنظيمات للطبقات التي تعيش في مصر .. ودراستك في كلية الحقوق ستكفل لك دراسة هذا الواقع ولكن لا تكفى بدراسة ما يقدمونه لك في الكلية ليمتحنوك فيه .. إن الواقع أوسع بكثير مما تجمعه كتب الجامعة ..

وقال منير في دهشة بعد أن سمع كمال يقول عن أبيه هذا الكلام :

— إني سمعت أنك وفدى .. أى تنتمي إلى حزب من الأحزاب التي تقول إنها لا تمثل مبادئ ولا مذاهب بل تمثل طبقات .. كأنك أنت أيضا مستسلم للواقع الطبقي ..

وضحك كمال قائلا :

— إن الناس تقول عنى إني وفدى لأني من أب وفدى .. تماما كما يقولون

عنى إني مسلم لأني من أب مسلم .. وأنا لم أقرر أن أكون وفديا ولا حتى

مسلمًا .. ولكنى أنسب إلى والدي كما ينسب إليه اسمى الذي اختاره لى دون

أن يكون لى دخل في اختياره .. وكأن هذا الاسم الذى اختاره والدى هو ..

كمال يحيى الروزناجى الوفدى المسلم .. ومن حقى أن أرفض ما اختاره والدى

لى .. وأن أكون حرا في اختياري وفقا لاقتناعى .. ألا أكون وفديا إلا إذا

اقتنعت بحزب الوفد .. ولا أكون مسلما إلا إذا اقتنعت بالإسلام ؟ اقتناع

شخصى ينطلق من عقليتى أنا لا اقتناع مفروض على بحكم الوراثة .. بل إني

لست مفتنعا حتى باسم العائلة .. الروزناجى .. إنه اسم يعبر عن أيام

الأتراك .. وأنا أبعد عن الأتراك من أبى .. إني ولدت في واقع يختلف عن

الوقائع الذى ولد فيه أبى .. والواقع هو الذى يحدد الشخصية والصفة ..



والأسم هو الذى يرمز إلى هذه الشخصية والصفة .. فلماذا لا أسمى نفسى عوضين بدلا من الروزنامجى .. ما دام واقعى هو واقع فلاح مصرى يزرع فى أرض مصر وليس واقعا تركيا فرض نفسه على حكم مصر كما كان واقع أبى وجدى وجد جدى الذين كان يعبر عنهم باسم الروزنامجى ..

وأحس منير كأن كمال رفعه بكلامه وقذف به وسط سحب داكنة سوداء لا يرى من خلالها شيئا .. إنه حائر تائه فى كل كلمة سمعها إلى حد الذهول .. ماذا يريد أن يقول هذا الوافد الجديد على دنياه .. ماذا يقصد .. وماذا يريد إقناعه به .. بل لماذا يقول هذا الكلام .. هل له هدف يريد أن يشده إليه ..

وأفاق منير من ذهوله ودلبر تدخل إلى الكابين .. ووقفت أمامه هو وأخيها وبين شفيتها ابتسامة كأنها فرحة لأنها وجدته بعد أن ضاع منها موعد لقائه .. إنها أول مرة يرى فيها ابتسامة حلوة هادئة صادقة لا تحس فيها بأنها مجرد ابتسامة مجاملة تقليدية .. وقدمه إليها أخوها :

— الأستاذ منير ..

وقالت دلبر فى لهجة عادية مع ابتسامتها :

— لقد كنت أراه فى البحر ..

كأنها كانت تعترف بأن هناك ما يجمعهما .. رآته كما رآها .. وقد مدت يدها تصافحه .. أول مرة يلمس قطعة منها .. إن يدها أرق وأنعم مما كان يتخيل .. وأصابعها أرفع كأنها خيوط من حرير .. وأخذت دلبر يدها بسرعة من يده ونحطت داخل غرفة الكابين .. واعتقد منير أنها دخلت لتبذل ثوبها وتضع على جسدها المايوه وفوقه البرنس لتدعوه إلى لقاء البحر .. ولكنها عادت وهى فى ثوبها الكامل وفى يدها كتاب وجلست فى ركن بعيد

عندما وبدأت تقرأ فى الكتاب .. إنه كتاب باللغة الفرنسية .. إنها طبعاً لا تقرأ العربية ..

وبعد لحظات جاءت وراءها أختها الأكبر نسليار .. كما عرف اسمها فيما بعد .. ولم تقف لتصافحه بل لم تلتفت إليه .. ثم وقفت بجانب أختها دلبر الجالسة تقرأ فى كتابها وشدها من يدها إلى داخل الكابين حيث بقيتا لحظات وهو يسمع صوتيهما كأنهما يتها مسان .. ثم خرجا وبدلا من أن تعود دلبر إلى مكانها الذى كانت تجلس فيه سارت مع أختها إلى الشاطئ حيث جلستا تحت إحدى الشماسى .. ربما كانت نسليار قد أنبت أختها دلبر على جلوسها بجانب غريب حتى ولو فى وجود أخيها .. وأخذتها بعيدا عن الغريب ..

وبعد لحظات آخر دخل عليهما فؤاد أخو كمال الأكبر .. إنه شخصية مختلفة تماما عن شخصية كمال .. كان يرتدى زيا أرستقراطيا .. برنيطة فوق رأسه .. وجاكت رياضية من الجلد المطرز فوق قميص زاه بالنقوش والألوان .. وينظرون طويل لا تزال المكواة ترسم خطوطه .. وحذاء كاملا وإن كان نعله من الكاوتش السميك .. إنه زى لا بد أنه مستورد ولكنه رغم فخامته لا يمكن أن يصلح ليوم مريح تلعب فيه على الشاطئ .. وقام منير واقفا فى استقبال الأخ الأكبر .. وقال كمال وهو جالس مكانه ودون أن يرفع عينيه إلى أخيه وهو يقوم بمهمة التقديم :

— أخى فؤاد .. الأستاذ منير ..

وقال منير فى لهجة رسمية ودون أن يتسم فشكل فؤاد لم يدفع شفيتها إلى الابتسام :

— تشرفنا ..

وهو فؤاد رأسه في تحية رسمية دون أن يمد يد المصافحة .. وكان منير حريصا فلم يسبقه بمد يده ..

واختار فؤاد مقعدا في مواجهتهما جلس عليه وهو ينظر إليهما نظرات جادة كأنه يأمرهما بأن يكشفوا عما بينهما وعمما يدور بينهما من حديث .. وكان منير لا يزال واقفا والتفت إلى كمال مستأذنا في الانصراف .. وكأن كمال يعرف أن لا أحد يطيق أن يجلس معه ومعهما أخوه فؤاد فقال راجيا :  
— انتظر .. سنتنقل لنجلس تحت شمسية .. قريبا من البحر وأواجه ..

وقال منير معتبرا من خلال ابتسامه :

— آسف .. مضطر أن أذهب ..

ونظر إليه كمال كأنه يفهمه :

— إذن .. انتظر لحظة .. سأعطيك كتابا أتمنى أن تقرأه حتى أبدأ في

إقناعك بالدنيا التي أعيش فيها .. ولعلك تتفجع أن تعيش فيها معي ..

وحطأ إلى داخل الكابين ثم خرج يحمل كتابا ناوله لمنير وهو يقول :

— إنه بالإنجليزية .. لا شك أنك تقرأ الإنجليزية ..

وقال منير وهو يقلب الكتاب في اسمه ويقرأ عناونه :

— شكرا .. وإلى اللقاء ..

وابتعد والكتاب في يده .. إنه كتاب ميكافلي بعنوان « الأمير » .. وقد

سبق أن سمع عن هذا الكتاب ولكنه لم يقرأه .. ولا يحس الآن بدافع

لقراءته .. إن كل ما يسيطر على كل فكره هو الكلام الذي سمعه من

كمال ..

( ٢ )

عاش منير كل ساعات يومه والكلمات التي سمعها من كمال الروزنامجي تطن في أذنيه وتملأ رأسه .. لم يكن ينتظر أن يسمع مثل هذه الكلمات من أحد أبناء هذه الطبقة .. ما حاجته إلى أن يبحث عن واقع آخر غير واقع طبقته .. وهو واقع يغنيه عن التفكير عن أى شيء خارجه .. بل ويغنيه عن التفكير في المستقبل لأنه واقع يضمن مستقبله ومستقبل أولاده وأحفاده .. إنه يملك مئات الأفدنة من الأرض .. والأرض هي التي تقم الدولة ومالكها هو رئيس دولة .. حتى لو كانت دولة صغيرة تقوم على هذه المسات من الأفدنة .. والدولة ليست في حاجة إلى البحث عن واقع غير واقعها .. وواقع الأفدنة وصل بهم إلى الواقع العام .. فوالده عضو بارز في حزب الوفد وتولى الوزارة عدة مرات .. أى تولى الحكم .. وأمه من العائلة المالكة التي تحكم مصر كلها حتى لو كانت من فرع بعيد من العائلة .. فإن الحكم في مصر في يد العائلة كلها تختار من بينها من يحمل لقب ملك ويتحمل مسؤولية ملك .. ولكن كمال يقول كلاما عجيبا وربما لو طالعت جلسته معه لسمعته منه كلاما أعجب .. إنه يقول إن والده لا يستحق أن يكون وزيرا .. وأنه لا يعتبر نفسه وفديا مجرد أن والده ينتمى إلى حزب الوفد .. بل لا يعتبر نفسه مسلما مجرد أنه ولد لمسلمين فالإيمان بالدين لا يقوم على مجرد الإرث بل يقوم على الاقتناع الكامل .. والاقتناع الكامل لا يقوم إلا على حرية الاختيار .. أى حتى يكون مسلما يجب أن يكون قد اختار الإسلام بعقلية

هو .. بل إن كمال وصل إلى حد أن قال إنه يرفض الاسم الذى يجعله ..  
الروزنامى .. لأنه اسم لم يختره لنفسه ولم يعد يعبر عن واقعه الذى أصبح  
مختلفا عن واقع أبيه وحده أى واقع من اختار لنفسه هذا الاسم ..

ويرتفع طنين هذا الكلام فى فكر منير .. ثم يمر به خاطر أن كمال محق فى  
كل ما قاله .. بل إن بعض ما قاله ينطبق عليه هو شخصيا .. فهو مثلا  
ليس وفديا ولا ينتمى إلى أى حزب من الأحزاب السياسية رغم أنه يشترك فى  
كل المناقشات التى تدور بين زملائه .. وكان يشترك فى كل المظاهرات  
السياسية التى تخرج من المدرسة .. وكان له فيها معارك عنيفة مع البوليس ..  
ولكنه كان يشترك فيها بقوة الدوافع الوطنية دون أن يحس وهو فيها بأنه ينتمى  
إلى حزب تعبر عنه هذه المظاهرة .. لماذا ؟ .. لماذا لم يفكر فى أن يكون وفديا  
أو ينتمى إلى أى حزب سياسى ؟ .. ربما لأنه لم يرث الحزبية عن والده كما  
يقول كمال .. إن والده متباعد عن كل الأحزاب .. وقد ورث عنه هذا  
التباعد .. وإن كان يختلف عنه فى تباعده .. فوالده متباعد حتى عن مجرد  
التفكير السياسى فى حين أنه هو يهوى الفكر السياسى .. إنما يجب أن يضع  
نفسه فوق شخصية أبيه ولا يستسلم للإرث .. يجب أن يبدأ فى الاتصال  
بكل الأحزاب ويدرسها ويعرف خباياها فرمما اختار من بينها حزبا ينتمى  
إليه .. وهو لن يبدأ باعتبار نفسه وفديا بمجرد أن الوفد هو حزب الأغلبية ..  
سيكون حرا حتى بالنسبة للأغلبية .. وقد ينتهى بأن يرفض الانتماء إلى أى  
حزب سياسى ويبقى كما هو الآن .. ولكنه يكون قد اختار وليس مجرد  
مستسلم لطبيعة شخصية ورثها عن طبيعة أبيه ..

ثم لماذا هو مسلم ؟

إنه أكيد مسلم وحريص على إسلامه .. وقد بدأ القرآن منذ كان صبيا

ويصلى ويصوم .. وإن كانت قد مرت به حالات حرم نفسه فيها من الصلاة  
وحتى من صيام أيام من أيام رمضان .. ولكنه مسلم دائما حتى لأنه رغم ثقته  
الكاملة فى نفسه وهو يدخل امتحان المدرسة لا يستطيع أن يبدأ فى كتابة  
الإجابة على الأسئلة إلا بعد أن يقرأ الفاتحة داعيا الله ونبي المسلمين أن يوفرا  
له النجاح .. ولكن لماذا هو مسلم ؟ .. إنه قطعاً لم يمر بأى تجربة دفعته إلى  
اختيار الإسلام .. لقد وجد نفسه منذ فتوح وعيه أنه مسلم .. واستسلم لما  
وجد نفسه فيه إلى حد الإيمان الكامل بالإسلام .. ولكنه إيمان ورثه عن أبيه  
وعن عائلته دون أن يحظر على باله أى تساؤل .. لماذا هى عائلة مسلمة ..  
وماذا كانت عليه قبل أن تصل دعوة الإسلام إلى مصر .. هل كانت عائلة  
مسيحية .. أم عائلة يهودية .. أم عائلة تعبد آمون إله الشمس كأجدادنا  
الفراعنة .. وكيف اختارت الإسلام .. هل نفاقا للحاكم الجديد كما فعل كثير  
من اليهود .. أم تهربا من دفع الجزية كما فعل كثير من المسيحيين .. أم إنها  
عائلة اختارت الإسلام عن اقتناع كامل رفعها إلى مستوى الإيمان .. إنه هو  
شخصيا لم يضع نفسه فى حالة اختيار .. بل إنه يعتبر نفسه جاهلا فى فهم  
الإسلام .. مكتفيا بالإيمان عن الفهم .. لا .. يجب أن يدرك الإسلام  
وفهمه حتى يختاره ويكون أقوى إيمانا باختياره عن الإيمان بالاستسلام ..  
ولكن كيف .. كيف يبدأ ؟

وعشرات التساؤلات تتطرق مع طنين كلمات كمال الذى يملأ رأسه ..  
حتى وجد أنه حرم نفسه من متعة الأيام التى يقضيها على الشاطئ ..  
فلا يسبح فى مياه البحر .. ولا يجتمع بأصدقائه .. ولا يتمتع بالفرجة على  
أولاد النوأت المتجمعين فى ميامى .. إنما النزوى فى ركن بعيد من الشاطئ  
وألقى بنفسه راقدا على الشاطئ سارحا فى تساؤلات فكره .. إلى أن وجد

نفسه قبل أن تغيب الشمس يقوم بجري إلى كابين كمال باحثا عنه كأنه يريد أن يحمله مسئولية تهديته .. ولكنه وجد الكابين مغلقا ولم ير كمال ..  
وكل ذلك ودون أن تضجع من خياله ولا من إحسانه صورة دلبر أخت كمال .. إنه يناقش كمال وهو يحس كأنه يناقشها .. ويحاول أن يفهمه كأنه يحاول أن يفهمها .. حتى وهو يجري باحثا عنه كانت صورتها في إحساسه كأنه يتحدث عنها ..

وفي صباح اليوم التالي وضع المايوه وذهب إلى الشاطئ مبكرا كعادته في انتظار أن تلتقى عيناه بدلبر .. وجاءت في موعدها المبكر وهي تحفي المايوه وتفصيل قوامها خلف البنس السميك الطويل .. ومن خلفها الدادة العجوز داكنة السمار .. ونزلت إلى البحر والدادة تغوص في المياه وراءها لتخلع عنها البنس ثم تركتها تغطس وحدها .. وغطس في المياه معها .. إن من حقه الآن أن يحادثها بعد أن تعارفا .. واقترب منها وقال بابتسامته التي تنبض بفرحة :

— صباح الخير ..

وردت تحيته وابتسامتها تضن بفرحتها :

— بونجور ..

وقال كأنه وضع تحظيطا لبدء حديث طويل معها :

— لقد أسعدني الحظ بالتعرف إلى أهلك كمال .. وكأنا تعارفنا نحن الاثنين أيضا .. ولكن الواقع أن كمال أدهشني وحررت بكلامه معي .. حتى أني لم أستطع فهمه .. وقضيت طول نهار أمس وطول الليل كأني أناقشه لأصل إلى فهمه ..

وضحكت ضحكة صغيرة هادئة وقالت :

— إنك إذا فهمت كمال فليس معنى هذا أنك فهمت العائلة .. بل إنك حتى تفهم العائلة يجب ألا تفهم كمال فهي عائلة كل أفرادها لا يفهمون كمال .. كأنه يبتنا يتكلم بلغة غريبة لا يتكلمها واحد منا .. حتى انقطع الكلام بينه وبين بابا .. وبين أخى فؤاد .. بل وبينه وبين ماما .. وأختي نسلبار .. ربما كنت أنا الوحيدة التي تستطيع أن تتبادل معه بعض الكلمات بلغته .. وإن كنت لا أفهم كل كلامه ..

وقال من خلال فرحته :

— لقد أريد كمال أن أفهمه وحاول أن يفهمني نفسه .. وأتمنى أن أجد من يحاول أن يفهمني العائلة ..

وقالت دون أن ترد عليه وهي تحرك ذراعها تحت الماء وتسيح بعيدا عنه :  
— بردون ..

كأنها تعذر عن اضطرابها للابتعاد عنه ..

ولمح الدادة السمراء التي كانت جالسة على حافة الشاطئ قد قامت واقفة وهي تنظر إليه من بعيد كأنها تراقبه وتهم أن تدعو البوليس لاقاذا دلبر من شاب يعاكسها وهي تسيح في البحر ..

وابتسم كأنه يهنئ نفسه .. ويكفي أنه استطاع أن يبدأ الحديث معها حتى لو كان بضعة كلمات .. وأخذ يسيح منفردا إلى أن لمحها تخرج من البحر والدادة تتبعها بالبنس .. وتبعتها بعينيه حتى دخلت الكابين .. ثم ترك مياه البحر وألقى بنفسه على رمال الشاطئ تحت الشمس حتى يجف .. ثم قام ونفض نفسه من الرمل بدقة أزالت كل حبة رمل ثم سار متوجها إلى كمال .. لا يصح أن يبدو أمام أولاد الذوات وهو ملوث بحبات الرمال .. واستقبله كمال مرحبا بلهجته الطبيعية التي لا يشوبها أى افتعال مما تعود

أولاد الذوات .. وقال وهو يشده من يده :

— سنجلس تحت شمسية حتى لا يقطع أحد حديثنا ..

وابتسم منير بيته وبين نفسه مستسلما .. إن الجلوس تحت الشمسية  
يبعده عن دلبر .. وقال له كمال وهما يجلسان :

— هل بدأت تقرأ ميكافلي ؟

وقال منير من خلال ابتسامته :

— الحقيقة أني لم أقرأ شيئا منذ تركتك .. حتى ولا جريدة صباح  
اليوم .. إن عقلي مشغول بمحاولة فهم ما سمعته منك ..  
وضحك كمال قائلاً :

— إن فهمي يبدو صعبا في اللقاءات الأولى .. وأعرف أن ما أقوله يعتبر  
مفاجأة لمن يسمعي أول مرة .. كيف يقول ابن الباشا هذا الكلام .. ولكن  
المفاجأة لا تلبث أن تزول وأصبح سهل الفهم على كل من يسمعي .. على  
الأهل يفهمون أني لم اختر والدي ولكني ولدت له دون اختيار ..

وقال منير كأنه يلقي نكتة :

— إنها إرادة الله .. أنت ابن باشا وأنا ابن أفندي ..

وقال كمال وهو يضحك على النكتة :

— لو كان الله موجودا لناقشته في حقه أن يفرض على أبا لا اختاره ..

وقال منير كأنه يستغفر قبل أن تلحقه مصيبة :

— إن الله موجود ..

وقال كمال ساخرا :

— موجود في خيالك .. وأنا لم أعد خياليا .. وعندما يخيل إليك أنك  
تحدث الله فالواقع أنك تحدث نفسك .. لا أكثر .. وتصور أنك تحدث

الله لتهرب من نفسك .. من ضعفك .. من الواقع الذي تعيش فيه .. وأنا  
أعيش الواقع لذلك فإني أتحدث مع واقعي لا مع خيالي .. أي أن أتحدث  
إليك مثلا .. لأنك واقع في حياتي ولست مجرد وهم أتصوره ..

واتسعت عينا منير مبحلقا في كمال .. إن هذا الشاب كافر .. إنه  
لا يؤمن بالله .. وصرخ :

— إن الله موجود سواء رفعت حديثا إليه أو لم ترفع .. وهو ليس موجودا  
في الخيال .. ولكنه موجود بوجود الأرض والسماء .. والشمس والقمر ..  
والجبال والبحار .. والحر والبرد .. موجود داخل وجودك .. لولا الله لما كنت  
ولما كانت كل المخلوقات .. ذلك نلجأ إليه مستغيثين أو مستغفرين ..  
نطلب أن يرحمنا وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم ..

ونظر إليه كمال في دهشة كأنه فوجيء بتمسكه بإيمانه .. ثم قال هادئا  
كأنه هو الآخر متمسك بإيمانه :

— إن الموجود هو الإنسان .. والإنسان كأى شيء يوجد .. يبدأ ببذرة  
ثم ينمو .. وكلما نما الإنسان اكتشف سرا من أسرار وجوده .. وتصور  
الإنسان منذ مليون سنة مثلا .. لم يكن قد اكتشف سر الزراعة .. كان  
يأكل ما يجده على الأرض .. ولكنه مع نموه عرف كيف يزرع وكيف يختار  
ما يزرعه .. وسيستمر الإنسان في النمو حتى يكتشف سر الأرض والسماء  
والشمس والقمر والجبال والوديان .. أي يستكمل الانفراد بإرادته وفرض  
ما يختاره ..

وضحك منير وهو يصيح قائلاً :

— أنت الآن خيالي ولست واقعا .. إنك تتخيل الإنسان منذ مليون  
سنة .. وتخيله بعد مليون سنة .. ولكن حتى كل هذا الخيال لا يستطيع

أن يكشف لك أسرار الواقع .. إنك تقول إن وجود الإنسان بدأ بذرة أخذت تنمو .. ولكنك لا تسائل نفسك .. من أوجد هذه البذرة .. من خلق هذا الواقع منذ بدأ .. إنك لو ساءلت نفسك لاعترفت بوجود الخالق .. بوجود الله .. إن الله هو الواقع الوحيد الشامل والأسمى والذي يؤمن به كل فكر واقعي مهما اشتط به الخيال .. فأفق من خيالك وكن واقعياً ..

وقال كمال وهو يفتعل ابتسامة :

— إن من الواقعية أننا يمكننا أن نستمر في مناقشة هذا الموضوع العمر كله .. فدعنا منه الآن .. وقد قلت لي إنك لا تفهمني .. فلنبداً فهم ما تريد فهمه ..

وفي هذه اللحظة تقدم السفرجي الأنيق وهو في زيه الرسمي يحمل صينية فضية عليها كوبان من العصير واغنى بها أمامهما .. ومد كل منهما يده بسرعة يلتقط كوبا ويرفعه مباشرة إلى شفتيه كأنه يريد أن يخفف به من حدته ..

وقال منير وهو يتلعب ريقه كأنه يتمتع بما بقي فيه من قطرات العصير :

— الواقع أني أريد أن أفهم أولاً ما سمعته عن حياتك الخاصة حتى أستطيع أن أقيم عليها فهمي لأرائك .. لقد سمعت أنك حصلت على الشهادة الثانوية منذ سنتين .. فلماذا لم تلتحق بالجامعة كما يفعل كل من ينال التوجيهية ..

وقال كمال من خلال ابتسامته :

— ربما سمعت أن أولاد الأغنياء لا يدخلون الجامعة لأن الشهادات الجامعية مخصصة للحصول على وظائف الحكومة وهم ليسوا في حاجة إلى وظيفة حكومية .. وأنا منهم .. وقد يكون هذا صحيحاً في ناحية من

النواحي .. ولكنه ليس السبب في أني لم ألتحق بالجامعة .. السبب هو أني وجدت أن البرامج الدراسية في أي كلية نظرية وأنا أميل إلى الدراسات النظرية ، وجدتها لا تكفي ولا تحقق ما أريد دراسته .. لذلك بدأت الدراسة عن طريق التراسل مع جامعة كامبردج .. وبعد أن تنتهي الحرب العالمية سأسافر وألتحق بها .. ولن أكتفي بالدراسة في كامبردج .. بل سأسافر بعدها إلى موسكو لأدرس هناك ..

وقال منير في دهشة :

— لماذا موسكو ؟

وقال كمال في هدوء :

— لأدرس تطبيق النظرية ..

ويتلخ منير في وجه كمال قائلاً كأنه يواجهه بتهمه :

— لقد سمعت أنك ماركسي ولكني لم أصدق ..

وقال كمال ساخراً :

— لماذا لم تصدق ؟

وقال منير بسرعة :

— لأن الواقع الذي يحيط بك لا يمكن أن يؤدي بفكرك إلى الماركسية .. إن الفكر ينطلق من الخواطر .. والخواطر تنطلق من الواقع الذي يحيط بصاحب الفكر .. وما يحيط بك لا يمكن أن يثير فيك خواطر تؤدي بك إلى الفكر الشيوعي .. أو الفكر الماركسي ..

وقال كمال في هدوء الأستاذ :

— إن الفكر أحياناً يخرج عن الواقع الشخصي ويشمل الواقع العام .. وهذا ما وجدت فكري ينطلق إليه .. والواقع العام يقوم على عدم عدالة

التوزيع .. توزيع مطالب الحياة .. إن والدي مثلا يملك ألف ومائتي فدان ويستولى على كل إنتاجها بينما الذى يتحمل مسئولية هذا الإنتاج هو الفلاح .. والذى ونحن معه نعيش فى منتهى الرخاء .. الحد الأقصى من الرخاء .. بينما مئات الفلاحين يعيشون على أرضنا فى منتهى البؤس .. فأين عدالة التوزيع ؟ .. ثم ماذا يوفر إنتاج المصنع .. إنها الآلة وهو العامل .. وقد يهتم صاحب المصنع بتوفير مطالب الحياة للآلة حتى يضمن تشغيلها ولكنه لا يهتم بتوفير مطالب الحياة للعامل لأنه لو تركه يموت فسيجد غيره .. وأقصد توفير مطالب الحياة المتساوية .. أى يعيش الفلاح والعامل فى نفس المستوى الذى يعيشه أى وعبود باشا .. وأنا وإخوتى ..

وقال منير معارضا :

— هناك فارق بين الإصلاح والنظرية الماركسية فهى نظرية تطالب بمحو طبيعة النظام الإنسانى الذى وضعه الله .. وقد نص فى القرآن .. ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما أتاكم ﴾ ..

وقاطعة كمال قائلًا فى رجا :

— لا تستشهد فى كلامك بما جاء فى القرآن لأنى لا أستطيع أن أناقش الله .. إني أناقشك أنت .. قتل رأيك الخاص حتى مع إيمانك بالله .. ثم ماذا يقصد الله بأنه رفعتنا بعضنا فوق بعض درجات .. لا شك أنه يقصد أنه ميز بين الأفراد فى مستوى الذكاء .. أو فى مستوى القدرة على الإنتاج .. أو فى مستوى الاحتمال .. أو .. أو .. ولكنه لم يميز بتخصيص الحياة للبعض وحرمانها على البعض الآخر وإلا لما خلق هذا البعض .. ثم من يحدد أجر العامل ؟ .. الله أم صاحب المصنع .. وصاحب هذا المصنع قد يدخل الجحيم ولكن الله لا يغضب علينا إذا استطعنا أن ندخله جحيم الدنيا قبل أن

يصل به إلى جحيم الآخرة .. إن سيدك عمر بن الخطاب كما هو مسجل فى الكتب وجد بعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية أنه أخطأ فى ترك الحرية للمسلمين ليصل كل من يستطيع منهم إلى منتهى درجات السلب والنهب .. وأصبح من بينهم الغنى بلا حق والفقير بلا ذنب .. فقرر أن يضع نظاما جديدا يوفر المساواة والعدالة الاجتماعية لولا أنه قتل قبل أن يضع هذا النظام .. وهو نفس ما تفكر فيه اليوم ..

وقال منير كأنه فرح بإيمانه :

— لقد قلت ما ترد به على نفسك .. فسيدنا عمر لم يكن ماركسيا ولكنه كان مسلما كاملا .. أى أن الإسلام يعنى عن الماركسية .. فلماذا أنت ماركسى ..؟

وقال كمال وهو لا يزال هادئا كأنه تعود مثل هذه المحادثات :

— أنا لا أحب أن يقال عنى إني ماركسى أو لينينى .. إني إنما مقتنع بالماركسية اللينينية .. والافتناع يحتفظ لصاحبه بشخصيته .. أى أنى أستطيع أن أطبق نفس نظرية ماركس فى إطار آخر غير الإطار الذى رسمه ماركس .. بل إن ما طبقه لينين لا يقاس بما كان يتصوره ماركس .. حتى إنه من المعروف أن الشيوعية لم يحققها نظام حتى اليوم .. لا فى روسيا ولا فى غيرها .. لذلك لا نقل عنى إني ماركسى .. قل عنى إني كمال يحيى الروزنامجى ..

ودهش منير .. هل كمال إنسان مغرور حتى يتصور نفسه زعيما قائما بذاته ويرفض أن ينسب إلى أى نظرية حتى نظرية ماركس فى حين أنه يقول إنه مقتنع بها .. وقال منير مبتسما :

— على كل حال فإن اقتناعك يسهل عليك تحقيقه فى واقع .. فبعد وفاة

والدك أطال الله في عمرك تستطيع أن تقنع لإخوتك بتوزيع الأرض على  
الفلاحين الذين يزرعونها .. وتصبح النظرية واقعا ..

وارتفع صوت كمال مختدا :

— لا يمكن .. هذه جريمة تقضى على المستقبل كله .. فالأرض الزراعية  
التي يجب أن توزع ليست أرضنا وحدها .. بل يجب أن توزع كل أرض الله  
الزراعية على من يزرعها .. وتوزع المصانع على من يحقق إنتاجها .. وكل هذا  
لا يتحقق إلا بثورة .. بما فيها ثورة فلاحينا على والدي وعائلتي وعلى أنا  
شخصيا إذا لم أشرك في ثورتهم .. ولو وزعت أرضنا على فلاحينا فكأنى  
أوزع عليهم رشوة حتى لا يشتركوا في ثورة مصر ..

وقال منير وهو حائر في دهشته :

— إنك على الأقل تستطيع أن ترفع من دخلهم حتى يصلوا إلى مستوى  
أرفع في تحقيق مطالب الحياة ..

وصاح كمال :

— حتى هذا لن يحدث ولن أقدم عليه .. سأتركهم لما يعانونه حتى يجلدوا  
الطريق للتغلب عليه .. بل لاني فكرت يوما في أن أقيم مدرسة في أرضنا  
وعدت وعدت .. إني أنصحهم بكلامي أن يفتحوا لأنفسهم مدرسة  
ليعلموا فيها أولادهم .. فإما أن يفتحوا هذه المدرسة بأنفسهم وإما أن يثوروا  
مع ثورة كل فلاحى مصر حتى يحصلوا على حقهم في تعليم أولادهم .. وأنا  
أتمنى ثورة الفلاحين حتى لو قتلوني فيها لذلك لا أوزع عليهم الرشاوى حتى  
أحمى نفسى ..

وسكت منير تائها في حيرته .. ما حقيقة هذا الشاب .. ربما كان  
صادقا في اقتناعه بما يقول .. ولكن ربما أيضا يكون مدعيا يحاول أن يرسم

لنفسه صورة مظهرية تختلف عن صورة أولاد الذوات حتى يمثل بينهم  
شخصية جديدة تشتهر في مجتمعهم ويستطيع أن يكسب بها شيانا من  
خارج هذا المجتمع فتصبح له قيمة أخرى .. ولكن إذا اضطرتة هذه  
الشخصية إلى التنازل عن شيء من أملاكه وأمواله التي توفر له وضعه الذى  
ولد فيه .. فلن يتنازل عن مليم واحد .. لا للفلاحين ولا للعمال .. إن كل  
ما هناك أنه يكتشف لعبة جديدة يسلى بها نفسه ويقطع أوقات فراغه ..  
ويدلا من أن يقيم الحفلات الراقصة أو يجمع حوله الأصدقاء ليلعبوا الكوتشينة  
أو الطاولة .. فهو يلعب ويسلى نفسه بالمذاهب السياسية وادعاء  
الماركسية .. حتى يفاجئ الناس كأنه أول واحد من طبقته يلعب هذه  
اللعبة .. كما كان الكاتب الروسى تولستوى .. لقد كان من طبقة أصحاب  
الأرض الذين يحكمون روسيا ولكنه اكتسب شهرة عالمية لأنه كان يكتب  
عن حياة الفقراء في مواجهة طبقته .. من يدري حقيقة كمال يحيى  
الروزنجي ؟ .. من يدري ؟ .. ربما كان فعلا يحلم بثورة يصل بها إلى أن  
يكون هو شخصيا الذى يحكم مصر فالثورة التي قام بها أحد أجداد أمه على  
المماليك وذبحهم كلهم في وليمة غداء وانفرد بعدهم بالحكم .. يقصد ثورة  
محمد على ..

وأحس كأنه يكاد ينهار أمام كل هذه الخواطر التي تزدهم في رأسه  
فاستأذن في إنهاء المناقشة والابتعاد .. وألح كمال عليه أن يبقى معه لتناول  
الغداء ولكنه أصر على اعتذاره .. إنه يلمح من بعيد الولايم الفخمة التي تقام  
كل يوم في كابين كمال وتضم أفراد العائلة وأصدقاءهم موزعين داخل الكابين  
وتحت الشماسى .. ويلمح عشرات الأطباق من الأطعمة التي تقدم تشده  
حتى وهو بعيد .. ويقاومها .. إنه لا يريد أن يعود نفسه على أكثر من الطعام



المهم أن يملاً معدته بأى شيء .. وكان وهو يأكل يستمر في كل تقلب صفحات الكتاب إلى أن انتهى من قراءته .. لماذا أعطاه كمال هذا الكتاب كبدية للتعارف .. ربما أراد أن يقتعه بفساد كل الحكام حتى يسهل عليه بعد ذلك أن يقتعه بالثورة على أى حاكم ..

وفي المساء قرر منير أن يذهب للقاء كمال في مقهى بيترو .. إنه يحس بانجذاب للقاء كمال لا لمجرد الفرجة عليه كواحد من طبقة أولاد النوات كما كان من عاداته أن يفرح بهذه الفرجة .. ولكن هناك فرجة أخرى أثارها فيه كمال .. الفرجة على آراء جديدة كأنه يسافر بعقله إلى بلاد جديدة ويكتشف فيها آراء لم يعيشها ولم يسمعها من قبل .. ثم إن كمال في الواقع شخصية جذابة ترفع الكلفة سريعاً بينه وبين من يجادته .. وحديثه مشوق إلى الاستمرار فيه .. إنه يعرض الآراء العجيبة بلهجة بسيطة وكلمات مريحة كأن ليس فيها ما يثير العجب .. إنها مجرد واقع نواجهه بالاستسلام الطبيعي ..

وقد قام كمال يستقبل منير باسامة واسعة وفرحة رنانة .. ربما كان فرحاً بنفسه لأنه استطاع أن يجذبه إليه .. وكان حوله ثمانية من أصدقائه يلتفون حول مائدة واحدة .. قدمهم إليه كمال فرداً فرداً .. عجيبة .. ليس كمال وحده من أولاد النوات .. إن معه ثلاثة آخرين من نفس الطبقة .. ابن المانسترلى .. وابن عائلة ذو الفقار .. وابن عائلة شريف باشا .. لا شك أنهم الثلاثة شيوعيون مثل كمال وإلا لما اجتمعوا به هذا الاجتماع الخاص .. والباقون بينهم خليل وهو زميل في المدرسة وهو يعرف عنه أنه من عائلة أقل في مستوى الطبقة الوسطى من عائلته .. من السهل أن يقتنع خليل بالشيوعية .. أما الآخرون فإن منير يلتقى بهم لأول مرة ..

الذى يعده لنفسه وتكلفه الثلاث وجبات منه خمسة قروش تعريفة .. إنه لو قبل دعوة فقد يعود نفسه على أن يبحث عن دعوة كل يوم حتى يتمتع نفسه بأطياب الأطعمة ويوفر الخمسة القروش تعريفة والجهد الذى يبذله في إعداد الطعام لنفسه ..

وقال كمال وهو يصافحه ويضمه داخل ابنتامته :

— إننا نجلس كل مساء ابتداء من الساعة السابعة في مقهى بيترو عند مدخل سيدى بشر .. وسأكون في إنتظارك ..

وهز منير رأسه شاكراً .. ثم أدار رأسه مع أول خطوه بخطوها بعيداً عنه إلى ناحية الكابين .. يريد أن يرى دلبر .. وقد رآها .. ورآها تنظر إليه .. خيل إليه أنها تبتسم له .. بل خيل إليه أنها اختارت جلستها داخل الكابين بحيث تستطيع أن تسلط عينيها عليه طول وقت جلوسه مع أخيها ..

وابتسم بينه وبين نفسه متنبها كأنه يتعجب من أحلامه .. وسار المشوار الطويل وقدماه تغرزان في رمال الصحراء إلى أن وصل إلى العشة الخشبية التى يقيم فيها .. وأوقد « وابور الجاز » وبدأ يعد حلة البطاطس التى يعتمد عليها في إشباع جوعه .. وإلى أن يستوى البطاطس التقط كتاب ميكافلى الذى أعطاه له كمال وبدأ يقرأ .. إنه كتاب عجيب يضع للحاكم .. أى حاكم لأى بلد .. صورة نصاب خطير ينصب على الناس ويعذبهم بامتصاص دمائهم حتى يحقق أغراضه الخاصة التى تبدأ بفرض استمراره في الحكم مهما كان رأى الناس فيه .. وهو كتاب صغير لم يستطع أن يرفع عينيه عن سطوره إلا بعد أن شم رائحة الدخان تنطلق من حلة البطاطس وقد احترق ما فيها .. وقفز واقفا نحو وابور الجاز ثم جلس أمام الحلة يأكل ما فيها برغيف العيش الذى يحتفظ به منذ الأمس .. ولا يهيمه أن البطاطس أصبح محروقا ..

وقال كمال بعد أن لاحظ أن منير يدير عينيه في نظرات صامتة ولكنها حائرة بين أصدقائه الجالسين معه :

— نحن أصدقاء نجتمع هنا كل مساء .. وأهم ما يجمعنا أننا نخلصنا من الإحساس الطبقي .. كلنا طبقة واحدة .. بل إن المانسترلي وأبوه صاحب سوود يعتبر أن خليل الذي يعمل أبوه ساعيا في المكاتب الحكومية أرق منه في الطبقة التي وصل إليها .. الطبقة الفكرية .. الطبقة التي وصلت إلى أبعد في تحليل مبادئ العدالة الاجتماعية بالنسبة لمصر .. والتي ستكون يوما ما الطبقة المسعولة .. ولكن لا تعتقد أننا نكون حزبا سياسيا .. فرغم تجاوزنا في كل آرائنا إلا أننا لسنا حزبا وليس لنا تكوين حزبي .. إننا مجرد شلة .. ورفع منير حاجبيه دهشة .. لماذا يتعمد كمال أن ينفي اجتماعهم كحزب سياسي .. لعله لا يأمن بعد إليه ويخشى أن ينقل ما يسمعه من أسرار الشلة إلى المباحث العامة ..

وتغلب منير على دهشته وقال مبتسما :

— إنى لا أعانى أى إحساس طبقي .. فأنا لست غنيا من أولاد الذوات .. ولست أيضا فقيرا إلى حد أن أكون واحدا من الطبقة الفقيرة .. إنى كما يقال من الطبقة المتوسطة الحائرة بين الطبقة الغنية والطبقة الفقيرة .. وربما استطعت أن أصل إلى هذه الطبقة أو أقع في الطبقة الأخرى .. يمكن أن يقال إنى من الطبقة الحرة .. حر في اختيار مكافئ وأين أكون ..

وقال مصطفي وهو واحد ممن يلتقى بهم منير لأول مرة :

— كلام معقول .. أنا مثلك من الطبقة الحرة .. ولكنى سبقتك واخترت الطبقة التي تعتبر الطبقة الأحدث .. والطبقة العاملة .. وبدأ النقاش يتسع ويستمر طويلا بين أفراد الشلة .. وكله يدور حول

موضوع واحد .. موضوع النظام الطبقي ..

إلى أن قال منير كأنه يحاول أن يخرج من حيرته ويستريح :

— لماذا نحصر كل تصورنا للمستقبل في موضوع الطبقي .. بل لماذا يكون الحل الذي نعلم به .. هو أن نحصر الحاكم في طبقة واحدة إلى حد أن نتصور الإطاحة بباقي الطبقات .. لماذا لا نقتنع بأن كل شعوب الدنيا تضم الأغنياء والفقراء .. ونحاول التوفيق بين هذه الطبقات في نظام لا يحقق سيطرة طبقة على طبقة أو أن تعيش طبقة على حساب حق طبقة أخرى في الحياة .. كما حدث بين الشعب الإنجليزي ..

وصاح المانسترلي ساخطا :

— هل تعارض كارل ماركس ؟ ..

وقال منير وهو ينظر إليه متحديا :

— إنى لم أقرأ كارل ماركس بكل تفاصيله .. ولكنى قرأت وسمعت ليكون لي رأى سطحي .. ولكن هل معارضة كلمات كارل ماركس كمعارضة كلمات القرآن يحرمها الله ويدخل المعارض الجحيم ..

وصاح المانسترلي :

— ما لنا والله ؟ .. إننا نتحدث عن كارل ماركس ..

وقال كمال مقاطعا وهو يتسم مهدئا :

— كلنا عارضنا كارل ماركس عندما بدأنا الانتحاء إليه .. ولكن اسمع يا منير .. هل قرأت كتاب ميكافلي الذي أعطيتك ؟ ..

وقال منير وهو لا يزال ينهج من ثقل النقاش :

— إن ما فهمته من كتاب ميكافلي هو أن الحاكم لا يعتمد على طبقة ولا يعتمد على مذهب من مذاهب الحكم ولكنه يعتمد على

نفسه في تحقيق أغراضه .. أو أتى فهمت أن الواقع هو أن الشعوب لا تنقسم إلى طبقات وفقا للوضع الاقتصادي كما تقولون .. بل تنقسم إلى طبقتين فقط .. طبقة الحاكم وطبقة المحكومين .. بصرف النظر عن المذاهب .. كل المذاهب .. حتى إنى بدأت أقتنع بأنه حتى في روسيا اليوم ليست طبقة واحدة هي التي تحكم .. إنها هي طبقة الحكام وطبقة المحكومين ..

وقال كمال في بساطة وهو لا يزال مبتسما :

— إنك لم تخرج عن الفهم الصحيح .. وأنت قد استشهدت في كلامك بالشعب الإنجليزي .. إن الطبقة المحكومة في إنجلترا هي طبقة الأغلبية قضت مائتي عام في ثورة على طبقة الأقلية الحاكمة .. حتى تحقق توحيد الطبقتين في نظام واحد يحقق أهداف كل منهما .. وكارل ماركس وفر عليك هذه المائتي عام ووضع النظام الذي يحقق المساواة في الحال وبمجرد استطاعتك تطبيقه .. وقد جئت معي بكتاب كارل ماركس لتقرأه .. لقد كنت واثقا أنك ستأتني لتجلس معنا .. وهو مترجم إلى العربية حتى يصبح سهلا عليك .. ولكن كن حذرا وحريصا .. إنه كتاب محرم في مصر ولو ضبط معك لوقعت عليك وربما علينا كلنا مصيبة ..

ومد منير يده وأخذ الكتاب شاكرا بلا حماس .. ثم استأذن وقام منصرفا دون أن يكلف نفسه مصافحة أفراد الشلة .. وسار طريقه وآرائه فيما سمعه نائرة كأنها زوابع تعصف برأسه .. وعندما وصل إلى عشته ألقى بكتاب كارل ماركس بعيدا بسخط وحده .. إنه لن يقرأه .. ولن يعود مرة ثانية إلى لقاء هذه الشلة .. إنهم كلهم شيوعيون .. ماركسيون .. وهو لا يريد أن ينضم إلى أي مذهب .. ولا حتى أن يتخذ معارضة أي مذهب .. إنه

سبيقي ويتمسك بحريته .. حريته كفردي .. ومن حقه أن يقتنع أو يعارض كل صفحة يقرأها عن أي مذهب .. إن حريته الفردية العقلية هي المذهب الذي يؤمن به .. حرية فوق كل المذاهب ..

\*\*\*

وفي صباح اليوم التالي لم يتردد في السعي إلى الشاطئ بحثا عن دلبر .. ووقف بعيدا يلمحها وهي تغوص في مياه البحر والدادة الغامقة السمار تتبعها .. وغاص وراءها .. ولكن هل يتقدم ليبدأها بالحديث .. إنها في الأمس سمحت له بكلمتين ثم تركته .. لعلها اليوم لن تسمح له حتى بهاتين الكلمتين .. وقد تنجرا أكثر الدادة التي تراقبها من على الشاطئ وتستدعي البوليس ليحمي دلبر من شاب يعاكسها .. وظل مترددا .. إلى أن فوجيء بدلبر هي التي تقترب منه وتبدئه بالحديث :

— بونجور ..

ورد عليها فرحا بها :

— صباح الخير ..

وظال الحديث عن الكلمتين اللتين سمحت له بهما أمس .. والدادة واقفة على الشاطئ تبحلق فيهما ولكنها لم تستدع البوليس ..

اعتزازه وثقته بنفسه وهو يتحدث .. وأنا أعطى الحق لكل فرد في أن يتحدث فيما يريد حتى لو لم يجد مستمعين يفهمونه كما لا أفهم أنا كإل ..

الحمد لله .. إن أخواها لم يقنعها بالماركسية .. رغم أنه كانت قد بدأت تظهر في تلك الأيام بنات يتظاهرن بالماركسية كظاهرن بآخر موضة وصلت إلى مصر ..

إلى أن بدأ أخواها يخفى من أحاديثهما .. إنهما يتحدثان عن كل ما في الدنيا وكأن كلا منهما يحاول أن يدخل في حياة وفي فكر الآخر .. والمهم أنه حديث لا يريدان له نهاية .. حديث لا يهمهما فيه ما يقولانه وكل ما يهمهما أن يستمرا فيه دون أن ينتهي ..

وبدا منير يحس بقوة ارتباطه بدليل .. إنها معه في إحساسه وفي عقله وفي خياله طوال دقائق عمره .. حتى عندما ينام يحس أنه يغمض عينيه وهو معها بين أمواج البحر .. إنه يحبها .. لا يمكن أن يكون كل هذا الإحساس بها إلا إحساس الحب .. ولكن ماذا يمكن أن يحقق هذا الحب له أو لها ؟ .. كيف يمكن أن يجمعهما في كيان واحد ؟ .. إنها ابنة يحيى باشا الروزنجي .. ابنة الطبقة الراقية .. ابنة كل هذا الترف الباذخ .. وهو ابن عبد الله أفندي غانم الموظف البسيط في وزارة المعارف .. ابن النصف الأسفل من الطبقة التي تسمى الطبقة المتوسطة .. ابن الناس الذين تقوم سعادتهم على الاكتفاء بما في أيديهم .. فكيف يصل ابن الأفندي إلى ابنة الباشا .. وكيف تهجر ابنة الطبقة الراقية طبقته لتعيش محرومة داخل الطبقة المتوسطة .. كيف تقبل فتاة تعيش بين فئة مميزة من الناس أن تنزل لتعيش بين ملايين الناس العاديين .. إن الحب لا يمكن أن يصل إلى هذا الحد .. الحب ليس ارتباطا بين اثنين .. فتى وفتاة .. إنه ارتباط بين حالة وحالة من

( ٣ )

إن الأيام تجرى به وهو على شاطئ ميامي ..

وقد أصبح يلتقى كل صباح بدليل كأنهما على موعد يجمعهما دون أن يتفقا عليه .. ولم يعد يهمهما وقوف الدادة على الشاطئ تحلق فيهما حتى استسلمت الدادة ولم تعد تقف على قدميها لتراقبهما .. ولكنهما كانا يحرصان على الانزواء ليقائهما كأنهما يعترفان بأنه لقاء سر بينهما وليس من حق الناس أن يكتشفوا سرهما بل وليس من حقهما أن يواجهوا الناس به .. فكانا لا يلتقيان إلا بين أمواج البحر .. وخارج البحر لا يلتقيان إلا بمجرد نظرات من بعيد إذا التقت عيناه بعينها صدفة .. وحديث اللقائ يطول دون أن تقطعه هواجسهما للسباحة .. إلى أن تقدر دلبر أن أفراد عائلتها بدعوا يتوافدون على الكابين معتذرن له ويتبعدون أن يتفقا على لقاء الغد .. كأنهما مستسلمان للقدر .. أو الصدفة ..

وفي أوائل أيام اللقاء كان يكثر في التحدث معها عن أخيها كإل .. كأنه يعتبر أن صداقته لأخيها هي كل دافع لقائهما .. وكان في الوقت نفسه يريد أن يعرف منها المزيد عن أخيها بعد أن أصبح يشغل بآرائه فكره كله .. وكانت ترد عليه مبتسمة :

— قلت لك إنى لا أبذل جهدا في فهم ما يقوله أخى .. وهو يقول لي أكثر مما يقوله لأحد من إخوتي .. ولكنى أبذل الجهد في استمرار سماعي له لأنى أحس بأنى أسعده بهذا الاستماع .. وأنه في منتهى السعادة وفي قمة

بالسباحة في البحر مثلك .. لأنهن من عائلة فقيرة .. وأنت لا تعلمين  
كيف أعيش هنا .. إنني هنا وحدي وأقيم في عشة خشبية في الرمال ..  
وأخدم نفسي .. أطبخ وأغسل وأكس .. لا أظن أنك تعرفين ما هو الطبخ  
أو الغسل .. ( واتسعت ابتسامته مستطردا ) .. ربما لو كنا قد التقينا في  
القاهرة لما استمر هذا اللقاء .. فإني في القاهرة لا أستطيع أن أخفي  
حقيقتي داخل المايوه كما أفعل هنا .. وليس فيها مكان يجمع بنات النوات  
وأستطيع أن أتسلل إليه لأراك ..

وقالت وابتسامتها تملأ عينها كأنها تتعمد أن ترفه عنه :

— أنا لا يهمني الفقر أو الغنى .. وأنت لا تدري أن والدي ..  
الروزنجي باشا بجلالة قدره .. مرت به حالة فقر كاملة فقد كان أفراد العائلة  
قد أصبح عددهم مئات وبيع كل منهم ما وصل إليه .. حتى إن بابا كان  
يعيش على الاستجداء .. إلى أن تزوج ماما .. وكل الأراضي التي يملكها هي  
أصلا من أراضي عائلة ماما .. وقد كان شاطرا واستطاع أن يستغلها ويستغل  
أيضا عائلة ماما إلى أن وصل إلى كل شيء .. صحيح أنه من عائلة  
الروزنجي ولكن عائلة ماما أكبر وأغنى ..

وقال غاضبا :

— أنا لا يمكن أن أفكر أو أبني مستقبلي معتمدا على استغلالك .. كما  
استغل أبوك أمك .. بل إنني لا أشعر بالفقر الذي أنا فيه .. أنا أقوى من  
الفقر ..

وقالت في هدوء :

— أنا مطمئنة إلى أنك لن تستغني أبدا .. إنك لا تتصور أن ماما  
لا تحب بابا .. بل إنها تكرهه .. وهي التي تحكي لنا كل هذه الحكايات

حالات الحياة .. وربما كان عليه أن يرحم نفسه من هذا الوهم الذي يعيش به  
ويهرب من هذا الحب .. أسهل عليه الهرب الآن قبل أن يشتد به هذا الحب  
ويعجز عن الهرب منه ..

وقرر أن يصارحها بكل خواطره حتى يرتاح .. وحتى يواجه المستقبل كما  
يتفقان عليه حتى لو اتفقا على إلغاء مستقبلهما معا .. وقال من خلال  
ابتسامته يرميها على شفتيه وهما في البحر :

— إنني أعرفك أكثر مما تعرفيني ..

وقالت في ابتسامه مرحة :

— إنني أعرف عنك ما يكفي ..

وقال جادا :

— لن يكفيك ما تعرفينه مع الأيام .. إنني أعرف أنك ابنة الروزنجي  
باشا .. وأنت من بنات النوات .. وأن عائلتك في منتهى الغناء .. ولكن  
أنا ..

وقاطعته قائلة في مرح :

— وأنا أعرف اسمك كاملا .. منير غانم .. وأعرف أنك ستلتحق  
بالجامعة هذا العام .. وأعرف أن أخي معجب بك ويتحدث عنك كثيرا  
وإن كان يشكو منك كثيرا أيضا .. وقد قلت لك إنني قريبة جدا من أخي  
كأل .. وما يعجبه يعجبني دائما ..

وقال وهو أكثر جدية :

— كل هذا لا يكفي .. إنك لا تعلمين أني ابن موظف عادي من  
موظفي الحكومة .. وأنا فقراء .. لسنا محتاجين لأحد ولكننا لسنا أغنياء ..  
وأخواتي البنات لا يستطعن قضاء الصيف على شاطئ ميامي والتمتع

كأنها تعاريفه بفضلها عليه .. ولكن لماذا تثير مثل هذه الموضوعات الآن ؟ .. إننا نقضى أياما في لقاءات سعيدة .. وسعادتى تغيبنى عن التفكير فى أى شىء يعكرها .. وأتمنى أن تغيبك أنت أيضا عن تصور أن هناك فارقا بينى وبينك ..

وصمت برهة .. إنها تكفى بإحساسها به يوما بيوم .. ليس فى إحساسها ما يدفعها إلى التفكير فى المستقبل الذى يفكر فيه هو .. ثم قال :

— لك حق .. لنكف باليوم الذى نعيش فيه ..

ثم التقط يدها وغاص بها فى البحر ضاحكا .. إن من حقه الآن أن يضغط على يدها عندما يحسك بها ..

وقال لها قبل أن تتركه :

— إنى لم أعد أكفى بهذا اللقاء فى باكورة الصباح .. وطول يومى أتمنى أن أراك مرة ثانية ..

وقالت فى فرحة :

— إننا نذهب كل مساء إلى كازينو سان استفانو .. هل أستطيع أن

أراك هناك ؟ .. لقد اكتشفت ركنا متزويا نستطيع أن نلتقى فيه

للتحدث .. وقد اكتشفته لأنى وثيقة أننا يوما سنلتقى هناك فكنت أبحث عن المكان الذى نهرب فيه من الناس .. هل تأتى إلى فى سان استفانو ؟ ..

وقال وابتسامته حائرة مع فكره :

— سأحاول ..

إن سان استفانو كان أرقى فنادق الإسكندرية وكان يجمع فى لياليه كل أولاد وبنات النوات بل كل كبار السياسيين .. كنت ترى فيه مصطفى

النحاس باشا وكل كبار رجال الوفد .. كما ترى كل الرؤساء وكل الباشوات وكان يعلم أن أصدقاءه من شبان أولاد النوات يسهرون فى كازينو الفندق .. وهو قد وضع ميزانية مصروفه بحيث توفر عشرين قرشا ليسهر بها كل يوم سبت فى هذا الكازينو .. واختار يوم السبت لأنه اكتشف بدكائه أنه يوم سهرة الخواجات والكازينو يراعى يوم السبت أكثر من يوم الخميس .. يوم المصريين .. ومنذ وصل إلى الإسكندرية لم يذهب إلى الكازينو إلا مرة واحدة .. فى انتظار السبت القادم إذا أراد أن يذهب مرة ثانية .. ولكنه لا يستطيع أن يستسلم للميزانية وللنظام الذى رسمه بعد أن وعدته دلبر باللقاء هناك ..

وذهب إلى كازينو سان استفانو .. وأخذ يتمشى جيئة وذهابا فى المشى الطويل المطل على البحر والذى يتمشى فيه كل الرواد .. إلى أن لمح دلبر تمشى مع بضعة من الصديقات .. وتبادلا النظرات كأنهما يتحدathan بعيونهما .. ثم انفصلت دلبر عن صديقاتها وسارت وحدها وهو يتبعها من بعيد إلى أن وصلت إلى مكان هادئ خافت الضوء خلف دار السينما المقامة هناك .. إنها لا شك تعمدت اكتشاف هذا المكان ..

ووقفا يتحدathan ويتضاحكان وهما فى قمة الانطلاق .. إنه يحس بنفسه هنا أقرب إليها منه عندما يلتقى بها فى البحر .. ربما لأنه أحس بأنه مرتفع إلى مستواها .. فالبحر يجمع الشعب أما كازينو سان استفانو فهو لا يجمع إلا أولاد النوات ..

وتركته عندما قدرت أن أفراد عائلتها بدعوا فى البحث عنها .. وبقي هو بعدها فى الكازينو حتى يقنع نفسه بأنه أتم استغلال العشرة القروش التى دفعها ثمن تذكرة الدخول والعشرة القروش التى دفعها ثمن للمشروب .. ثم

خرج وسار على قدميه أكثر من ساعة بين سان استفانو وعشته في صحراء سيدى بشر .. فلم يكن يستطيع أن يستأجر تاكسى ..

ومن تأثير قوة السعادة التي أحس بها وهو معها في مجتمعها جازف في اليوم التالي وذهب أيضا إلى سان استفانو رغم أنه لم يكن قد اتفق معها في لقاء الصباح .. إن كل لقاءاتهما هكذا .. بلا اتفاق .. ولكنه حرص في هذه المرة على ألا يطلب مشروبا حتى لا يتكلف أكثر من العشرة القروش ثمن تذكرة الدخول ..

وقد انتابته نفس النواجع في المساء التالي .. يريد أن يذهب للقاء دلبر في الكازينو .. إنه يحس بها هناك كأنهما في بيت واحد .. بيتها .. ولكنه بدأ يراجع ميزانيته بجديّة أكثر .. إنه لو استمر في دفع أجر دخول الكازينو فسيفلس بعد يومين أو ثلاثة ويضطر أن يترك دلبر والإسكندرية كلها ويعود إلى القاهرة ..

ولم يذهب إلى الكازينو .. ولم تسأله في الصباح لماذا لم تره في السهرة .. لعلها تترك له حرية اللقاء ماداما لم يرتبطا بموعد .. ولكنه بعد أن امتنع عدة ليالي عن الذهاب إليها هناك سألته :

— لماذا لا تأتي ؟ ..

وقال في بساطة :

— لم أعد أستطيع .. إنى أصبحت أقرب إلى الإفلاس ..

وسهمت دلبر برهة ثم قالت من خلال ابتسامة واسعة :

— إنى أفكر في خطة قد أستطيع بها أن آتى إليك أنا في ما تسميه العشة

التي تقيم فيها ..

وارتفع حاجبا منير دهشة .. تأتى إلى عشته .. ووحدها .. وفي الليل ؟ .. لعل هذا من مغامرات أولاد الذوات .. وكم دهشته وقال :

— لن تستطيعي الوصول إلى العشة وحدك .. إنها في مكان مجهول إلا للمستكشفين الخبراء ..

وقالت في مرح :

— تنتظرنى في أقرب شارع إليها ..

وقال وقد بدأت دهشته تفضحه :

— هل تستطيعين .. ومتى ؟

وقالت بمرحها :

— سأحاول الليلة .. انتظرنى في الساعة الثامنة .. وإذا لم آت

فلا تغضب فإن المحاولة تكون قد فشلت ..

وأخذ يصف لها الطريق الذى يمكن أن يتلقى بها فيه حتى يصاحبها إلى العشة .. وبعد أن تركها أسرع إلى العشة وأخذ يكنس أرضها ويمسح نوافذها حتى تبدو مجرد نظيفة فهى أخشاب قديمة لا يمكن أن تلمع ، ثم غسل كل الأطباق والأكواب ونظف جيدا عدة وابور الجاز حتى تبدو لامعة ..

وفي الثامنة كان ينتظرها .. وقد انتظرها طويلا دون أن يمل من مقاومة يأسه .. حتى وصل في انتظارها إلى الساعة العاشرة .. فعاد إلى العشة وهو يسخر من نفسه ومن أحلامه .. ولا ينام ..

واعترضت له في الصباح التالي .. إنها لم تستطع .. ولكن من المؤكد أن المحاولة ستنجح هذا المساء .. لقد وضعت الخطة كاملة وبعد حساب كل الاحتمالات .. فليتنظرها ..

وجاءت في تاكسى ..

وصحبها عبر صحراء سيدى بشر وأقدامهما تغوص في الرمال وقد وضعت ذراعها في ذراعه والهزات تميل بقوامها لتلتصق بقوامه .. إلى أن وصلا إلى العشة .. وقالت دلبر ضاحكة بمجرد أن دخلت :

— هل تدرى لماذا أردت أن ألتقى بك هنا ؟ .. لأثبت لك أنى ست ممتازة .. حتى بنت الباشا تستطيع أن تكون ست بيت ..  
وأدارت عينها في العشة دون أن تتأفف أو تتعالى وكأنها تدير عينها في بيتها وصاحت :

— كل قطع « الميل » يجب أن يتغير وضعها ..

تقصد قطع الأثاث ..

وأخذت تنقل السرير والمائدة والمقعد المكسور وتعيد وضعها في أماكن جديدة وهي تطلب منه كأنها تأمره بمساعدتها .. ثم وقفت تنظر كأنها مبهورة بنفسها :

— أليس هكذا أجهل ؟ ..

وقال ضاحكا :

— أجهل ألف مرة .. لأنه ذوقك ..

ولم ترد عليه وقالت وهي تفتح الدولاب الصغير :

— والآن سأطبخ لك .. ماذا عندك ؟ .. إنى سأعد لك طبق بيض

لأن الوقت أمامنا ضيق ..

وقال ضاحكا :

— ليس عندى إلا بيضة واحدة ..

وقالت وهي تفتش في الدولاب :

— تكفيننا نحن الاثنين ..

ثم بدأت تخرج كل شيء تجده في الدولاب .. بيضة .. وقطعة جبن صغيرة .. وخيارة واحدة .. وبقاى قطع من البطاطس المطبوخ في حلة ومعها بقية قطعة لحم .. وقالت :

— أشعل أنت هذا الواپور فانى لم أتدرب بعد على إشعاله ..

وأعدت طبقا عجيبا يجمع كل ما وجدته مخلوطا بعضه ببعض .. ووضعته على المائدة .. وأخذت تدق بيدها على المائدة كأنها تدق جرسا وهي تصيح :

— العشاء جاهز .. تفضل ..

وهما لا يكفان عن الكلام والضحك وأحيانا الصراخ المرح .. ودون أن يلتقيا في شيء آخر .. إلى أن حان الوقت لتذهب .. إنها لا تستطيع أن تبقى أكثر من ساعة وقد مضت ساعة ونصف الساعة .. وصحبها عبر الصحراء ويده تحضن يدها وتضغط عليها كأنها لن تتركها أبدا .. وصمت يسودهما كأن كلا منهما تائه في شيء ينقصه .. ولم يستطع أن يستمر في مقاومة هذا الشيء .. فتوقف وشدها إلى صدره دون أن يطل في عينها .. واحتضنها بذراعيه بكل قوته كأنه يريد أن يدخلها في قلبه .. وشفثاه تغوص في شعر رأسها ثم تبحث عن خديها ثم تستقر بين شفثتها .. وهى مستسلمة .. غاية الاستسلام ..

وكانت هذه أول قبلة يلتقيان فيها ..

واكتفيا بها .. وعادا يسيران صامتين إلى أن خرجا إلى الشارع .. ووجد لها سيارة تاكسى وضعت نفسها فيها .. وهما صامتان وكل الكلام بين عينيه وعينها ..



وعاد إلى العشة كأنه يسير فوق قطع السحاب ..

لقد جاءت إليه .. إلى بيته .. إلى بيتها ..

ولم تكن أول من جاء إليه من عائلة الروزنامجي .. لقد سبقها أخوها كمال

وجاء إليه مرة ..

والصدقة التي بدأت تربط بينه وبين كمال كانت صداقة من نوع

عجيب .. فهو على قدر تعلقه بالجلوس معه وسماع أحاديثه التي كانت كأنها

تأخذه ليتفرج على دنيا عجيبة .. كان يطرأ على خاطره أنه إنسان خطير وأنه

يريد أن يستغله ويدفعه إلى ثورة سياسية تحقق أغراضه .. وكان أحيانا يحاول

أن ينكر هذه الصداقة .. إنه لا يعرفه إلا للفرجة على أولاد الذوات .. وكان

يحس بكمال أحيانا بأنه متعلق به كل تعلق الصداقة وأنه يبذل مجهودا في

التقرب إليه .. وكان كأنه أخوه المسئول عن توجيهه وأخذه في الطريق

الصحيح .. طريق الماركسية .. وأحيانا يحس منير بأن كمال يستهين به حتى

يكاد يتهمه بالثفافة والسخافة في كل آرائه .. أو أحيانا يتهمه بأنه من طبقة

لا يمكن أن ترتقى أبدا ولا يمكن أن يتسع طموحها نحو بناء مستقبل

جديد ..

وكان قد حدث عندما ذهب منير إلى مقهى بيترو والتقى بكمال وأفراد

الشلة واشتد النقاش بينه وبينهم أن تركهم وقد قرر أن يبعد نفسه عنهم ..

سواء كانوا حزبا سياسيا أو كانوا كما يسمون أنفسهم ، شلة .. بل ويبعد

نفسه أيضا عن كمال .. حتى لو كان يعتبر نفسه أنه يتفرج عليه فإنه بدأ

يحس أنها فرجة خطيرة قد تقوده إلى مصائب أو على الأقل إلى نوع من الحياة

لا يجب أن يوجد فيه .. لذلك تعمد في صباح اليوم التالي بعد أن انتهى لقاءه

مع دلير ألا يبحث عن أحياء كمال ليجلس معه كما كان قد تعود .. بل ذهب

وقضى يومه مع شلة أخرى من الأصدقاء في ناحية أخرى من الشاطئ ..

وطبعاً لم يفكر في المساء أن يذهب إلى مقهى بيترو .. وفي صباح اليوم التالي

أيضا تعمد ألا يلتقي بكمال .. وكان قد عاد إلى عشته وأعد لنفسه

ما يأكله ثم جلس يقرأ كتابا للرافعي عن تاريخ مصر كان من بين الكتب

التي حملها معه من مصر .. وكانت الساعة السادسة مساءً وكان يعد نفسه

للخروج للتمشية في شارع الكورنيش كما عود نفسه ، عندما فوجئ بأن

رأى كمال الروزنامجي أمامه .. في عشته .. وكان معه خليل زميله في المدرسة

والذي رآه بين أفراد شلة مقهى بيترو .. وفوجئ دهشا .. وقال كمال فوراً

بمجرد دخوله وهو يضحك :

— أين أنت يا رجل ؟ .. أهلكنا في البحث عنك ..

ولم يكن كمال يتطلع إلى ما في داخل العشة كأنه يتفرج على حياة

الفقراء .. كأنه تعود على الالتقاء بالفقراء في بيوتهم .. وكان طبيعياً كأنه في

بيت يعرفه حتى إنه ألقى بنفسه جالساً على المقعد المحطم دون أن يدعه منير

إلى الجلوس .. ولكن كيف عرف كمال مكان هذه العشة .. إن خليل الذي

جاء معه لم يسبق أن جاء إليه ولا يعتقد أنه كان يعرف المكان .. لقد عرف

منير فيما بعد أن كمال يستطيع دائماً أن يصل إلى ما يريد .. وقد سأل وتحرى

إلى أن وصل إلى صديق من القلائل الذين يعرفون أين مكان هذه العشة التي

يقع فيها منير .. ولا شك أنه تعب في التحرى .. ولا شك أن هناك واقعا قربا

يدفعه إلى أن يلتقي بمنير ويبذل كل هذا الجهد للوصول إلى لقاءه ..

وقال كمال من خلال ابتسامته الواسعة وهجته المرحة :

— لقد تركنا عندما التقينا في المقهى وأنت غاضب .. أو على الأقل لم

تكن سعيداً بهذا اللقاء .. وقد انتظرتك في الصباح التالي على الشاطئ

ولكنك لم تظهر .. وانظرتك صباح اليوم ولم تظهر .. وخفت أن يكون لقاء واحد مع الشلة قد دفعك إلى الانتحار .. أو على الأقل يكون قد دفعك إلى الهرب .. أنا نفسى تمر على حالات أقاوم فيها متعة الانتحار أو الهرب .. ولكن كان يجب أن نتناقش قبل أن نتخذ أى قرار ..

وقال منير وهو يتسّم ويلقى نفسه جالسا على أرض العشة :

— كل ما هنالك أنى لم أتحمّل أسلوب المناقشة .. وخفت أن تنتهى بخناقة .. وأنا لا أحب الخناقات .. وأهرب دائما من دوافعها .. بل أتحمّل أحيانا دوافع الخناقات دونى أن أدخل فيها .. لم يرحنى فى لقاء المقهى إلا صديقى خليل ..

وقال خليل وهو يجلس على الأرض بجانب منير :

— لم تكن هناك خناقات .. أو ما يحتمل الوصول إلى خناقة .. ولكن كل واحد له أسلوبه فى التعبير عن رأيه .. هناك من يعبر عن رأيه بالصراخ وهناك من يعبر عن رأيه بهدوء .. والصراخ ليس خناقة ولكنه موسيقى شاذة مزعجة ..

وقال كمال ضاحكا :

— لقد قلت لى إنك تأخذ الحياة كلها على أنها فرجة .. حتى عندما تقرأ كتابا تحس أنك تتفرج على الآراء التى تعرضها السطور وربما جئت للقاء الشلة فى المقهى للتفرج عليها فلم تحتمل أى نقاش ..

وقال منير فى هدوء :

— هذا صحيح .. ولكن الفرجة لا تقلل من احترامى لما أتفرج عليه .. إنى عندما أقرأ كتابا لأنفرج على ما فيه فليس معنى هذا أنى أستهين بما أقرئه أو لا أحترمه .. ولكنى لا أتعمد التأثير أو التحيز لما أقرئه ولكنى

أترك الكتاب نفسه يحاول أن يرسب فى عقلى ما يستطيع ترسيبه .. الكتب الوحيدة التى أحاول حفظها وفهمها متعمدا هى الكتب الدراسية حتى أضمن النجاح فى الامتحان .. وغالبا ما يحدث بعد الامتحان أن أنسى تسعين فى المائة مما قرأته وحفظته وأعود وكل إحساسى بها أنى سبق أن تفرجت عليها .. وقد تفرجت على شلة مقهى يتررو ولم ترحنى الفرجة .

وقال كمال هادئا :

— إن المتفرج أيضا له رأى فيما يتفرج عليه .. وقد يعبر عن رأيه قبل أن تنتهى المسرحية التى يتفرج عليها .. فيصفق مؤيدا .. أو قد يصرخ معترضا وهو جالس بين المتفرجين .. ولكن هناك ما هو أهم من ذلك .. فقد خفت أن تعتقد أن دعوتك للجلوس مع الشلة لتنضم إليها .. أبدا .. لم أقصد ذلك مطلقا .. ولكنى أحسست منذ التقيت بك أننا يمكن أن نكون أصدقاء .. وقد دعوتك إلى الشلة لتعرفنى أكثر وتوسع صداقتنا .. ورأيت فى الشلة لا يؤثر فى هذه الصداقة .. المهم رأيتك فى ..

وقال منير وهو يتسّم كأنه سعيد بهذا الكلام :

— أنا أيضا أنجذبت إليك من أول لقاء وتفتح قلبى وعقلى لصداقتك رغم غرابة الآراء التى كنت أسمعها منك .. ولكنها غرابة تجعل الفرجة أمتع والارتباط أقوى .. ولم أكن أتصور أن أكون صديقا لابن باشا ..

وقال كمال محتدا :

— إن كل من يعتبرى ابن باشا لا يمكن أن يكون صديقا لأنه بذلك لا يعرفنى ..

وقال منير كأنه يعتنر :

— إنى نسيت انك ابن باشا منذ اللقاء الأول .. وربما لذلك أحسست

أحبها كمال .. ووصل إلى أن قبل دعوته للغداء على الشاطئ .. لقد كان يرفض هذه الدعوة لأنه لا يستطيع أن يردّها .. ولكن كمال دخل العشة وإن كان لم يقدم له إلا ماء القلّة ولكن أصبح من الطبيعي أن يقبل دعوته ..

وقد تناولا الغداء وحدهما تجمعهما مائدة تحت الشمسية بعيدا عن الكايين .. اثنان من السفريّة يقومان على خدمتهما .. وقد ذهل من فخامة المعدات التي وضعت لهما .. إنها كلها معدات فضية وبينها لاقطة لصنف من الطعام يختلف عن الشوكة .. إنها مخصصة لالتقاط قطع « الأسبرج » التي تقدم في أول الطعام مع السلطنة .. وقد لاحظ كمال دهشته وحيرته فأخذ دون أن يصارحه يتعمد تعليمه كيف يأكل هذا الطعام بهذه المعدات .. فرفع اللاقطة ورفع بها قطعة الأسبرج ووضعها في فمه .. ومنير يراقبه ثم يقلده .. وقد قدم إليه بعد ذلك حيوان البحر الذي عرف بعد ذلك أن اسمه « لانجوست » . وحاول أن يأكل ما في باطن هذا الحيوان بالشوكة والسكين فلم يستطع كيف يرفع بالشوكة القطع التي يمكن أن يضعها في فمه .. وخه كمال وهو يعاني اللخمة فألقى من يديه الشوكة والسكين وبدأ يأكل ما في داخل اللانجوست بأصابعه .. واستراح منير وقلده ..

كل ذلك وهو في دعوة على الشاطئ ولا يدري ما يمكن أن يراه لو قبل دعوة مماثلة في قصر العائلة في القاهرة ..

وقد تزايدت راحته ومتعته الذهنية بصداقة كمال حتى إنه قرر أن يذهب مرة ثانية إلى مقهى بيترو ويلتقى بالشلة .. وقد حرص كمال خلال اللقاء ألا يعرضه لأي نقاش وتركه يتمتع بالفرجة الذهنية على ما يسمعه .. ولكنه لم يذهب إلى المقهى بعد ذلك .. يريد أن يوفر القروش التي يدفعها أجرا للانتقال ..

أن إحساس الصداقة ينمو ..  
وطالت المناقشات بين الثلاثة حتى العاشرة مساء .. ومنير يحس أنه يزداد اكتشافا للعالم الجديد الذي ترسمه هذه المناقشات .. إلى أن وقف كمال بهم بالانصراف قائلا ضاحكا :

— أليس عندك كوب ماء يساعدنا على تحمل المشوار ؟ ..

وقال منير ضاحكا :

— عندي قلة ..

وأسرع وناول قلة الماء إلى كمال الذي أخذها وتحسها بيده ثم قال :  
— هائلة .. إنها صاقة ..

ثم رفع القلة بعيدا عن شفّيته وفتح فمه وترك الماء ينسكب فيه من بعيد .. كأنه ابن بلد تعود على فن الشرب من القليل .. ثم وضع القلة مكانها وملح كتاب كارل ماركس الذي أعطاه لمنير ملقى في جانب من العشة فسأله ضاحكا :

— هل تفرجت على كارل ماركس ؟ ..

وقال منير في بساطة :

— لقد أحسست أنك أعطيتني لي لا للفرجة ولكن كأنك تكلفني

بعمل .. وأنا في إجازة عن أي عمل ..

وقال كمال وهو يترك العشة :

— إنه فرجة ممتعة .

ولم يرد عليه منير وخرج معه ومع صديقه خليل من العشة وأوصلهما إلى الشارع الرئيسي .. والكلام لا ينتهي ..

وقد عادت علاقتهما كما كانت .. يلتقي بدلبّر في الصباح ثم يجلس مع

— إننا تعودنا أن نبقي هنا إلى أوائل سبتمبر .. ثم نسافر إلى باريس  
لنشتري كما هي عادتنا .. ونعود آخر سبتمبر .. وأخي كمال لا يسافر عادة  
معنا .. وتستطيع أن تعرف منه أننا عدنا يوم نعود .. ثم تستطيع أن تتصل بي  
بالتليفون .. ولكن من الأفضل أن تتصل بي في الساعة الثامنة مساءً أو  
العاشرة ليلاً لأنني في هذه الساعات أستطيع أن أفرد بالتليفون .. ولكن  
اسمع .. قد أستطيع أن آتي إليك في القاهرة قبل أن نسافر .. كيف أتصل  
بك ؟ ..

وقال كأنه يسخر من نفسه :

— للأسف .. ليس عندنا تليفون .. الطريق الوحيد هو طريق  
البريد .. فيحمل لي البوسطجي خطاباً منك .. وسأكتب لك العنوان ..  
ولكن .. ألا أستطيع أن أراك هذا المساء ؟ ..

وقالت في أسى كأنها تهتم بالبقاء :

— آسفة .. مستحيل .. إننا كلنا مدعوون هذا المساء .. ولا أعتقد  
أني أستطيع أن أتخايل على ماما للمهروب من هذه الدعوة ..  
وقال وهو يتنهد :

— إذا فهذا آخر لقاء لنا في البحر .. ( ثم كأنه تبه واستطرد قائلاً ) ..  
انتظري هنا في البحر وسأخرج لأكتب لك العنوان وأعود به إليك ..  
وكان هذا آخر لقاء في البحر ..

أيام جمعت بينهما في حديث لا ينتهي ولم تشهد لهما إلا قبلة واحدة ..  
وقد التقى بعدها بكمال وأبلغه خبر سفره .. وتلقى كمال الخبر  
ببساطة .. إنه واثق أنه يستطيع دائماً أن يراه في أي مكان .. وهو ليس  
مرتبطاً بما يشغله عن أي لقاء يريده .. ليس مرتبطاً بالبقاء مع العائلة في

إن الميزانية التي وضعها لتقسيم الخمسة الجنيهات التي جاء بها حتى  
يستطيع أن يعيش في الإسكندرية شهراً كاملاً قد اختلت .. لم يبق منها  
سوى مجسمين قرشاً تكفى أجر القطار ليعود غداً إلى القاهرة ..  
والتقى بدليلير في الصباح لقاء البحر .. إنها لم تحاول أن تأتي مرة ثانية للقاء  
في العشة .. ولم يكن ليطلب منها حتى يحمر نفسه من الأغراض الخاصة ..  
كان يكتفي بما تريده هي دون أن يطلب شيئاً .. ويكفيه لقاء البحر .. وقال  
لها :

— إنني مضطر أن أعود غداً إلى القاهرة ..

وقالت في دهشة :

— لماذا ؟

وقال وهو يدير عينيه بعيداً عن عينيها :

— لأنني مضطر ..

وترددت دلبر فيما تقوله له وكأنها فهمت أسباب سفره وابتعاده عنها :

— هل قلت لأخي كمال ؟ ..

.. وقال في صوت خفيض :

— لا .. سأقول له اليوم ..

قالت كأنها ترجوه دون أن تفصح عن رجائها :

— قد يستطيع أن يقنعك بالبقاء ..

قال في إصرار :

— مستحيل .. إنني مضطر .. ( ثم خفف من صوته مستطرداً ) ..

المهم .. كيف أتصل بك ؟ .. هل يمكن الاتصال بك ؟ ..

قالت كأنها صدمت :

الإسكندرية ولا بالسفر معها إلى باريس .. إنه حر .. وقد اتفقا على وسيلة اللقاء بينهما في القاهرة ..

وقضى منير طوال ليله يعد حوائجه التي سيعود بها .. ويعيش كل دقيقة مرت به خلال أيام الإسكندرية .. لقد وصل إلى عالم جديد .. والتقط عناصر سعادة جديدة لم تكن تخطر له .. وهو يحس بنفصه تعصر قلبه لأنه سيتترك هذا العالم .. سيتعد عن دلبه .. أول فتاة في حياته جذبه إليها واستولت على فكره وإحساسه ..

ولكنه في حاجة إلى العودة إلى القاهرة بسرعة .. لا لأنه أفلس .. إنما ليلتقى بصديق العمر عبد الله عبد اللطيف .. إنه لا يرتاح ولا يهدأ إلا مع عبد الله ..

وهو في حاجة إلى أن يرتاح ويهدأ من هذه الزوابع التي تعصف به .. يرتاح من زوبعة تعلقه بدلبه .. ويرتاح من زوبعة حيرته في كمال ..

.. شهر الليل .. ليلاس ..  
www.iiias.com

( ٤ )

لقد بدأت أيام صداقة محمد عبد الله عبد اللطيف منذ كانا معا في المدرسة الابتدائية .. وكانت مدرسة ملتصقة بشارع الحسينية وقريبة من باب النصر بحي الحسين فجمعت بين طلبتها كثيرين من أولاد البلد .. وكان عبد الله منذ صغره يحمل شخصية ابن البلد .. وشهامة ابن البلد .. وقوة ابن البلد .. وكان عبد الله قوى العضلات فعلا يستطيع أن يضرب ويمرط خصمه في أى خناقة تقوم بين الطلبة .. ولذلك كان منير يحس بأنه يعيش في حمايته داخل المدرسة .. وكان عبد الله يحميه فعلا دون أن يمن عليه بهذه الحماية أو يفرضها عليه .. فقد كان عبد الله لا يتباهى بقوته ولا يتظاهر بها بل كان يكره الخناقات ولا يضع نفسه فيها إلا مضطرا .. ويا ويبل من يعلن عليه عبد الله خناقة .. كان في طبيعته يفضل الهدوء والجلسة الهادئة التي تجمعهم بصديق يرتاح إليه .. وربما كان هذا هو ما جمعه مع منير .. فمئير أيضا يميل إلى الهدوء ولا يحب الخناقات بل يتعمد الهرب منها إذا ما اقتربت منه .. فإذا لم يتمكن من الهرب استسلم كل الاستسلام لحماية عبد الله ..

ورغم هذه الصداقة والأرتياح المتبادل الذي يجمعهما طوال كل يوم من أيام المدرسة فقد كان بينهما خلاف كبير في طبيعة كل منهما .. فمئير — مثلا — يهوى معرفة كل شيء وتجربة كل شيء .. أما عبد الله فلا يهوى المعرفة ولا يقدم على تجربة .. فقد قرر منير أن ينضم إلى فرقة الكشافة بالمدرسة فقط ليتفرج ويحرب .. وألح على صديقه عبد الله أن

وحاول منير أن يعتذر بأنه يجب أن يعود إلى بيته .. ولكن عبد الله أصر .. ومنير استسلم لأنه يريد أن يتفرج .. وسارا إلى حارة الشيخ حجازي القريبة من الحسين .. وهي إن كانت حارة ضيقة إلا أنهم أحيانا يسمونها شارعا لأنها مفتوحة من الناحيتين .. وصعد به عبد الله إلى الدور الثاني من البيت دون أن يصيح بما يعلن وصوله .. ربما لأن عبد الله ليس له أخوات بنات يخاف عليهن من رؤية غريب .. فلم يتعود أن يصيح معلنا وصوله ..

والأم سيدة تخمينية مسرفة في السمعة .. ولكن وجهها بشوش طيب ترتسم عليه ابتسامة طيبة هادئة حتى ولو لم تعبر عنها شفاتها .. وقد استقبلت منير صديق ابنها بترحاب واسع صادق .. أهلا .. يا ألف مرحب .. زيارة مباركة .. ربنا يفتحها عليكمما ..

وقال عبد الله كأنه رجل البيت :

— نريد الغداء يا أمي ..

وصاحت الأم في فرحة :

— حاضر ياسي عبده .. من عيني ..

إن الأم تعامل ابنها كأنه فعلا رجل البيت .. وتخاذله وهو معه كأنهما رجلان كاملان وليسا صبيين صغيرين .. وقارن منير بينها وبين أمه .. إن أمه لا تزال تعامله كأنه صبي صغير بل تشخط فيه أحيانا كأنه طفل .. ولا يمكن أن يدعو أحد أصدقائه إلى الغداء في البيت إلا إذا كان قد اتفق معها من قبل .. ولم يصل إلى مثل هذا الاتفاق لأنه لم يحاول أبدا أن يدعو أحد أصدقائه إلى الأكل .. إلا إذا حطفت لقمة أو حبة وجدها من حبات الفاكهة وتقاسمها معه .. بل قد يبقى معه أحد أصدقائه من أبناء الحي إلى أن

يتنضم معه ربما ليطمئن على نفسه بحمايته داخل فريق الكشافة .. ولكن عبد الله رفض وأصر على الرفض .. وقال ضاحكا :

— لماذا تريدني أن أقبل تجنيد نفسي في الجيش ؟ .. إنهم يخدمونا في الجيش باسم الكشافة .. وقد دفع أُنَى لأخى الأكبر مبلغا كبيرا حتى يعفيه من التجنيد .. فهل تريد أن يدفع أُنَى ليعفيني من الكشافة ؟ ..

وكان عبد الله يبدو أنه يعيش كل حياته وكل فكره وكل إحساسه داخل عائلته .. والشخص الوحيد في الدنيا كلها الذي يحسب حسابه ويعتبره المثل الأعلى هو أبوه الحاج عبد اللطيف .. وبعد هذا فهو لا يشغل نفسه ولا يفكر في شيء .. حتى المدرسة .. لماذا يدخل المدرسة ؟ .. وماذا يستفيد من المدرسة ؟ .. إن أباه لم يدخل مدرسة ورغم هذا وقفه الله وجعل منه تاجرا ناجحا يملك محلا لبيع الأقمشة في حي الحسين .. إنه ليس في حاجة إلى مدرسة ، يكفي دائما الاعتماد على الله ..

وحدث في يوم خميس وقد خرجا من المدرسة عند الظهر أن قال له عبد الله وهو يمسك بيده كأنه لا يريد أن يفترقه :

— تعال معي نزور الحسين ..

واستسلم له في فرحة .. إنه لم يزر الحسين من قبل وإن كانت أمه قد صحبته مرة وهو طفل مع أخواته البنات لزيارة السيدة زينب .. وهو يريد أن يعرف ويتفرج على الحسين .. وقد طاف مع عبد الله مسجد وضريح الحسين وهو في متعة الفرجة على الجديد مع متعة إحساسه بالإيمان الذي ولد به .. وبعد أن انتبيا من زيارة الحسين قال له عبد الله مبتسما وهو يشده من يده حتى لا يفترقه :

— تعال ترى أمي .. ونرى ما تقدمه لنا للأكل ..

يحين موعد الغداء فتدخل عليهما أمه وتقول لصديقه كأنها تطرده حتى توفر ما يمكن أن يأكله :

— اذهب أنت إلى مامتك يا حبيبي .. لعلها بدأت تسأل عنك ..  
وقد غابت عنهما أم عبد الله طويلا .. لعلها كانت تعد أصنافا جديدة من الطعام ترحيبا بصديق ابنها .. وقد فوجئ منير بكثرة الأصناف عندما دعي إلى تناول الغداء .. إنها أضعاف ما يقدم على مائدة عائلته .. كل شيء يخطر على باله .. لحم وفراخ .. وأرز ومكرونه .. وملوخية وبامية .. وكثير من الحلو .. وبطيخ ومشمش .. وأكل حتى لم يعد يستطيع أن يستجيب لإلحاح عبد الله وأمه بأن يأكل أكثر .. وأسعفه عبد الله بزجاجة الغازوزة التي طلبها من أمه أمرا في لهجة رجل البيت ..  
وبعد الغداء بقليل قال له عبد الله :

— تعال نذهب إلى المحل لأعرفك بأني ..

والمحل على بعد خطوات من البيت وعلى شارع أوسع .. شارع الحسين .. والحاج عبد اللطيف رجل جاد .. ضخيم وقخم .. يرتدى جلبابا يبدو من الطراز الثمين الغالي .. وقد رحب بصديق ابنه مصافحا ثم ربت على وجهه كأنه فرح به فرحته بابه .. وقد عرف منير مع الأيام كل شيء عن الحاج عبد اللطيف .. لقد بدأ حياته عاملا كواء .. ثم استطاع أن يمتلك محل كواء يعمل فيه بنفسه إلى أن بدأ يستأجر له العمال .. واشتهر ككواء إلى أن استطاع أن يجمع دخلا من مهنته افتتح به محل بيع الأقمشة .. أقمشة للنساء وللرجال .. ولا يزال يحتفظ بمحل الكواء .. ولا يزال يتبع فيه الطريقة القديمة في الكي .. مكواة عريضة تمسك العامل بطرفها الطويل ويدوس عليها بقدمه .. إنها لا تزال الطريقة الأصح والأجدى في كي الملابس

خصوصا الجيب والقفاطين .. وعبد الله يقول عن أبيه إنه لا يزال كواء رغم أن دخله ومكاسبه أصبحت أكبر من بيع الأقمشة .. بل إنه يقضى معظم وقته في محل الكواء ويترك محل التجارة لأولاده الكبار ..

وقد عرف منير كل أفراد عائلة صديقه عبد الله .. كل إخوته .. وأصبح يتردد كثيرا عليه دون أن يحس بأى حرج .. إن كلهم يرحبون به دائما .. ويفرحون به .. ويحبونه .. والأكثر من ذلك أنهم يحترمونه .. كأنه من عائلة مفروض احترامها .. ولم يشعر أبدا بحاجته إلى أن يرد الدعوة لعبد الله .. لقد صحبه مرات إلى بيته وقدمه إلى أمه .. بل إنه مع الأيام قدمه لأخواته البنات .. وأمه كانت تستقبله بلا اهتمام ولم تحاول أن تدعوه مرة إلى الغداء .. مرة واحدة قدمت له زجاجة غازوزة .. وأخواته البنات لم يرحبن به لأنهن اعتبرنه منذ النظرة الأولى .. أنه بلدي .. وعلى كل حال فإن عبد الله نفسه لم يكن يبدو سعيدا مطلقا عندما يزور منير .. ولا مني نفسه كان ينطلق في هذه الزيارة .. كان انطلاقهما وإحساسهما بمنتهى عدم الكلفة لا يعيشان فيه إلا إذا كان منير بين عائلة عبد الله .. وقد وصل رفع الكلفة بمنير إلى أن أصبح يعتبر أم عبد الله كأنها أمه .. ويطلب منها كأنه ابنها .. وقد بدأ أيضا يلتقى بعبد الله في المساء خصوصا مساء يوم الخميس الذي يباح فيه السهر لإجازة الجمعة .. وكانا يذهبان معا إلى السينما .. أو يتفرجان على شوارع المدينة وبأكلان الساندوتش .. إلى أن صحبه عبد الله يوما للسهر في مولد الحسين .. ودخلا في صوان مقام أمام مقهى كان يجلس فيه أحمد شقيق عبد الله الأكبر .. وكانت تلور بين الجالسين جوزة .. عرف منير منها أنهم يدخنون الحشيش .. وقدم أحمد الجوزة لمنير قائلا وهو يضحك :

— شد يا سي منير .. جرب ..

الفارق يقوم بين المظاهر الطبقيّة .. لا على مستوى الدخل أو رأس المال الطبقي .. إن بين أولاد البلد من هم أغنى من الأفندية .. وبين الأفندية من هم أغنى من الباشوات .. ولكن الفارق هو في اختيار مظاهر الحياة .. ربما كان الفارق بين منير وصديقه الجديد كمال يحبى الروزنامجى ليس في أنه فقير وكمال غنى .. فقد قبل الفقر والغنى أن يتصادقا على مستوى واحد .. ولكن لا تزال مظاهر حياة كل منهما تفصل بينهما .. إن هذه المظاهر هى التى تعكّر صفو حبه لدليلر أخت كمال ..

ورغم ذلك كانت صداقته لعبد الله أقوى من المظاهر .. إنها صداقه تدعمها الرجولة المبكرة .. والشهامة .. والترفع غير المتعمد عن كل ما يمس طهارة النية ونظافة الضمير ..

ولم يحصل عبد الله على شهادة الابتدائية .. رسب في الامتحان .. ولم يفكر في أن يعيد السنة الدراسية بل تفرغ للعمل مع أبيه في دكان بيع الأقمشة .. وأبوه أيضا لم يكن يريد أن يحصل على شهادات .. من الأجدى أن يتفرغ للعمل معه حتى يتعلم البيع والشراء ويفهم أسرار السوق بعد أن وصل إلى سن يستطيع فيها أن يفهم .. أما منير فقد حصل على الشهادة الابتدائية .. ويتفوق .. حتى إنه حصل على مجانية التعليم لتفوقه .. ورغم أنهما فقدتا مجتمع المدرسة إلا أن صداقتهما لم تهتز ولم تضعف .. كان منير يذهب إلى عبد الله ويجلس معه في الدكان .. خصوصا في أيام الخميس والجمعة .. ويجلس معه طويلا حتى دون أن يجعما حديث .. فعبد الله مشغول دائما باستقبال الزبائن والتفاهم معهم .. ومنير يراقب عملية البيع والشراء بدافع طبيعته التى تهوى المعرفة والفرجة .. بل كان أحيانا يحاول أن يجرب بنفسه أن يكون بائعا .. فيشترك في استقبال الزبائن والتعامل

وأمسك منير بظرف الجوزة وشد نفسا .. إنه يدخن الحشيش رغم أنه في الثانية عشرة من عمره .. ولكن الجميع يعتبرون أن الحشيش مباح لكل من يستطيع أن يشد أنفاسه .. وهو ليس حراما فعلا بالحشاش .. ليس كالخمر .. فلم يرد عليه نص في القرآن .. وقد دخل في تجربة تدخين الحشيش مرة ثانية وثالثة ولكنه لم يعجبه ولم يدمنه ولم يعد يطيق تدخينه .. إنما أصبح يكتفى بالفرجة على الحشاشين .. إن عبد الله أيضا لا يطيق تدخين الحشيش ولم يدمنه ..

وكان أكثر ما يربط منير بعائلة عبد الله هو احترامهم له الذى ينبض مع حبهم .. إنهم يعاملونه مع إبراز هذا الاحترام .. كأنهم متشرفون به يتباهون بصداقته .. كأنه فعلا من طبقة تستحق الاحترام .. وعندما بدأ فكر منير يفتتح قدر أن عبد الله وعائلته يضعونه فعلا في طبقة أخرى غير طبقتهم .. رغم أن عائلة الحاج عبد اللطيف أغنى قطاعا من عائلته .. ولكن الفارق بين الطبقات ليس فقط قيمة الإيراد .. ولكنه الفارق في المظاهر الطبقيّة .. وعائلة الحاج عبد اللطيف من طبقة أولاد البلد .. أما عائلة غانم فهى من طبقة الأفندية .. طبقة حضرات المحترمين موظفى الحكومة .. ومظاهر طبقة الأفندية تطورت إلى أرق مما تطورت إليه طبقة أولاد البلد .. لقد هاجر الأفندية من أحياء الحسين والدراسة وباب الخلق وانتقلوا إلى الأحياء الحديثة .. إلى العباسية والظاهر وبعضهم وصل إلى مصر الجديدة .. كما هجروا الجلباب وأصبحوا يعيشون بالبدلة الأوربية والبيجاما .. و .. و .. وأصبح للأفندية دنيا تختلف عن دنيا أولاد البلد .. وهى وإن كانت تبدو دنيا أكثر تقدما إلا أنها دنيا بلا أصالة .. وبلا عراقية .. وبلا تقاليد تقوم على مبادئ .. إنها صورة مهترجة باهتة من دنيا الحواججات الذين يحتلون مصر .. وكل



— إننا نحارب الإنجليز من أجل الجلاء .. والمظاهرات تثبت لهم أن لنا رأيا .. حتى لو كان مجرد رأى ..  
وقال عبد الله في بساطة :

— الإنجليز لا يتعبوننا .. ولكن الذين يخربون بيوتنا هم اليهود .. حتى إن أبى الحاج عبد اللطيف يكاد يجن منهم .. إنهم هم الذين يستولون على كل الأقمشة التي تصل إلى مصر ويبيعونها لنا ويتحكمون فينا .. ونكاد نقبل الأيدي حتى يرحمونا .. حتى إن الحاج عبد اللطيف بدأ يفكر في أن يتفق مع يهودى يعرفه واسمه ساسون ليدخل معه شريكا في الدكان .. حتى يستطيع أن يتفاهم له مع اليهود .. فلليهود لغة لا يجيدها ولا يفهمها المسلمون .. لو كانت مظاهرات على اليهود لاشترك فيها كل أهل الحسين ..

إن عبد الله يحرص كل فكره وإحساسه داخل دكانه .. والإنجليز كما يتصور لا علاقة لهم بالدكان ولكنهم اليهود .. وهم يهود مصريون لا إنجليز ..

ومنير لا يغضب من عبد الله مهما اشتد النقاش .. إنه حرق رأيه كما أنه هو نفسه حرق رأيه ..

وقد دهش منير عندما قال له عبد الله إنه سيتزوج .. ما حاجته للزواج وهو لا يزال في السادسة عشرة ؟ .. ربما أراد أبوه أن يزوجه حتى يحميه مما تعرض له ابنه الأكبر أحمد الذى عرف عنه أنه يخالط العوام .. وقد صحب عبد الله منير لزيارة العروس يوم كتب الكتاب الذى تم قبل الزفاف ... يجب أن يرى أخاه عروسه .. إن منير ليس غريبا عنه حتى يخفى عنه نساء ونساء العائلة .. وقد عرف منير أنها ابنة من بنات حى الحسين .. ورغم ذلك فهى ييضاء فاقعة البياض وشعرها أصفر .. وعبد الله فرح بها منتهى الفرح وبدأ

معهم .. وعبد الله يتصرف كأنه يعتبره هو أيضا صاحب الدكان .. وكان عبد الله يغلق الدكان في الساعة الثانية بعد الظهر ثم يسحب منير إلى بيته لتعد لهما أمه طعام الغداء .. ويجلسان في حديث لا ينتهى ولا شىء فيه سوى أنه يجمعهما .. ثم يعود عبد الله في الساعة الخامسة يفتح الدكان ويعود منير يتمتع نفسه بالمعرفة والفرجة ..

ولكن حدث شىء جديد .. فمنير بدأ يهتم بتتبع الأحداث السياسية كما تصل إلى الطلبة .. ويحرص على حضور الاجتماعات التي يعقدها الطلبة ويشارك في المظاهرات .. ولكنه لم يكن يحاول أن يتظاهر بوطنيته أو يتحمل مسؤوليات مباشرة .. أى لم يكن يحاول أن يقود الطلبة في المظاهرات .. أو يلقى فيهم خطابا من الخطب الوطنية التي تدعو للجهاد .. أو حتى يبدأ بتناف يردده الطلبة من ورائه .. إنه يعيش بدوافع وطنية قوية ولكن هذه الدوافع تنحصر في طبيعة حب المعرفة والفرجة والتجربة .. ولكن عبد الله لا يهتم إطلاقا بالسياسة ولا بما يجرى في شوارع القاهرة .. وكان منير يناقشه طويلا دون أن يستطيع إثارة اهتمامه أو شده إلى هذا المجال .. وقد قال له يوما :

— لماذا لا تجمع شباب الحسين ليشاركوا في المظاهرات التي سيقوم بها الطلبة يوم السبت ؟ ..  
وقال عبد الله ساخرا :

— وماذا يفعل أهل الحسين بهذه المظاهرات ؟ .. بل ماذا يفعل بها الطلبة ؟ .. إنهم يضربون في البوليس .. والبوليس يضرب فيهم .. ثم لا شىء أكثر .. وكأننا يا سى منير لا رحنا ولا جينا ..  
وقال منير في حماس :

وقال عبد الله وسعادته تكسو لحاته :

— أى من المؤمنين ..

وقال منير فى دهشة :

— وكيف عرفته ؟

وقال عبد الله كأنه يهذى صديقه :

— غدا تعرفه كما عرفته ..

وضاع الحديث بين ضجة الحفل ..

وقد أصبح عبد الله يعيش حياة جديدة بعد زواجه رغم أنه كان يقفم فى نفس البيت مع أمه وأبيه .. وقد توفى الحاج عبد اللطيف بعد زواج ابنه بشهور .. وحزن عليه منير حزنا صادقا فقد كان قد وصل معه إلى الإحساس به كأنه أبوه أيضا وليس أبا عبد الله وحده .. وقد اتفق عبد الله مع أخيه أحمد بعد الوفاة على أن يكون هو المسئول عن محل الأقمشة .. فقد كان هو الأقدر فعلا على إدارة المحل رغم صغر سنه والأكثر تفرغا عن أخيه الذى يعيش عالم العوالم والراقصات .. عالم الليل .. وكان أهون عليه أن ينفرد بمسئولية محل الكواء ..

ولم يؤثر هذا التطور على الصداقة بل الإحياء الذى يربط بين عبد الله ومنير .. ولا يزال منير يترك دنيا زملائه الطابة وعالم المدرسة والدراسة ويذهب إلى عبد الله ليجلس فى الدكان ويتناول معه الغداء وهو يحس أن هذه هى الدنيا الوحيدة التى يستريح فيها ويسكت من الزواجر التى تعصف برأسه .. زواجر يثيرها كل ما يسمعه وكل ما يراه ..

وقد التقى فى دكان عبد الله بالأستاذ منصور أحمددين عضو الإخوان المسلمين .. ومرات يذهب إلى بيت عبد الله ليتناول طعام الغداء فيجد

يذوب فيها .. إن نقطة ضعف رجال الحسين أنهم يفضلون فى المرأة اللون الأبيض ويضعفون أمامه .. وبين أهل الحسين بنات يضاوات وشقراوات .. ربما كن من سلالة أيام حكم الأتراك .. ولكن عبد الله كان يعتبر أن عروسه هى الوحيدة البيضاء الشقراء فى الحى كله .. وقد خصه الله بها .. وأقيم حفل واسع للزفاف دعى إليه أهالى الحى كله .. وطبعاً كان منير أول المدعوين وقد دعيت معه عائلته كلها .. ولكن العائلة اعتذرت .. فامه وأخواته البنات لا يربطهن بعائلة الحاج عبد اللطيف شيء ولسن من هواة الفرجة .. وأبوه لا يحب أن يكلف نفسه ما هو خارج عن حياته حتى لو كان مجرد التمتع بالفرجة .. وليس منير أخ يصحبه .. فذهب وحده .. واهتم صديقه عبد الله به أمام كل المدعوين حتى كان يصبر طوال الحفل على أن يجلس بجانبه .. كأنه يريد أن يتباهى به أمام أهل الحى .. وكل ما لفت نظر منير أنه رأى الأستاذ منصور أحمددين بين المدعوين .. إنه شخصية معروفة من شخصيات الإخوان المسلمين .. إن منير لم يكن يعرف أن الأستاذ منصور من أصدقاء عبد الله أو من أصدقاء العائلة .. لم يحدثه عبد الله عنه أبدا رغم أنه شخصية تستحق الحديث .. وكان الأستاذ منصور يجلس بين اثنين مطلقا شعر اللحية .. ربما كانا هما أيضا من الإخوان المسلمين ..

وقد مال منير أثناء الحفل على أذن عبد الله يسأله عن الأستاذ منصور

.. وقال عبد الله هامسا :

— إنه معرفة جديدة .. وهو رجل فاضل .. لقد أسرني بكلامه ..

وقال منير كأنه يتنهد :

— إنه من الإخوان ..

الأستاذ منصور مدعوا معه .. وقد دخل معه في مناقشات كثيرة .. ولم يكن عبد الله نفسه يشترك في هذه المناقشات رغم أن منير عرف أنه انضم إلى الإخوان المسلمين .. ولكن عبد الله لم ينضم إلى الإخوان على أنه رجل سياسة بل انضم إليهم بدافع إيمانه كمسلم .. الإيمان الذي يتمكن منه يوما بعد يوم .. حتى أصبح مفرطاً في أداء الصلاة وبقية شعائر الدين إلى حد الوصول إلى مظاهر لا يقتنع بها منير كشعائر دينية بل يعتبرها استغلالاً للدين .. وكان عبد الله قد بدأ يتبرع بكل ما يملك التبرع به للإخوان .. ولكنه أيضاً لم يكن يدفع أمواله لتحقيق هدف سياسي .. بل كان يدفع تقريباً إلى الله وكما يدفع الزكاة لفقراء حي الحسين ..

ولهذا الخلاف بينه وبين عبد الله أصبح منير كلما التقى بالأستاذ منصور ينفرد بمناقشته كأن عبد الله لا يجلس معها .. وعبد الله نفسه لا يهتم بتتبع هذه المناقشات .. وقد أحس منير بتقدير كبير للأستاذ منصور .. إنه يناقش في هدوء وآرائه ومعلوماته واسعة تشمل الحياة كلها وكل متطلبات الحياة .. وهو ليس متطرفاً أو متحزباً حتى في إسلامه ولكنه قادر على أن يضع كل موضوع داخل حكم الإسلام .. وكان منير يفهم من كلام منصور كأنه يحاول أن يقنعه بالانضمام إلى الإخوان .. ومنير يرفض كسباً عام وضعه لنفسه أن ينضم إلى الإخوان أو إلى أي تجمع أو حزب سياسي .. ليس لأنه غير مقتنع بها كلها وإنما فقط ليحفظ لنفسه بحريته في تكوين رأيه وفي أن يعيش هذا الرأي .. إنه يأخذ من كل تجمع أو من كل حزب ما يقنعه ويرفض ما لا يقنعه .. وهو حر .. وكل الأحرار من حقهم أن يعبروا عن حريتهم بتشكيل جماعة أو حزب وتحديد الطريق أمام جماعتهم أو حزبهم .. فهو لا يرفض قيام تنظيم الإخوان المسلمين .. إن هذا من حقهم .. وهو

يحترم ويؤيد هذا الحق .. ولكنه هو أيضاً حر في الانفراد بحريته بعيداً عنهم وعن كل التنظيمات .. وقد فهم الأستاذ بسرعة أن منير يرفض الانضمام إلى الإخوان ولكن هذا الرفض لم يغير من إحساسه به وتركه يرفض كأنه بصون ويحترم حريته ..

وقد قال له منير في إحدى مناقشاتهما :

— إنكم تطالبون بفرض الشريعة الإسلامية ولكن بجانب الشريعة هناك العلم الذي أصبحت كل الدول القوية تعتمد عليه في بناء نفسها وصيانة وجودها ..

وقال الأستاذ منصور في هدوء :

— كل ما يمكن أن يصل إليه العلم يمكن أن يصل إليه من خلال الإسلام ونصوص القرآن .. إن الإسلام دين ودنيا .. وقد استوعب كل ما يمكن أن يحققه الدين وكل ما تحتاج إليه الدنيا في يومها وفي غدها ..

وقال منير كأنه يتحدى الأستاذ :

— إن المسلمين إلى الآن لم يصلوا إلى العلم الذي يحدد لهم أيام التواريخ .. تاريخ الشهر الإسلامي .. إنهم مستسلمون للنص على الشهر برؤية الهلال القمري رؤياً العين المجردة .. وبعد آلاف السنين اقتنع بعض رجال الدين بأن العين لا تعنى العين المجردة .. بل تعنى كل ما يصل إلى العين .. فاستعانوا على رؤية الهلال بالنظارة المعظمة .. ولكنهم إلى الآن لم يستعينوا بالتلسكوب .. بل حتى نتائج مصلحة الأرصاد التي تقوم على الحسابات العلمية يمكن أن تعتبر رؤياً للعين .. لأن ما يصل إليه الفكر يعتبر رؤياً للعين .. ولكن الإسلام يرفض العلم .. لذلك فالشهور المسيحية محددة منظمة طوال العام بحيث لا يتعب فيها من يعتمد عليها .. أما الشهور

الإسلامية فلا تزال محيرة .. لا يدري المسلم متى يبدأ الشهر ولا متى ينتهى .. لذلك لجأ المسلمون إلى الشهور المسيحية التي يحددها العلم .. ولم تعد للشهور الإسلامية قيمة إلا قيمة التبرك بالمناسبات .. كالتبرك بشهر رمضان ..

وقال الأستاذ مبتسما في هلوه :

— إن الإسلام يبشر بكل ما يمكن أن يصل إليه العقل من علم .. وبين الذين اكتشفوا ووضعوا الأمور العلمية التي يقوم عليها العلم حتى اليوم علماء مسلمون .. إن الإسلام يفسح مجال العقريّة التي يهبها الله لمن يختارهم من خلقه .. وما نعانیه ليس في الإسلام ولكنه في تعارض تفسير النصوص الشرعية بين العقول الضيقة والعقول الواعية .. وهذا ما نتمناه وندعو إليه .. وهو وحده التفسير للإسلام بين المسلمين ..

وقال منير وهو يسخر من الأستاذ :

— ولهذا يجب أن يصل الإخوان المسلمون إلى الحكم ويتولوا الوزارة حتى يفرضوا وحدة التفسير ..

وقال الأستاذ منصور في حدة وإن كانت بلا غضب :

— ليس من أهداف الإخوان الوصول إلى الوزارة .. ولو كان حسن البنا يريد أن يكون وزيرا لحول جماعة الإخوان إلى حزب سياسي كبقية الأحزاب .. ولوصل إلى أن يكون رئيسا للوزراء وكل من معه وزراء .. بل إن الوزارة كانت دائما إحدى المغريات التي يعرضونها على حسن البنا ليكتسبوا تأييده ورضاه .. ولكن لا حسن البنا ولا كل من في الإخوان يمكن أن ينزلوا إلى مرتبة الوزراء .. بل إننا فيما بيننا قررنا أن كل من يقبل أن يكون وزيرا يعتبر خارجا على الإخوان .. فهدف الإخوان هو أن يكونوا قوة شعبية تفرض على

الحاكم تطبيق الشريعة الإسلامية .. وتراقبه .. وتحاسبه .. حتى لا يتجرأ على الإسلام مستيئنا به متحديا شريعته .. ونحن نؤمن أن ما أصاب الإسلام والمسلمين يرجع إلى أخطاء الحاكم لا إلى أخطاءه أو إلى نقص في شريعة الإسلام .. وفي التاريخ منذ أيام معاوية بن أبي سفيان والحكام المسلمون يخطئون في حق الإسلام ويتصلون وضع التفسيرات التي تحقق مطامعهم حتى مع صفاء نياتهم .. وليس هناك وسيلة لحماية الإيمان بالدين إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية .. وأن يكون الشعب المسلم من القوة والوحدة حتى يستطيع أن يراقب الحاكم ويحاسبه ويفرض عليه الشرع .. وهذا ما يسعى إليه الإخوان .. أن يكونوا الشعب المسلم لا حكاما على المسلمين ..

وقال منير وكأنه لا يزال في حاجة إلى المعرفة وإلى إشباع هواية الفرجة حتى لو كانت فرجة على الآراء :

— إن الشريعة تفرض على الحاكم نظام الشورى .. ولكنني أفهم كلمة الشورى على أنها الاستماع إلى الرأي لا الخضوع له .. أى أن من واجب الحاكم المسلم أن يستمع إلى رأى شعبه ولكنه ينفرد بحق الاختيار بين ما يسمعه من آراء حتى لو اختار رأيا لم يسمعه ..

وقال الأستاذ مبتسما كأنه يشفق على منير من جهله :

— إن كل النظم التي تقوم في كل العالم وتسمى بالديموقراطية هي نظم تقوم على الشورى .. وكان الإسلام هو أول من دعا إليها فلم تكن هناك قبل الإسلام ديموقراطية .. والشورى تقوم على التنظيم والقانون .. ويمكن دائما أن يقوم التنظيم بحيث يفرض رأى الأغلبية على الحاكم ويحرم عليه حق الانفراد بالرأى .. حتى قانون الانتخاب القائم هذه الأيام ويؤدى إلى اختيار أفراد مجلس الشورى الذى يحمل اسم « برلمان » .. حتى قانون الانتخاب في

حاجة إلى تغيير وتعديل حتى يتفق مع الشريعة الإسلامية ويحرم على الحاكم التزييف والتزوير .. فهو يزور ويضيف الشريعة نفسها .. ويصل بأفراد إلى مجلس الشورى لا يصلحون ليكونوا مستشارين إسلاميين يحققون جدوى الشورى ..

وقال منير كأنه لا يزال يتعمد إثارة الأستاذ :

— ما مدنا نتحدث عن الشورى .. فمن يمثل الإخوان من المسلمين .. يمثلون أهل السنة أم أهل الشيعة أم الدرود أم العلويين أم الإسماعيليين .. إن الإسلام منقسم إلى طوائف ومذاهب وأحزاب .. حتى أصبحنا نقول إن كل بلد إسلامي له إسلامه ..

ولم يثر الأستاذ واستمر هادئا قائلاً :

— هذا ما حدث في جميع الأديان .. فالسيحية منقسمة إلى كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت .. و .. و .. واليهودية أيضا منقسمة في داخلها .. حتى العقائد السماوية منقسمة إلى طوائف ومذاهب .. وهو انقسام ليس انقساما حول الإيمان بالله والإيمان برسله ولكنه انقسام قام على الظروف المحلية لكل شعب أو كل طائفة مع وحدة الدين .. وقد شهد التاريخ حروباً بين هذه الطوائف رغم انتابها لدين واحد .. والمسلمون هم الأقل في خلافاتهم والأقل في الحروب التي قامت بين بعضهم البعض .. وذلك لقوة الإيمان بأصول الدين ومبادئه .. والإيمان بآخر الرسل والنبي الواحد .. ونحن نعتقد أننا إذا وصلنا إلى تحقيق وتطبيق الشريعة الإسلامية حققنا وطبقنا وحدة الإسلام .. وأصبحت هذه المذاهب لا تمثل انقساما في الإيمان ولكنها تمثل انقساما طبيعيا محليا بين شعوب كل بلد ويصبح انقساما طائفا وليس انقساما دينيا .. كالانقسام بين الصاعدة والبحاروة في مصر ..

وقال منير بسرعة :

— إن مصر ليس كل أهلها مسلمين .. إن بينهم الأقباط .. أى انقسام في الدين لا يمكن أن يعتبر مجرد انقسام طائفي ..

وقال الأستاذ منصور أحمددين في هلهو :

— إن الإسلام ترك للفرد حرية الإيمان بالدين الذي يختاره مادام الله لا إله إلا هو ..

وقال منير كأنه يئبه الأستاذ :

— مع فرض الجزية على غير المسلمين ..

وقال الأستاذ ضاحكا :

— لقد تطور المفهوم منذ زمن طويل .. فالجزية أصبحت تسمى ضرائب .. وكل أفراد الشعب يطبق عليهم قانون واحد للضرائب يتساوون به جميعا .. مسلمون وأقباط ويهود !..

ويستمر النقاش ..

إنه لا ينتهي أبدا ..

ومنير يحس في كل مرة يناقش فيها الأستاذ منصور أحمددين بأنه يزداد معرفة ويتفرج على مشاهد جديدة من العالم الذي يمثلته الأستاذ .. وكان يلتقى به غالبا في دكان عبد الله ولكنه كان عندما يغيب طويلا يطلب من عبد الله أن يبحث عنه .. بل إنه ذهب مع عبد الله مرتين أو ثلاثا إلى اجتماعات عامة في مبنى جماعة الإخوان .. وكان هو وعبد الله يجلسان صامتين يستمعان .. ولكنه كان يفهم مما يسمعه غير ما كان يفهمه عبد الله .. ولكن معرفته بالأستاذ منصور أحمددين لم تصل إلى حد الصداقة الشخصية التي تجمعها وترفع الكلفة بينهما .. ولكنها كانت معرفة تحمل تقدير كل منهما للآخر .. وظلت الصداقة الشخصية الخاصة قاصرة على

عبد الله وحده .. إنه وحده الذى يطعن إليه منير ويسعى إليه ليرتاح ويهدأ بحبه واحترامه لا ليناقشه أو ليزداد معرفة وبتفجر ..

وعندما عاد من الإسكندرية ورأسه يضح بكل هذه الزوابع هرع إلى عبد الله وجلس معه فى الدكان بعد تبادل قبلات الشوق بعد غيبته الطويلة وإن كانت لم تستمر سوى عشرين يوما .. إلى أن صحبه عبد الله إلى البيت ليفرح بلقاء العائلة .. إنها عائلته أيضا وليست عائلة عبد الله وحده .. وبعد تناول طعام الغداء انفرد منير وعبد الله يتناولان الشاي .. وقال منير مترددا على غير عادته عندما يحدث عبد الله وإن كان يخفى تردده بابتسامته مفتعلة :

— لقد بدأت أفكر فى الزواج ..

وقال عبد الله فى فرحة صارخة :

— يا ألف مبروك .. إن الزواج نعمة وستر .. سأنادى أمسى لتزغرد لك .. ولكن ما الذى دفعك إلى التفكير فى الزواج بعد أن كنت تعابرنى به ؟ ..

وقال منير وهو يحنى رأسه كأنه خجل من نفسه :

— لقد وجدت من دفعتنى إلى التفكير فى الزواج ..

وقال عبد الله بفرحة :

— من أى عائلة ؟ ..

وقال منير كأنه يحدث نفسه :

— إنها ابنة يحيى باشا الروزناجى .. عضو الوفد الذى كان وزيرا ..

وانضمرت فرحة عبد الله وقال كأنه صدم :

— وكيف عرفت الباشوات ؟ ..

وقال منير بصوته الخافت :

— رأيتها وعرفتها فى الإسكندرية وأخوها أصبح صديقا .. صديقا جدا ..

وقال عبد الله جادا :

— إذا كنت تفكر فعلا فى الزواج من ابنة الباشا .. فاعدل حالا عن هذا التفكير ..

وقال منير فى حلة كأنه يدافع عن كرامته :

— هل أعدل لأنها ابنة باشا .. وهى غنية وأنا فقير ؟ ..

وقال عبد الله وهو أيضا يتحدث :

— سواء كنت غنيا أو فقيرا فهذا الزواج لا يصلح لك .. الزواج ليس مجرد الجمع بين رجل وامرأة .. إنه الجمع داخل مجتمع واحد .. بل داخل حى واحد .. حتى يمكن أن يحقق الألفة بين الزوجين وكل منهما يسعد الآخر .. فأين هذا المجتمع الواحد الذى يضمك أنت وابنة الباشا ؟ .. وأين الحى الواحد الذى نشأتما فيه .. أو حتى الحب المتقارب ؟ .. لقد عرض على أن أتزوج من بنات أفندية .. ومن أحياء بعيدة عن حيننا .. ولكننى كنت أرفض .. وحتى لم أفكر فى أن أطلب منك الزواج بإحدى أخواتك رغم أنى أشيد بهن أمام أمى ورغم أن صداقتنا وعشرتنا التى أعتز بها تتأكد بأن أناسيك بالزواج .. ولكننى لم أفكر أبدا فى أن أناسيك .. لأن عائلتك تعيش مجتمعنا آخر ، ولأن حيكم ليس حيننا .. واخترت زوجتى فاطمة لأنها تعيش معنا ولأنها من حيننا .. حى الحسين .. ربما لو كانت فاطمة من حى السيدة لما تزوجتها ..

ودهش منير مما يسمعه .. إن صديقه عبد الله متحزب طبقيا .. إن

— إنك تعلم أنى لا أنضم إلى أى حزب أو تجمع ولا حتى إلى أى مذهب سياسى .. وأنت من الإخوان ورغم حى لك والصدقة التى جمعنا العمر كله لم أنضم معك إلى الإخوان .. واطمن إلى أنى لن أنضم إلى الشيوعيين أبدا ..

وقال عبد الله ساخرا :

— ربما لو كان لى أخت لأغريتك بالزواج بها حتى تنضم معى إلى الإخوان .. كما قد يفعل صديقك الجديد ..

وقال منير كأنه يتحایل على عبد الله أن يرأف به :

— إن صداقة لا يمكن أن تصل إلى درجة صداقتنا .. وأخته لا يمكن أن

تغرينى بأن أخرج عن حريتى كما حدثها لنفسى ..

وقال عبد الله كأنه ضاق بهذا الكلام ولم يعد يحتمله :

— قم بنا لأفتح المحل ..

وخرجا من البيت .. وانفصل منير عن عبد الله عائدا إلى بيته .. إنه لم يكن ينتظر أن يسمع رأيا من صديقه .. كان كل ما يسعى إليه هو أن يرتاح بالكلام عن الزواجر التى تعصف به ليخفف منها حتى يرتاح .. ولا شك أنه ارتاح قليلا بعد لقائه بصديقه عبد الله ..

الإحساس الطبقي لدى الناس العاديين أقوى منه لدى أولاد الذوات .. لدى الطبقة العليا .. وربما كان الناس العاديون يريدون إنزال الطبقة العليا إليهم لا أن يرتقوا هم إليها .. بل إن عبد الله يتحزب حتى للحى الذى يقيم فيه حتى يرفض الزواج من حى آخر .. وقال وهو يحاول أن يكون هادئا :  
— إنك تبالغ .. لا فارق بين المجتمعات ولا بين الأحياء .. إنما الفارق بين كل شخص وآخر فى عقلية وشخصيته وفيما استطاع أن يحققه فى حياته .. إن والدك كان عاملا ولكنه الآن من رجال الأعمال .. وصداقتنا التى أعتز بها قامت رغم الفارق بين مجتمع أولاد البلد ومجتمع الأندية .. واستمرت رغم أنك أصبحت تعمل وأنا لا أزال طالبا .. كل من فى الدنيا يمكن أن يلتقى ..

ولم يرد عليه عبد الله بل لعله لم يهتم ولم يفهم ما يقول ورفع صوته محتدا :

— هل فاتحت أخواها فى طلب الزواج ؟ ..

وقال منير وهو يعادى عبد الله كأنه يرتاح بالحديث مع نفسه :

— لا .. إن أخواها يخيرون أكثر منها .. إنه رغم أنه ابن باشا فهو

شيوعى ..

وصرخ عبد الله :

— شيوعى ..!!! أى كافر ..!؟

وقال منير فى بساطته :

— إن ما أوحى لى به هو أنه فعلا كافر .. إنه كافر حتى بوجود الله ..

وعاد عبد الله يصرخ :

— وماذا يريد منك الكافر ؟ .. يريد قطعاً أن يضمك إلى الكفار ..

وقال منير وهو يتنهد فى هدوء :

الساعة التي تستطيع فيها أن تنفرد بالرد على التليفون قبل أن يفیق أفراد العائلة من النوم وقبل أن يبدأ الخدم نشاطهم .. وقد سأنته كيف تستطيع هي أن تتصل به وهي بعيدة عنه .. وقد فرح بسؤالها .. إنها تريد كإيديها .. وقد أجابها بأن الوسيلة الوحيدة للاتصال به هي إرسال الخطابات بالبريد فليس في بيته تليفون .. وكتب لها العنوان ووضع في يدها وهما لا يزالان في البحر .. وثنى أصابعها على الورقة التي كتب فيها العنوان وضغط عليها كأنه يسكب عنوانه في دمه .. ومنذ تركها وهو في انتظار خطابها .. ولكنها لم تكتب إليه وهي في الإسكندرية .. ربما تكتب إليه من باريس .. ولكن لم يصل إليه منها ولا كلمة حتى اليوم ..

وكانت قد قالت له إن أخاها كمال لا يحب السفر معهم إلى باريس .. وكان قد اتفق معه على أن يكون لقاؤهما في القاهرة في مقهى ليس له اسم ولكنهم يسمونه مقهى الأسيوطى الذى يقع عند مدخل ميدان السيدة زينب .. ولا يدري لماذا اختار كمال هذا المقهى البلدى الصغير للقاء أصدقائه .. ربما اختاره ليتبرأ من نفسه كابن الروزنامجى باشا ويظهر نفسه أمام الناس كابن بلد أو من الطبقة الشعبية العادية .. وقد تردد على هذا المقهى عدة مرات باحثاً عن كمال .. ربما لا شوقاً إليه ولكن ليحاول أن يعرف منه أنباء أخته دلير .. وهل عادت العائلة من باريس .. ولكنه لم يكن يجد كمال في مقهى الأسيوطى .. لعله لا يزال في الإسكندرية أو ربما تغير هذا العام وسافر مع العائلة إلى باريس ..

وكانت أحياناً تتباه ثورة على نفسه .. إنه ضعيف .. لماذا يعيش مستسلماً لهذه الأوهام التي تجتمع مع دلير ؟ .. لما يفترض أنها تريد كإيديها .. تجبه كإيديها ؟ .. ربما كانت من هواة الفرحة كما هو من هواها ..

كان منير غام قد أصبح وكأنه يعيش مع دلير .. إحساسه كله وأفكاره كلها معها .. ومهما شغل نفسه فهو لا يبعد عنها .. وكان قد بدأ يقرأ كثيراً .. إن الأحداث التي صادفته خلال هذا الصيف فتحت شهته أكثر للفرجة على العالم من خلال قراءة الكتب .. وكان يقرأ وهو يحس كأن دلير سمحت له بالانشغال عنها بالقراءة .. ثم بدأ يتردد على كلية الحقوق بعد أن بدأت الجامعة وينوب في تقصى تفاصيل الدراسة وفي اكتشاف خبايا الكلية وفي لقاءاته مع زملائه الذين كانوا معه في الدراسة الثانوية والتعرف على زملاء جيد .. ولكنه كان دائماً يحس كأنه سيخرج من الكلية ليعود إلى دلير .. إلى فكره وإحساسه بها .. كأنها تنتظره في بيته الذى يتوهم بخياله .. وأحياناً كان يتردد على صديقه عبد الله عبد اللطيف ويجلس معه في محل بيع الأقمشة .. ولم يكن يحاول أن يعود إلى التحدث مع صديقه عن دلير .. ولكنه كان يزوره وكأنه يعتمد الابتعاد عن دلير حتى يمتع نفسه بإحساس الشوق إليها .. الشوق إلى مجرد تحيلها ..

وكان آخر حديث جرى بينه وبين دلير يتردد دائماً في ذهنه ويكاد صوتها وهي تتحدث يرن في أذنيه .. كأنه أنغام لحن موسيقى لا يستطيع أن ينساه .. لقد تحدثا كأنهما يرتسمان المستقبل .. مستقبل حبهما .. إنها ستبقى في الإسكندرية وفي شهر سبتمبر ستسافر مع العائلة كلها إلى باريس كعادتهم لشراء ثياب ومطالب الموسم القادم .. وبعد أن تعود من باريس فعليه أن يتصل بها بالتليفون في الساعة الثامنة صباحاً من أى يوم .. وهي



يخس كأنه يتفرج .. يتفرج على عقول الناس .. ولكنه وهو يقرأ هذا الكتاب أحس أنه ليس مجرد متفرج .. إنه يجادل ويتناقش مع كل كلمة يقرأها ..

وكان قد وصل إلى أواخر شهر سبتمبر عندما فوجئ يوماً ببرهوم ابن بواب العمارة يصعد إليه في الشقة :

— واحد اسمه سى كمال ينتظرك تحت .. في الشارع ..

وقفز منير كأنه يطير أو كأنه استرد الحياة فجأة .. لقد عاد إليه كمال .. ووضع القميص والبنطلون والحذاء كأنه يقفز في داخلهم .. ثم جرى بهبط السلم ..

لقد جاء إليه كمال في سيارة يقودها .. وهى سيارة قديمة صغيرة .. فكما لم يعد نفسه عن السيارات الفخمة الحديثة التى تمضح مستوى طبقتة وغناه .. وكلاهما يشد على يد الآخر في إحساس جارف بفرحة اللقاء ويتسمم للأحر ابتسامة مرحة .. وقال منير لاهنا من شدة فرحته بقاء صديقه :

— أين كنت طوال هذه المدة ؟ .. لقد ذهبت إلى مقهى الأسبوتى مرات بحثاً عنك ..

وقال كمال من خلال ابتسامته :

— كنت مشغولاً بأصدقاء جدد من الإسكندرية .. إن صداقة الإسكندرية أتعب من صداقة المصاروة ..

وفتح له باب السيارة قائلاً :

— ادخل ..

وقال منير راجياً :

وهو يعلم أن الفرجة قد انتهت سريعاً بالنسيان .. وقد تطول وتعلق بإحساس المتفرج فترة .. وقد تتمكن منه حتى تنقلب إلى واقع يعيش فيه المتفرج حتى ينقلب من متفرج إلى مؤد .. يؤدى دوراً في الحياة بدأ به كمتفرج في الحياة .. وهو قد بدأ بالفرجة على دلبر ولكنه انقلب سريعاً احساسه بالارتباط بها .. ارتباط الحب .. أما هى فقد تكون فرحتها عليه قد انتهت سريعاً بالنسيان .. إنها ابنة الباشا وهو ابن الأندى .. وقد قال له صديقه عبد الله عبد اللطيف إن اختلاف المستوى الاجتماعى أى اختلاف الطبقة لا يمكن أن يجمع بين فتى وفتاة لا في حب ولا في زواج .. لعله كان أصدق منه في الاعتراف بالواقع .. وربما كان كل ما بينه وبين دلبر أن الطبقة التى تنتمى إليها أقوى إغراء واجتذاباً من الطبقة التى ينتمى إليها هو .. لذلك تصور أنه يحب دلبر في حين أن دلبر لم تكن تحس إلا بأنها تنفرج عليه .. تنفرج على الفقراء ..

وكان يحمده هذه الثورة سريعاً ويطردها من فكره وإحساسه .. إنه لم يقتنع بما قاله صديقه عبد الله .. وهو يؤمن بأن الحب يرتفع ويرقى فوق الطبقات الاجتماعية .. وكل القصص التى قرأها وكثير من أحداث التاريخ تقوم على حب بين أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء .. بين بنات الباشوات وأولاد الأندى .. فليصبر وينتظر ويهدأ ويتفأل .. إن دلبر ستعود إليه .. ويشد كتاباً من جانبته وكأنه يستأذن دلبر في الانشغال عنها بالقراءة ..

وكان قد بدأ يقرأ كتاب كارل ماركس الذى أهدها إليه كمال الروزنامجى .. وربما لم يكن الدافع لاختيار قراءة هذا الكتاب الذى مضت شهور وهو ممنوع عن قراءته هو رغبته في دراسة الماركسية .. ولكنه كان كأنه في شوق إلى دلبر ويحاول الاقتراب منها بقراءة كتاب أهدها له أخوها .. وقد تعود وهو يقرأ أن

— ألا تصعد معي إلى بيتنا لتتم زيارتك ؟ ..

وقال كمال بلهجته المرحبة :

— يا راجل ادخل .. إننا على موعد .. وليس لدينا وقت الآن لاستكمال الزيارة ..

وقال منير وهو يجلس داخل السيارة :

— هل هو موعد في مقهى الأسيوطي ؟ ..

وقال منير وهو يتحرك بالسيارة :

— لا .. إني أقيم الآن وحدي في البيت .. والأهل كلهم مسافرون في الخارج .. ولما كنت أعتبر نفسي إنسانا استغاليا فقد رأيت أن أستغل بيتنا ودعوت الشلة لأن نلتقى فيه .. مادنا وحدنا .. وحتى يشهد هذا البيت اجتماعات من نوع آخر غير الاجتماعات التي يلهمها أبى وإخوتى .. أريد أن تلور مناقشاتنا في عقري دارى .. ومن يدري ربما أصبح هذا البيت عقب الثورة مركز قيادة ..

وتفتحت عيننا منير كأنه عرف ما كان يبحث عنه .. عرف أن دلير لم تعد بعد من باريس .. وقال وهو يضحك ضحكة يخفى بها خيشه :

— ومتى تعود العائلة من الخارج .. حتى يعود مركز القيادة إلى مقهى الأسيوطي .. ؟

وقال كمال وهو يضحك بصوت أعلى :

— كل الثورات تعيش متعرضة للمفاجآت .. وقد تعود العائلة غدا .. وقد تعود بعد شهر .. وقد لا تعود أبدا وتقرر الهجرة إلى هناك .. والمهم الآن أن يشبعوا من الطواف بالدكاكين .. وأنتى ألا يشبعوا أبدا حتى يتركوكى وحدى لدكاكين السياسة في بلدنا الذى أعيش فيه كما يعيشون هم في دكاكين

الأزباء في باريس ..

ولم يكف كمال عن الكلام والأسئلة والأجوبة طوال الطريق .. ومنير يتحدث قليلا ويحجب عن الأسئلة باختصار .. وأهم ما يشغله أنه لا يعرف متى تعود دلير ..

إلى أن وقف كمال بالسيارة داخل حديقة البيت ..

إنه ليس بيتا .. إنه قصر .. ويعرف باسم قصر الروزنامجى .. كل القصور في أحياء الطبقة الراقية تعرف باسم العائلات التى تمتلكها .. قصر لطف الله وقصر شهاب الدين وقصر عائشة فهمى وقصر شريف باشا .. و .. و .. ودخل منير مع كمال إلى القصر وهو لا ينظر حوله وكأنه يخاف أن تصدمه الفخامة والأبهة التى تحيط به ..

ووجد في صالة الاستقبال كل أفراد الشلة التى سبق أن التقى بهم في مقهى يترو مضافا إليهم أشخاص لم يكن قد التقى بهم .. لعلهم أعضاء جدد في الشلة .. في الجمعية .. في الحزب ..

وبدأت المناقشات كما هى العادة باستعراض الأخبار والآراء التى يحملها كل منهم .. ومنير صامت مكثف بالاستماع .. ويحس في الوقت نفسه أنه يحدث نفسه معلقا على كل ما يسمعه .. إلى أن التفت إليه صديقه خليل الذى كان زميلا له في المدرسة قائلا :

— لماذا لا نسمع شيئا من الصديق منير ؟ ..

وقال منير مبتسما :

— لقد قلت لصديقنا كمال إنى أخاف المناقشات لأنى لم أعودها ..

واتفقنا على أن أكتفى بالاستماع ..

وقال خليل ضاحكا :

— إننا لا نتناقش ولكننا ننسلي بالكلام ..

وقال مصطفى وهو أيضا يتسم كأنه يتعاون مع زملائه على اكتساب منير :

— إن الاستماع يؤدي إلى تكوين رأى .. فلا تحرمنا من رأيك ..

وقال عادل المانسترلي في لهجة متعالية خشنة .. إنه ليس ذكيا ككمال الروزناجمي ويستطيع أن يخفي مظاهر الطبقة التي ينتمى إليها حتى في اختيار اللهجة التي ينطق بها .. قال كأنه يبدأ في محاسبة منير :

— هل قرأت كارل ماركس كما وعدت .. ؟

وقال منير وهو يركز عينه في وجه المانسترلي كأنه يتحدها :

— أنا لم أعد بقراءة كارل ماركس .. وأخذت الكتاب من كمال دون أن أطلبه ودون أن أعد بشيء .. ورغم ذلك لقد قرأت كارل ماركس ..

وتفتحت كل العيون والتفت حول منير كأنها في انتظار مناقشة متمعة .. وقال المانسترلي في صوت ملهوف :

— وماذا خرجت به منه .. ؟

وقال كمال الروزناجمي وكأنه يشخط في المانسترلي :

— ليس من حقل أن تسأل منير عما خرج به مما قرأه .. كأنك تعتبر نفسك أستاذاً يمتحن التلاميذ في علم مقرر .. فليس بيننا أستاذة .. وكل منا يختار ويتبرع لنا بما يقوله ..

وكان كمال يتكلم كأنه المسئول عن المانسترلي وعن توجيه كل كلمة ينطق بها ..

وقال منير وهو يتسم هادئا كأنه يريد أن يثبت اعتزازه بشخصيته في مواجهة كل الحاضرين :

— دعه يسألني لأقول له .. إني لاشك قد ذهلت من الواقعية التي

عشت فيها وأنا أقرأ كتاب كارل ماركس .. ومن تحليله العلمي لهذا الواقع .. ولكنني بعد أن انتهيت من قراءته وجدت نفسي لازلت بعيدا عنه ..

وقبل أن ينطلق المانسترلي بكلمة سبقه خليل قائلا في هدوء كأنه حريص على تأجيل إعلان الحرب :

— وماذا كان يحول دون أن تعيش معه ولا تتعد عنه ؟ ..

وقال منير وهو أكثر راحة وهو يجيب عن سؤال لم يوجهه المانسترلي :

— أساس النظرية الماركسية .. أي أساس تقسيم المجتمع إلى طبقات ..

فما هي الطبقة ؟ .. إنها مجموعة أفراد .. والحق الأساسي للفرد هو احتفاظه

بحريته داخل طبقته .. إلى حد أن يكون من حقه أن ينتقل من طبقة إلى

طبقة .. وأنا مثلا أعتبر من الطبقة المتوسطة ولكنني أعتد على حريتي التي

تشمل حرية الرأي وحرية العمل في الوصول إلى الطبقة العليا الغنية .. أي أن

أكون من أصحاب الملايين .. ولا أسمح بأن أجمد في الطبقة الوسطى أو

يفرض علي نظام ينقلني إلى الطبقة العاملة .. خصوصا وأن الطبقة العاملة

كما فهمتها مما قرأت هي الطبقة التي تنتج بمصر فكرها وطموحها في

أصابعها .. أي طبقة تتكون من أفراد كالألات .. تدور لنتج ..

وقال خليل وهو لا يزال هادئا :

— لقد اخطأت في فهمك لما قرأت .. فإن الانتاج الفكري المجرد يعتبر

عملا .. ويعتبر من يؤديه عاملا من الطبقة العاملة .. أي أن إنتاج الفكرة أو

الاختراع يساوي إنتاج رغيف الخبز أو القماش أو السلاح .. والماركسية

لا تنكر الفكر المجرد ولا تتجاهل حقه ..

وقال منير وهو أيضا يدعى الهدوء :

— إن الفكر المجرد في حاجة إلى حرية مطلقة .. إنه لا يستطيع أن يصل إلى منتهى الإبداع والإعجاز وهو مقيد داخل طبقة .. أو وهو موظف حكومي يتقاضى مرتبا ثابتا .. أو وهو مجرد من النواضع الشخصية مادامت دوافع شريفة نظيفة .. وانظر إلى ما وصل إليه الفكر الفردي في دولة ماركسية تحكمها طبقة واحدة بالنسبة لما وصل إليه الفكر في دولة تقوم على مجتمع حر متعدد الطبقات .. حتى إن الأدب الروسي الذي لا يزال تنهف عليه حتى اليوم وقد وصل إلى قمة الإبداع .. هو أدب ما قبل الثورة الماركسية .. ولم يعد في الإنتاج الأدبي الروسي بعد الثورة ما يشدنا أو يبرنا أو حتى يثير اهتمامنا ..

وقال خليل مقاطعا :

— إن أدب ما قبل الثورة يهرك لأنه أدب كان يدعو إلى الثورة الماركسية .. أى أنه أدب ماركسى ..  
وقال منير وكأنه يتباهى بمعلوماته :

— كانت روسيا في ثورة ولكنها لم تكن كلها ثورة ماركسية .. والذي حقق نجاح الثورة الروسية أنها قامت على حرية تعدد الآراء والاتجاهات إلى أن استطاع الاتجاه الماركسى أن يفرض نفسه وينفرد بالحكم .. ورغم ذلك .. فلماذا اختفى الإبداع الأدبي بعد الثورة ؟ .. لأن الفكر فقد حرته ففقد القدرة على الإبداع .. فقد حرته مجرد حصوه في طبقة واحدة ..

وقال عادل المانسترلي كأنه لم يعد يستطيع أن يحرم نفسه من الكلام وصوته يتلجج كأنه يقاوم أن يتنطق نائرا :

— إنك تحتج بحرية الفكر وتضع حق الحرية فوق حق العدالة الاجتماعية التي لا يحققها إلا الاعتراف بالواقع .. وسأضرب لك مثلا قد تدهش من

سماعه على لساني كأني أعترف بجرميتي .. إن أنى مليونير .. كل العائلة مليونيرات بما فهم أنا .. وتملك آلاف الأفدنة .. فما هي عبقرية أبنى الفكرية التي حققت له ملكية هذه الأرض وملأت خزائنه بكل هذه الملايين .. إنى أعلن أمامك أن أبنى ليس له القدرة على التفكير إطلاقا .. إنه أعشى الأغبياء .. وهو يعيش بكل هذه الثروة لأنه اكتسبها بالوراثة .. إن الطبقة المانكة تتوارث دون أن تبدل أى جهد فكري أو عملي مجرد أن المجتمع الذى أقامته يحفظ لها هذا الإرث حتى تحتفظ بكيانها وتفرض قوتها .. وهى الطبقة التى تحكم مصر حتى اليوم فلماذا لا تتور عليها وتمحوها من الوجود وتصل بالطبقة الأحق إلى الحكم . الطبقة العاملة .. الطبقة التى تمد الكيان الإنسانى بالحياة ...

ونظر منير إلى كمال الروزنامجى كأنه يريد أن يسمع رأيه في هذا الكلام .. ولكن كمال ظل صامتا .. وطالت نظرة منير إليه كأنه يستأذنه أن يتولى هو الرد .. وقال وهو أيضا يحاول أن يكون هادئا دون أن يتنازل عن الصراحة :

— إن أباك يمثل فردا في طبقة .. والقضاء عليه لا يفرض القضاء على الطبقة كلها .. حتى لو كان في هذه الطبقة عشرات أو مئات مثل أبيك ، فالقضاء عليهم لا يفرض القضاء على الطبقة ..

وصاح المانسترلي :

إن الأفراد لا يمثلون أنفسهم ولكنهم يمثلون طبقة .. ولا يعتمدون على قوة خاصة أو مبادئ خاصة ولكنهم يعتمدون على قوة ومبادئ الطبقة ..  
وقال منير وهو لا يزال قادرا على الهدوء :

— حتى هذه القوة يمكن دحرها وهذه المبادئ يمكن تعديلها .. بحيث يبقى تعدد الطبقات لتبقى حرية الفرد ..

وصرخ عادل المانسترلى :

— كيف تتوهم أن تدحر القوة وتعدل المبادئ دون أن تقضى على الطبقة بحيث تصبح البلد كلها طبقة واحدة . طبقة الأغلبية .. الطبقة العاملة .. وقال منير كأنه كان قد أعد الرد مقدما :

— اسمع يا صديقى ويا زميل الشلثة .. إني أكان أن انتهى إلى رأى قد لا يقنعك .. وهو أن المجتمع الإنسانى ينقسم فى صورة أخرى إلى طبقتين .. ليس ثلاث طبقات .. أى طبقة غنية .. وطبقة متوسطة .. وطبقة فقيرة .. ينقسم إلى طبقتين فقط .. طبقة حاكمة .. وطبقة محكومة .. إن روسيا نفسها أصبحت اليوم تقوم على هذا التقسيم لا على التقسيم الماركسى .. طبقة حاكمة تشمل قيادة الحزب الحاكم .. وطبقة محكومة تشمل أغلبية الشعب السوفيتى .. وقد اختارت الطبقة الحاكمة فى روسيا أن تعتبر المجتمع كله طبقة واحدة كما كان يعنى ماركس .. ولكن الطبقة الحاكمة تستطيع أيضا أن تبقى على تعدد الطبقات دون أن تخاف على نفسها .. أتدرى كيف ؟ .. بالدستور والقوانين التى تضعها .. إنها تستطيع أن تضع من القوانين ما يسحب من أهلك كل ما يملك .. ويسحب منك أيضا حق إرث ما يملك أبوك .. قوانين الضرائب .. وقوانين تحديد ملكية الأرض .. و .. و .. وفى الوقت نفسه تترك له ولكل ولكل الناس الحرية الطبقة .. أى حرية التصرف والعمل فى حدود القوانين بحيث يحتفظ الفرد بحريته فى أن يكون غنيا .. أو لا يستطيع إلا أن يكون متوسط الحال .. أو قد لا يستطيع مهما حاول إلا أن يكون فقيرا .. والعدالة الاجتماعية هى فرض نسبة الغنى .. ونسبة الحال المتوسط .. ونسبة الفقر .. بمعنى ألا يكون هناك فقر قاتل بل تتحمل الطبقة الحاكمة مسئولية الفقراء

كما تتحمل النقابات مسئولية العاطلين عن العمل .. وقد تسألنى أيضا عن كيف تقوم وتشكل هذه الطبقة الحاكمة .. إنها تقوم بالحرية أيضا .. حرية الفرد حتى فى الوصول إلى الحكم .. وهى حرية يرممها أيضا الدستور والقانون ..

وسكت منير وهو ينقل عينيه بين من حوله .. إنيهم كلهم يبلى عليهم أنهم قرروا عدم الرد عليه .. وكأنهم يسوا منه وقرروا مقاطعته .. إلا عادل المانسترلى فلم يستطع الصمت وقال بصراحة ..:

— قل بصراحة إنك ضد الثورة .. وإنك مقتنع بالمجتمع السياسى الذى تعيشه .. وبما أنك قلت إنك تمنى أن تصبح مليونيرا فلعلك لم تفضل بزيارتنا إلا لأنك تعلم أن بيننا أبناء أصحاب ملايين .. دون أن تصدق أن هؤلاء الأبناء هم الذين يقودون الثورة على طبقتهم وعلى ملايينهم .. وقال منير بصوت عال كأنه ينهر المانسترلى :

— إني لست ضد أى ثورة مادامت ثورة شعبية .. ولست ضد أى ثورة ماركسية حتى لو قامت فى مصر .. ولكنى أحتفظ بحرية رأى تجاه أو داخل أى ثورة .. سواء أتاحت لى هذه الثورة حق الاحتفاظ بحريتى أو قبضت على وحكمت على بالإعدام .. أى قبضت على حريتى وأعدمته ..

وتكلم كالمال الروزنامجى بعد أن تعمد عدم الاشتراك فى المناقشات وقال : — إني اعتبر الصديق منير من الأحرار .. ونحن يجب أن نتحالف مع الأحرار .. ومهما اختلفنا فهناك دائما الهدف الأكبر الذى يرتفع فوق كل خلاف .. إني لا أسأل نفسى إذا كان منير يمكن أن يكون ماركسيا أو رأسماليا فإني مكنت بثقتى فى أنه حر .. وأكثر من ذلك فإني معتز وفخور بصدافته وأمنى وجوده معنا كلما اجتمعت الشلثة ..

وخرج منير وهو يتعمد كما دخل ألا ينظر حوله في أرجاء القصر .. إن هذه الفخامة تثير يأسه من الوصول إلى دلبر .. وخرج إلى الشارع واستأذن من باقي أفراد الشلة الذين خرجوا معه .. وسار وحده سارحا في حيرته .. سار طويلا دون أن يحس بتقل قدميه حتى وصل إلى حى الحسين والتقى بصديقه محمد عبد الله عبد اللطيف في محل بيع الأقمشة . إنه كلما أحس بالنعانة لجأ إلى صديقه عبد الله ليرتاح .. ليرتاح بمجرد الجلوس في هذا الشارع الضيق المزدهم بهذا النوع المريح من الناس ..

ولم يحاول أن يعيد على عبد الله شيئا مما رآه أو سمعه في قصر الروزنامجي .. ولا أن يشكو له مما يحبه كعادته عندما يتكلم لا في انتظار رأى صديقه إنما فقط ليزفر أنفاسه المتجمعة في صدره ككتل السحاب الثقيل .. وجلس صامتا تاركا عبد الله متفرغا لاستقبال الزبائن إلى أن بدأ موعد انتهاء العمل يقترب ويقفل الدكان .. فقال له عبد الله :

— تعال الليلة نزور صديقنا الأستاذ منصور أحمدين ..

واعتذر منير وهو يبتسم .. إن الأستاذ منصور ممثل الإخوان المسلمين .. وهو لا يستطيع أن ينتقل مباشرة من اجتماع مع الماركسيين إلى اجتماع مع الإخوان .. على الأقل يجب أن يعقد بين الاجتماعين حتى لا يحمل عقله أكثر مما يحتمل ..

\*\*\*

وجاء موعد اجتماع الشلة في قصر الروزنامجي .. إنه لا يريد أن يذهب إلى هذا الاجتماع .. إنه يتعب في كل مرة يجتمع فيها بالشلة ويحس أنهم يحاولون

وبلباقة بدأ كمال ينقل المناقشة إلى موضوع آخر لا يحتاج إلى رأى منير .. وجلس منير صامتا غارقا في حيرته حتى لا يهتم بتتبع المناقشة .. إنه حائر من كل ما سمعه وحتى مع كل ما قاله هو .. إنه حائر مع نفسه وليس فقط حائرا مع الآخرين ..

وانتهى الاجتماع الذى تخلله تقديم الشاي في معدات فخمة ومن خلال اتباع تقاليد على مظاهر الأرستقراطية يقوم بها كثير من الخدم الذين يرتدون أزياء رسمية .. حتى إن أغلب أفراد الشلة كانوا يمتعون أنفسهم بالحلقة في معدات الشاي المصنوعة من الفضة الخالصة أكثر مما يمتعون أنفسهم بشرب الشاي ..

وقال كمال الروزنامجي مع ابتسامته التى يرسم بها دائما شخصيته وزعامته :

— نجتمع بعد غد .. هنا في البيت ..

وقال خليل ضاحكا :

— تقصد القصر ..

وقال كمال وهو يضحك أيضا :

— إننا نسبق الثورة ونعتبر القصر بيتنا .. بيت الشعب .. ( ثم التفت إلى منير مستطردا ) .. سترارك بعد غد يا منير ..

وقال منير ساهما :

— بإذن الله ..

وعلت شفتى كمال ابتسامة ساخرة تحمل إحساسه بالإشفاق على منير .. ما دخل « إذن الله » في أن يأتي إلى الاجتماع .. إنه إذنه لنفسه .. إذن شخصي ..

إلقاء قيود ثقيلة على فكره كأنهم يحاولون القرض عليه وتقيدده ليعيش حياته في سجنهم .. سجن الماركسية ..

ولكنه يريد أن يعرف متى ستعود دلبر .. وقد يعرف من خلال كلمات أخيها كمال .. فيجب أن يذهب ..

وجلس صامتاً مستمعاً طوال الاجتماع إلى أن قال كمال ضاحكاً قبل أن ينصرفوا جميعاً :

— سنتلقى مساء الخميس ولكن في مقهى الأسيوطي .. فقد وصلتني برقية بأن العائلة ستصل غداً .. وستستولى على بيت الشعب وتعود به ليكون قصراً للروزناجية ..

وخرج منير يسير طويلاً دون أن يحس بثقل قدميه وهو يعاني الحيرة من جديد ..

إن دلبر ستعود ..

هل يتصل بها في التليفون في الساعة الثامنة صباحاً كما اتفقا ؟!

ولكن من أدراه أنها لا تزال تذكر ما اتفقا عليه .. بل من أدراه أنها لا تزال تحس به إحساسها الذي كان يجمعهما في مياه شاطئ ميمى كل صباح .. وربما كان كل إحساسها هو إحساس المتفرج .. تتفرج عليه .. تتفرج على الشبان الفقراء .. وقد انتهى العرض وخرجت المتفرجة من حياته .. ولم تحاول أن ترسل له كلمة واحدة في خطاب كما وعدته ..

ولكن لماذا يستسلم لليأس .. ؟!

لماذا لا يرفض اليأس ويعيش كل دوافعه وأمانيه .. دوافع الحب الأول في حياته .. حب دلبر .. ؟!

إن الحيرة ترفقه .. ويسير في الشارع كأنه يغوص في مستنقع عميق يكاد

يغرقه ..

٩٢

( ٦ )

كان قد مضى يومان على علمه بوصول دلبر .. وترك منير فراشه في صباح اليوم التالي وهو مصمم على أن يحدثها في التليفون .. سواء كانت تنتظره .. وسواء كانت لا تزال تذكره أو نسيته .. يجب أن يجد الجواب عن الأسئلة التي تحيره وتعصف داخل رأسه ..

وجرى على السلم وهو لا يزال مرتدياً البيجاما التي ينام بها والشبشب في قدميه .. ولكنه توقف قبل أن يخرج إلى الشارع .. إنه في طريقه ليحدث دلبر ولا يصح أن يحدثها بالبيجاما . ولو كان يحدثها في التليفون .. فعاد وصعد السلم ودخل البيت وأسرع إلى الحمام وغسل وجهه وصَفَّ شعره ثم لبس قميصاً وبنطلوناً ووضع قدميه في حذاء .. وجرى إلى دكان البقال الواقع عند ناصية الشارع .. ونظر في الساعة .. إنها الثامنة وخمس دقائق .. وهى كما وعدته تنتظر حديثه من الساعة الثامنة .. من الأفضل له أن يتأخر عليها هذه الدقائق الخمس حتى لا يبدو كأنه متلهف عليها .. هذا إذا كانت تنتظره ..

وحيثاً البقال بحرارة أشد مما تعود أن يحيه بها .. ثم أمسك بالتليفون وهو ينظر إليه كأنه يعتذر له عن أنه سيرتكب وزراً .. وابتعد بالتليفون قدر ما استطاع عن موقف الزبائن .. وأدار الرقم الذي يحفظه عن ظهر قلب من كثرة ما رده بينه وبين نفسه ..

وسمع صوتها .. وقال دون أن يردد اسمها :

— الحمد لله على السلامة ..

وقالت دون أن تردد اسمه كأنما هي أيضا تعرفه بمجرد سماع صوته :

— أين كنت ؟ .. لماذا لم تتحدث أمس ؟ ..

قال في صوت هامس حتى لا يسمعه البقال :

— كنت حائرا مترددا .. فقد غبت طويلا ..

قالت في صوت رقيق كأنها تعتذر له :

— عائلتي غابت لي ..

قال في لوم :

— كنت أنتظر منك خطابا ..

قالت وكأنها تعتذر :

— كنت أنتظر دائما يوم أن تحادثني في التليفون ..

قال وكأنه ينتهد :

— إن الخطابات لقاءات .. وقد كنت في حاجة إلى لقاءك ..

قالت وهي تضحك ضحكة خافتة حلوة :

— كان سيكون لقاء لا يفهم أحدنا الآخر فيه .. فأنا لا أكتب إلا

بالفرنسية وأعرف أنك لا تقرؤها ..

قال في صوته الهامس :

— أعرف أنك لا تكتبين إلا الفرنسية .. وكنت قد قررت أن أستعين

بأختي بثينة لأتلقى بك معها فهي تهجد الفرنسية ..

وقالت دلبر في انطلاق فرح :

— هل حدثتني عنى ؟ ..

قال وهو يلتفت حوله خشية أن يكون البقال أو أحد من الزبائن يستمع

إلى حديثه .. قال في عجلة :

— ستحدث طويلا عندما نلتقى .. متى ؟

قالت في بساطة :

— حدثني غدا في نفس الموعد .. سأكون في انتظارك ..

قال وكأنه لا يستطيع أن يقاوم :

— كنت أنتظر أن نلتقى اليوم ..

قالت في نفس البساطة :

— لا أستطيع اليوم .. حدثني غدا ..

وقال بسرعة وهو يعود ويلتفت حوله خوفا من البقال وزبائنه :

— إلى الغد ..

ووضع سماعة التليفون قبل أن يسمع ردها وترك للبقال قرشا صاعغا كأنه

يعوضه عن استعمال تليفونه في ارتكاب الوزر .. ولكن البقال ناداه ورد له

نصف القرش .. فقد كانت المكالمة لا تكلفه أكثر من خمسة مليمات ..

وسار وهو يطلق نفسه لسعادته .. إنها كانت تنتظره .. لم تنس .. ولم يكن

بالنسبة لها مجرد فرجة تنفرج بها على الشبان الفقراء .. ولكنه ما لبث أن بدأ

يلوم نفسه .. كان لا يجب أن يطلب منها اللقاء وينتظر إلى أن تطلبه هي كما

سبق وعودها منذ التقيا على شاطئ ميامي في الإسكندرية ..

ومضى يومه وليله وهو لا يستطيع أن يستأذن دلبر بينه وبين نفسه لينشغل

عنها بأى شيء آخر .. وقد ذهب إلى كلية الحقوق ولم يستطع أى شيء فيها

أن يشغله عنها .. ويحاول أن ينشغل عنها بالقراءة فلا يكاد يفتح كتابا حتى

تطغى صورتها على الصفحات فلا يستطيع أن يرى ما يقرؤه .. وفي صباح

اليوم التالي خرج من البيت في الساعة السابعة . إنه لن يتحدث من تليفون

البقال حتى لا يثير شكوكه .. وركب الترام إلى الجزيرة .. وقرىبا من



دائما يتوقف على إرادة دلبر والظروف التي تحيط بها يلتقيان دائما في شارع الجبلية .. إن جمال الشارع الهادئ المظلل المطل على النيل أصبح يشعرهما بالحرمان ، الحرمان من استكمال لقاءات الحب .. وهو لا يملك سيارة تجمعهما في لقاء أكثر انطلاقا .. وليس لديه بيت يمكن أن يتستر داخله جيبا .. إلى أن فوجئ مرة بدلبر تأتي إليه وهي تقود سيارة .. وقالت ضاحكة وهي تفتح له الباب ليركب بجانبها :

— المفروض ألا أقود السيارة إلا والسائق بجانبى .. ولكننى استطعت اليوم أن أهرب من السائق ..

وانطلقت بالسيارة إلى شارع الهرم وهو لا يحس بالسعادة التي يحس بها عندما يلتقى بها .. يحس أنه التقى بالفتاة الغنية التي تملك سيارة في حين أنه فقير لا يملك مثلها .. وهو يكره أن يحس بها فتاة غنية .. إن كل حبه قائم على تجاهل الفوارق بينهما .. حب يرتفع فوق الطبقات .. ولكن هذه السيارة تأخذه من طبقته لتضعه في طبقتها .. طبقة أولاد النوات .. إلى أن أوقفت السيارة في جانب من رمال الصحراء .. والحديث لا ينتهى وإن كان يشوبه في هذه المرة الأفتعال .. ورغم ذلك خطر على باله أن يقبلها .. إنه يجب أن يبدأ من ناحيته بالوصول إلى القبله .. كما بدأ بقبلته الوحيدة التي سبق أن جمعتهما عندما جاءت إليه في عشته الخشبية التي كانت في صحراء سيدى بشر أيام لقائهما في ميامى .. وقد بدأ فعلا .. واقترب بشفته من شفتيها .. واستسلمت .. وتعمد كلامها أن تستمر القبله طويلا .. ولكنه لم يحس بالهيام والنوبان الذى أحس بهما في القبله السابقة .. ربما كان السبب أنه في سيارتها وأيس في عشته ولا في الصحراء الذى كان هو الذى اختارها وكان يعتبرها أرضه ..

الجامعة كان هناك مكتب بريد به تليفون للعامه .. وهو تليفون له حاجز زجاجى يحول دون سماع ما يجرى عليه من أحاديث .. إنه أكثر أمنا وهو يتحدثها منه ..

وكانت في انتظاره .. وكان حديثا أكثر انطلاقا .. وهى التي حددت موعد لقائهما .. في السابعة مساء في شارع الجبلية بالممالك .. إنه شارع على النيل قريب من قصر الروزنامجى ولكن القصر لا يقع فيه .. وقد كان معروفا أنه أهدأ شارع بالقاهرة وكله مظلل بالأشجار .. كان شارع في جنة أولاد النوات .. وجاءت إليه وهو في انتظارها من بعيد تسير بخطواتها الرشيقه وقوامها يهتز مع خطواتها كأنه يعزف لحنا هادئا رائعا .. واحتضنت كلتا يديه واحتضن كلتا يديها .. وعيناه في عينيها كأن كل عين ألقنت نفسها في الأخرى لتنام فيها .. وكل منهما على شفثيه ابتسامة صامته هائمة كأنها تقبل الأخرى .. وسارا ساعة أو ربما كانتا ساعتين فهما لا يحسان بحساب الوقت .. وكأن كل الساعات توقفت منذ لحظة لقائهما ولم يعد لساعات الزمن حساب .. إلى أن تنبته دلبر إلى أنها يجب أن تعود ..

وبدا جيبها يعيش دنيا عجيبه .. دنيا غريبة على كل حب .. فهو يتصل بها كل صباح في التليفون .. بلا وعد فحديث تليفون الصباح كان وعدا مستمرا بنفسه .. وفي كل مرة يبحث عن تليفون جديد حتى لا يثير شكوك من عندهم تليفون .. وغالبا ما يجدها في انتظاره .. ولكن أحيانا لا تكون هى التي ترد عليه .. فيلقى السماعه أمام أى صوت آخر يرد عليه .. قد تكون قد قضت ليلة طويلة ولم تستطع أن تصحو في مواعده .. أو ربما سبقها إلى التليفون خادم استيقظ فجأة .. وكانا يلتقيان أحيانا يوما بعد يوم .. ثم قد لا يلتقيان إلا بعد أسبوع .. وقد يغيبا عن بعضهما أسبوعين .. واللقاء

الخاصة ولم يلتق بأخواته البنات ولا بأمه أو أبيه .. وأبوه نفسه لم تكن له عادة أن يسأله كثيرا عن أبناء الباشوات ..

وعاد منير إلى البيت واختل بأخته بثينة وقال لها في لهجة تهتز حتى يكاد يهمس بها :

— هناك فتاة تريد أن تتعرف بك ..

وقالت بثينة في دهشة ساخرة :

— من هذه التي فنتت بي ؟..

وقال منير :

— إنها أخت صديقي كمال الروزنامجي ..

وقالت أخته وهي تنظر إليه نظرة مداعبة خبيثة :

— هل هي ..

وبترت سؤاها وهي واثقة أنه سيفهم ما تسأل عنه .. وقال منير وهو يدير لها ظهره حتى لا ترى ارتعاشته :

— إنها هي ..

وصاحت بثينة ضاحكة كأنها تزغرد :

— الحمد لله .. عرفت أخيرا من هي .. الفتاة التي لطشت عقلك منذ

مدة .. أين أراها ؟

قال منير وهو يتنهد متحملا مداعبة أخته :

— إنها مستعدة أن تأتي لزيارتك إذا دعوتها .. وأعتقد أنها يكفيتها أن

تلتقي بها وحدها كأنكما أنتما الاثنتين تدرسان الفرنسية .. ولا داعي للمقاهها

بباني أخواتي ..

قالها كأنه لا يريد أن يغامر بكل أخواته البنات بتقديهن إلى دلبر ..

وفي يوم آخر قالت له دلبر وكأنها لا تزال تبحث عن مكان آخر يلتقيان \*  
فيه غير شارع الجبلالية :

— لماذا لا تعرفني بأختك بثينة .. ما دامت تدرس الفرنسية فنستطيع أن ندرس معا .. ثم إنني أحب أن أعرف أختك ..

وقال منير ضاحكا :

— فكرة .. إن بثينة هي أذكى أخواتي البنات وأقربهن إلي .. وهي تعلم أني في حالة حب وكثيرا ما تصب عليّ التريقة والسخرية .. ولكنني أغيظها بالأحداث عنك .. إنها لا تعرف حتى الآن شيئا عنا .. وستفرح وتسدع عندما تعرف كل شيء .. وربما أحسست أنها انتصرت علي .. ولكن كيف تلتقيان ؟..

وقالت دلبر وذكاؤها يبرق في عينيها كأنها تعودت أن تقدر كل شيء :

— إنني أفضل أن تدعوني لزيارتها قبل أن أدعوها لزيارتي ..

إنها تذكره بيوم أن طلبت منه أن تزوره في عشته الخشبية بعد أن أفلس وأصبح عاجزا عن أن يلتقي بها في كازينو سان استفانو .. ربما كانت تريد أيامها أن تقنعه بأن البنت الغنية يمكن أن تزور الفقير الذي تحبه في بيته .. وإن كانت يومها قالت له إنها جاءت إليه ليري أن بنت الذوات يمكن أن تكون ست بيت تطبخ وتغسل وتمسح .. كما طبخت له الطعام يومها .. ربما كانت تريد الآن أن تقنعه بأنها تستطيع أن تنزل إلى مستوى عائلته كلها وتزوره في بيت العائلة وتصادق أخته ..

وكانت عائلة منير تعلم أنه أصبح من بين أصدقائه كمال ابن الروزنامجي باشا .. فهو يتردد عليه كثيرا وينظره بسيارته أمام باب العمارة .. وقد صعد إلى الشقة مرتين أو ثلاثا .. ولكن العائلة كانت تتركه منفردا بمنير في حجرته

وقالت بثينة ضاحكة :

— بما دامت قد جاءت إلى البيت فيجب أن يستقبلها كل أخواتي ..  
وسأنتقم معهن على طريقة هذا الاستقبال ..

وسكت منير مستسلما لأخته ..

وتحدد موعد استقبال دلبر .. وانقلب البيت كله استعدادا لاستقبالها ..  
استقبال ابنة الباشا .. كأن العائلة تعد لإقامة فرح زفاف ابنها منير ..  
وجاءت دلبر تحمل هدية .. صينية فضة محملة بحلوى المارون جلاسيه ..  
واستقبلتها أخوات منير الثلاث وكل منهن قد غالت في انتقاء ثوبها وإعداد  
زينتها وإن كانت بثينة أقلهن مغالة .. ولم تشترك الأم معهن في الاستقبال  
واكتفت بأن أطلت على دلبر من خلال فتحة الباب .. والأب طبعاً تعمد ألا  
يكون في البيت ..

وكان الحديث مفتعلا .. وحتى الفرحة باستقبال الضيفة مفتعلة .. إنهن  
لا يستطعن تجاهل أن دلبر ابنة باشا ومن بنات الذوات .. وأحياناً يستسلمن  
لها وأحياناً يكن كأنهن يتحدینها .. إن الغلابة لسن في حاجة إلى نفاق  
الأغنياء .. ثم انسجبت الأختان كما هو متفق عليا وتركن دلبر مع بثينة ومنير ..  
وكانت بثينة تخرج من الغرفة أحياناً معتذرة بأى عذر حتى تترك أختها وحده  
مع حبيبته .. ثم تعود وتحاول رفع الكلفة بينها وبين دلبر .. ولكن الكلفة لم  
ترفع .. حتى بعد أن انتهت هذه الزيارة ولبت بثينة دعوة دلبر لزيارتها في قصرها ..  
قصر الروزنامجي .. ظلت الكلفة قائمة بينهما .. بين ابنة الباشا وابنة  
الأندى ..

ورغم كل ذلك استمرت حكاية منير مستمرة مع دلبر .. هذه الحكاية  
الغريبة .. يتصل بها كل صباح في التلفون وقد تمر أيام لا يتصل بها ..

ويلتقيان كل يوم أو كل أسبوع أو كل أسبوعين .. ويلتقيان في شارع  
الجبلاية أو في سيارة دلبر عندما تستطيع أن تهرب بها من السائق .. أو في  
بيت منير بحجة زيارة أخته بثينة .. وهو غالباً لقاء محروم لا يحقق شيئاً من  
أمانى الحب .. وربما كان ما وصل إليه منير بإحساسه بدلبر هو أنها رغم كل  
ما تعطيه فهي مرتبطة ارتباطاً كاملاً بعائلتها .. ببطقتها .. إن الحب لا يصل  
بها إلى حد المغامرة والتضحية بالطبقة التي تعيش فيها .. إنها كأخيها ..  
يؤمن بالماركسية ويعمل على فرض الماركسية على البلد كله ويعلمن ثورته على  
الطبقة التي ينتمى إليها .. ورغم ذلك يعيش هذه الطبقة بكل ما فيها  
ولا يهجرها .. وعلى كل حال فإن منير أيضاً ليس مغامراً ولا مجازفاً ولا يفكر  
في تحريض دلبر على المغامرة والمجازفة .. ربما كان مثلها يعتمد على طبيعة  
الفرجة على الحياة حتى لو كانت الفرجة قد انتهت بهما إلى الحب .. فهما في  
حبهما مستسلمان للفرجة على الحياة .. وكان منير أحياناً يثور على نفسه ..  
كيف يكون بينه وبين أخت صديقه كل هذا الحب ولا يصارحه به .. حتى  
لا يكون مجرد لص يسرق شرف صديقه .. لماذا لا يصارحه بحبه لأخته  
وليكن ما يكون .. ولكن لعل الوقت لم يحن بعد لهذه المصارحة ..

وكان منير خلال هذه السنوات قد عاد إلى تعود استئذان دلبر في أن يتغيب  
عنها بفكره وإحساسه حتى يتفرغ للدروس الجامعية وللقراءة خارج  
ما تقدمه له الجامعة ..  
وكان يقرأ كثيراً .. وقد مرت به فترة كان يبحث فيها عن طريق يحقق  
العدالة الاجتماعية غير الماركسية .. وتعرف في هذه الفترة بصديق جديد كان  
معروفاً في الكلية بسعة إطلاعه وتوسعه في القراءة كما كان دائماً من أوائل  
الطلبة : إنه الصديق حلمي محفوظ .. وقد دله الصديق حلمي على كاتب

وثبت لنفسه أنه مسلم لأنه اختار الإسلام .. والاختيار لا يتم إلا بالافتناع .. والافتناع بالاختيار لا يتم إلا بعد استعراض وفهم كل الأديان .. بل وأيضاً دراسة وفهم حجج الإلحاد .. ووجد نفسه يندفع إلى الحصول على الإنجيل والتوراة .. ويقرأ .. ويحاول أن يفهم .. بل وجد نفسه يكرر زيارة الكنائس .. وأيضاً كنيس اليهود .. ويقدم على تساؤلات تبدو ساذجة يوجهها إلى القسس الذين يقوم على التعرف إليهم بكل بساطة .. وهو يزور الكنائس ويلقى التساؤلات كمتفرج لا يدرى مدى تأثير الفرجة على اقتناعه .. ولكن اقتناعه لا يبدأ من الصفر .. فهو اقتناع مستمر في ارتباطه بالإسلام . ووجد نفسه يقع بفكره وخياله في حيرة عنيفة .. حيرة في فهم الدنيا وفهم الآخرة .. وحيرة بين الواقعية والخيال .. وحيرة بين إنقاذ النفس والتضحية بها .. إن الأديان كلها لم تصل إلى الإنسان لتدله على حياته في الآخرة بل لتدله أولاً على حياته في الدنيا .. كيف يدخل الجنة بعد أن يكون سعيداً شعبان في الدنيا ..

ووجد نفسه يعود إلى القرآن الذى كان يعتقد أنه عاش فيه منذ ولد وقرأ وحفظ منه الكثير .. إنه يعود ليقراه بإحساس جديد .. إنه يقرأ ليفهم حتى يستكمل اقتناعه .. وقرأه كله ثم بدأ يستعين بكتب التفسير ويقرأ القرآن مرة ثانية .. واحتار مع كتب التفسير ويحس أحياناً بالعجز في فهمها .. ثم قرر أن يتولى هو التفسير لنفسه وبدأ يقرأ القرآن مرة ثالثة .. إلى أن أحس بالراحة .. أحس بأنه استكمل اقتناعه ..

إنه الآن مسلم بالاختيار .. لا بمجرد الورثة .  
مؤمن باقتناعه .. لا باستسلامه ..  
وقد استغرقت هذه الفترة شهوراً طويلة من عمره تعدت العام .. ولم يكن

إنجليزى لم يكن قد قرأ له .. وهو برنارد شو .. إنه كاتب سهل .. يعرض كل ما يدور في العالم من أفكار بأسلوب يفهمه أى قارئ دون أن يجيره في تعبيرات علمية لا يفهمها إلا المتخصصون .. وقد قرأ له كتاباً صغيراً يضم بحثاً عن الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية .. كأنه يحكى حكاية مسلية .. وقد أدمن قراءة برنارد شو .. وهو كاتب يدعو إلى حركة فكرية جديدة ظهرت في إنجلترا تحمل اسم « الفيبيان » .. إنها حركة متحيزة لطبقة العمال ولكنها لا تطالب بثورة تلغى باقى الطبقات .. ولكنها تدعو إلى طريق معترف به يصل به العمال إلى الحكم بمنافسة بقية الطبقات .. طريق في حدود الدستور والقوانين .. وهى الدعوة التى تكون حزب العمال البريطانى على أساسها .. ووصل الحزب إلى الحكم فعلاً ..

وقد ظل عمراً طويلاً مقتنعاً بنظرية الفيبيان إلى حد الإيمان .. إلا أنه صدم فيها عندما مرت السنوات وأصبح حزب العمال أضعف من النقابات العمالية .. وأصبحت النقابات هى التى تحكم العمال لا الحزب .. والنقابات يبلغ من تحيزها لأهدافها المحدودة أنها لا تستطيع وليس من صالح البلد أن تتولى الحكم العام ..

ومع استمراره طويلاً في هذه القراءات تحول فجأة وكأنه تذكر سؤالاً هاماً كان قد واجه به نفسه ثم نسيه .. لماذا هو مسلم ؟

إنه مسلم بحكم الورثة .. ورث إسلامه عن أبيه وعن جده وعن جد جده .. ورغم أنه قرأ القرآن وكان حريصاً على أن يؤدى فروض الإسلام ليؤكد إسلامه وإيمانه إلا أنه كان كابن صاحب الأرض الذى ورث الأرض عن أبيه وعاش حريصاً على رعايتها وتنمية ارتباطه بها ..

لا .. يجب أن يتحدى كمال روزنابجى بعد المناقشة التى دارت بينهما

يتباهى بما وصل إليه من معلومات وفهم للإسلام .. كما أنه لم يتغير في مظاهر إسلامه بالإفراط والمبالاة فيها .. ظل كما هو وإن كانت آرائه في الدين تنضج أحيانا في أحداثه الخاصة .. حتى عندما كان يتحدث في لقاءاته مع حبيته دلبر بدأ بلا قصد يفسر لها أحكام الإسلام فيما تقوم عليه حياتهما .. وقد قالت له مرة إن راهبات المدرسة الفرنسية التي تتردد عليها مجبرتها على أن تدخل الكنيسة مع بقية الطالبات كل صباح .. وأجابها في بساطة :

— تفرجى على ما يدور في الكنيسة ..

وقالت دلبر في سخط :

— إني لا أطيق هذه الفرجة .. إني لست مسيحية .. إني مسلمة ..

وقال وهو يبتسم ابتسامة هادئة :

— إنك تدخلين الكنيسة كما تدخلين الفصل الدراسي مطبوعة لنظم

المدرسة .. وأنا أعلم أنك لا تطيقين كثيرا من الفصول الدراسية والعلوم التي تلقى عليك فيها .. لأنها لا تهتمك ولست في حاجة إليها .. أما إذا أحسست بالاهتمام والحيرة فأنت تلجئين إلى معلمة تلتقى عليك دروسا خصوصية .. كذلك إذا أحسست بأن الفرجة على ما يدور داخل الكنيسة بدأ يحيرك مع إسلامك فالجئى إلى معلم إسلام .. إن الحيرة التي تؤدى إليها الفرجة هي الطريق إلى تقوية إيمانك ..

وقد تكون دلبر قد فهمته أو لم تفهمه ولكنها لم تتعرض لهذه الحيرة أبدا .. فكل حياتها لا تعتمد على الإسلام رغم كل المظاهر الإسلامية التي تحيط بها .. كما أنها لا تحس أبدا بحاجتها إلى المسيحية .. إن حياتها .. حياة أولاد النوات .. تغنيها عن كل الأديان ..

وقد رفعت هذه الفترة من قوة ارتباط منير بصديقه محمد عبد الله عبد

المطيف .. وزاد إحساسه بالراحة وهو جالس إليه .. وعبد الله مسلم كامل .. وقيم كل حياته على الإسلام .. وإيمانه بالإسلام يغنيه عن فهمه ودراسته والتعمق في تفاصيله .. إن قوة الإسلام كلها تقوم على هذا الإيمان ولم يتعرض المسلمون للفرقة والتمزق إلا وهم يحاولون الفهم والتفسير .. لذلك لم يكن منير يحاول أن يشغل صديقه عبد الله بالتفسيرات التي وصل إليها .. ولا يعرض عليه قراءاته .. كأنه يخاف عليه من تعكير صفو قوة إيمانه .. يكفى أنه مؤمن .. ولكنه كان قد بدأ يحس بقوة أكبر وهو يحدث صديقهما الأستاذ منصور أحمدين عضو جماعة الإخوان المسلمين .. ويدخل معه في مناقشات واسعة كلما التقى به .. ولم يكن منير في مناقشاته يحاول أن يفرض رأيه ولكنه كان دائما كأنه يريد أن يستقر على رأى .. وقد قال له مرة بصراحة :

— لا أعتقد أن جماعة الإخوان المسلمين سيؤدى كيانها إلى تحقيق أهدافها ..

وسأله الأستاذ منصور وهو في دهشة من صراحته :

— كيف ترى هذا الكيان وكيف تصور هذه الأهداف ؟

وقال منير في هدوء ولهجة ليست معارضة ولكنها هجة من يريد أن يفهم :

— إن الإخوان يحصرون كيانهم في الدعوة للإسلام .. وهي دعوة عامة ليست قاصرة على جماعة الإخوان وحدهم .. بل إن كل الحكومات القائمة والملك فاروق نفسه يساهم في الدعوة للإسلام .. ويبرر حكمه ويفطى فسوقه بالدعوة للإسلام .. ويستند على قوة الأزره ويتحكم في وزارة الأوقاف ويلم حوله مشايخ الطرق الصوفية .. فإذا أفسد وثار عليه الإخوان المسلمون

رد عليهم بأداء صلاة الجمعة في احتفال كبير .. كأنه يرد عليهم قائلا ..  
إذا كنتم تريدون الإسلام فهذا هو الإسلام .. ويخرج من مسجد الحسين  
ليقضى ليلته في ماخور ملهى الأوبرج .. فكيف يستطيع الإخوان السيطرة  
على الملك فاروق وعلى كل حكوماته بالاكتفاء بنشر الدعوة ..  
وقال الأستاذ منصور في هدوء :

— إن الدعوة تجمع قوة المسلمين ليفرضوا إرادتهم على الملك  
وحكوماته ..

وقال منير وهو ساهم كأنه يستعيد ما اخترته من آراء :

— إن الإسلام ليس مجرد دعوة .. ولكن الإسلام دين واقعي يشمل كل  
ما يواجهه الإنسان مهما تطور إلى أن يحل يوم الدين .. والإسلام يدعو إلى  
مواجهة هذا الواقع مواجهة فعلية .. أى يفرض المسلمون إرادتهم المستمدة  
من الشريعة حتى في أدق التفاصيل .. أى إذا شقت الحكومة مثلا شارعا في  
الزمالك أو أقامت قصرا من قصور الأمراء بينا أحياء أغلبية المسلمين حوارى  
قنطرة وأهلها يعيشون في العراء أو في عشش .. تحرك الإسلام .. ورفض شق  
الشارع أو إقامة هذا القصر حتى يحقق للمسلمين الواقع الذى يفرضه  
الإسلام .. فهل يستطيع الإخوان أن يحققوا ذلك ..

وقال الأستاذ منصور وهو ينظر إلى منير كأنه يشفق عليه :

— إن الإخوان يواجهون الواقع في أدق تفاصيله .. ويعلنون حكم  
الشريعة على هذا الواقع ..

وقاطعه منير قائلا :

— لا يكفى إعلان الرأى فى محيط الدعوة .. يجب أن يكون الإخوان  
قوة تنفيذية فى مواجهة الواقع ..

وقال الأستاذ منصور مبتسما :

— ماذا تقصد بهذه القوة التنفيذية ؟ ..

وقال منير متحمسا :

— أى لا يكون الإخوان المسلمون جماعة بل يكونون حزبا سياسيا يصل  
بأغلبيته الشعبية إلى الحكم ويتولى تطبيق الواقع الشرعى .. الحزب الإسلامى  
المصرى .. وقد بدأ النبى محمد ﷺ وهو صاحب دعوة إلى أن أممه الله  
فأصبح صاحب قوة تنفيذية تحقق تعاليم الدعوة .. أى أصبح بلغة العصر  
حزبا سياسيا يفرضه الإسلام ..

وقال الأستاذ منصور بصوت يؤكد اقتناعه :

— إن دعوة الإخوان ستصل إلى أن يكون كل الحكام من المؤمنين  
بشريعة الإسلام .. ولكن أفراد الجماعة لا يتولون الحكم حتى لا يشغلهم  
عن مطالب الدعوة ..

وقال منير ساخرا :

— أنت تعلم أنى من المؤمنين ولكنكم لو عرضتم على الاشتراك في وزارة  
إسلامية .. فلن أقبل إلا إذا كانت وزارة إخوان ورئيسها حسن البنا .. ثم  
ماذا حدث وأنتم لا تسعون إلى تحمل المسئولية التنفيذية ؟ .. لقد تعددت  
من حولكم الجماعات الإسلامية .. وانقسمت في داخلكم إلى جماعات  
سرية تمارس التطبيق التنفيذى لنشر الدعوة .. ومن أراد منكم أن يشترك في  
الحكم فمن السهل عليه أن يستقيل من جماعتكم ويختلف معكم .. وكل  
هذا لأنكم لستم واقعيين .. تاملون مسئولية الواقع الذى يحقق تعاليم  
الإسلام .. ولو كنتم واقعيين داخل الواقع القائم لأعلنتم الجماعة حزبا سياسيا  
إسلاميا ..

وقال الأستاذ وهو أكثر حسما وجدية :

— لا يمكن أن نكون حزبا سياسيا لأننا لا نعرف بالواقع الذى تقوم عليه الأحزاب هذه الأيام .. لا نعرف بواقع نظام الحكم .. ولا بالدستور .. ولا بالقوانين السياسية .. ونريد أن نغير ونعدل كل ذلك .. وبعد ذلك قد نبدأ فى تحمل المسؤولية التنفيذية كما تقول ..

وقال منير :

— أنا .. وربما كل الشبان .. يتمنون هذا التغيير والتعديل .. ولكن كيف ؟ ..

وقال الأستاذ منصور أحمدين :

— كن معنا ..

وقد ظل منير محتفظا بصداقته للأستاذ منصور أحمدين من خلال صداقته للصديق الدائم محمد عبد الله عبد اللطيف .. ولكنه لم يحاول أبدا ولم يفكر أبدا فى الانضمام إلى جماعة الإخوان أو حتى مجرد الانتساب إليهم .. إن أقوى ما يحتفظ به هو حريته .. والارتفاع بنفسه فوق كل الجماعات .. ولم يكن الأستاذ منصور يلح عليه للانضمام بعد أن سبق وعرض عليه .. ولكنه كان يكفى بهذه المناقشات معه ويدعوه أحيانا لحضور اجتماعات عامة فى مقر الجماعة لسمعته وهو يلقي خطابا ..

وفى نفس الوقت كانت صداقته بكمال الروزنامي مستمرة .. إنه ليس صديقا مجرد أنه شقيق حبيبه دلبر .. إنه فى أحاسيسه يكاد يبعد بين الأخ واخته .. إن دلبر بالنسبة له شيء وكإل شيء آخر .. حتى يكاد يتصور أن كلا منهما يعيش عالما آخر .. ومناقشاته مع كإل هى فرجة يتمتع بها ولا تنتهى متعته بها .. الفرحة على آرائه وكيف يفكر بين فكر باق البشر ..

وهو لا يجتمع بالشللة إلا نادرا .. لا يحب أن ينتهى إليها أو بحسب كأنه منها .. ولكن اجتماعاته الدائمة مع كإل وحده .. اجتماعات قد تستمر دقائق وقد تمتد ساعات .. وكإل يطلب أكثر مما يطلب الصديق الدكتور منصور عضو الإخوان .. لقد طلب منه مرة أن يكتب منشورا ستوزعه الشللة قائلا :

— إنك لست من الشللة .. ولكنك أقدر من يفهم مبادئها وآراءها وأهدافها .. وليس بين الشللة من يستطيع أن يكتب على مستوى محترم .. كل المنشورات التى أصدرناها كانت مكتوبة بأسلوب ركيك تافه .. وأنا أعرف كما سمعت أنك تهوى الأدب ولك أسلوب كأنه فى مستوى أسلوب كاتب كبير .. فاكتب لنا هذا المنشور ..

واعترض منير قائلا :

— إني لا أستطيع أن أكتب إلا آرائى .. وآراء الشللة رغم أنى أعرفها إلا أنها ليست آرائى .. ولذلك لا أستطيع أن أكتبها وأوفىها حقها .. لا رفضا ولكن عجزا عن التعبير عن آراء غيرى ..

واصر منير على رفضه كتابة المنشور ..

وفى مرة أخرى فاجأه كإل بطلب غريب .. قال له إن إبراهيم عضو الشللة الماركسية يتبعه البوليس للقبض عليه .. وهم ينقلونه من مكان إلى مكان حتى لا تصل إليه يد البوليس .. وكإل يرى أن خير مكان يمكن أن يختبئ فيه إبراهيم هو بيت منير .. إنه أبعد مكان يمكن أن يخطر على بال البوليس .. فمنيير لا يعتبر من أفراد الشللة ولا يعرفه البوليس ..

وفكر منير طويلا .. إن البوليس لا يقبض على كإل نفسه وهو رئيس الشللة .. من يستطيع أن يقبض على ابن الإياشا .. ولكن البوليس لا شك

يتبع كل أفراد الشلة .. ولو قبل أن يخبرني إبراهيم في بيته فهو لا يخبره مشاركة له في إيمانه بمبادئه أو لأنه ماركسي مثله ، ولكنه يخبره تطوعا في حماية الحرية .. حرية الرأي .. وحرية الاختيار بين الفكر السياسي .. إنه يعطى للشلة حرية الفكر الماركسي كما يعطى نفسه حرية رفض هذا الفكر .. وقال لصديقه كمال :

— عندنا غرفة غسل فوق سطح البيت يستطيع أن يخبرني فيها .. ولكن لا أكثر من يومين ..

واضطر أن يكذب على كل أهله .. قال لهم إنه زميل في الكلية كان في قريتهم وعاد ليجد نفسه مطرودا من الغرفة التي يستأجرها .. وتقبل الأهل كذبه فورا وتركوا له غرفة الغسيل .. وقد حرص على ألا يتولى أخواته البنات خدمة إبراهيم .. كان هو بنفسه الذى يقوم على خدمته ويقدم له الأكل ويشاركه فيه .. بل إنه تفرغ كله للصديق الهارب .. لم يكن يتركه أبدا وحده .. كأنه يخاف منه على بيته .. أو يخاف مما قد يتعرض له البيت .. من يدري ؟ .. ربما عرف البوليس مكانه .. ولم يخرج من البيت إلا عندما سحب إبراهيم مرة بعد منتصف الليل ليتمشى به في الشوارع القريبة تر فيها عنه .. كأن إبراهيم كان مسجوننا وهو سجاننا .. ويرر هذا السجن أمام أهله بأنه يذاكر مع إبراهيم ..

وقد كان كمال الروزناجى عند وعده .. فبعد يومين بالضبط أخذ إبراهيم الهارب وانتقل به إلى مكان آخر .. دون أن يحاول إبراهيم أن يعرف إلى أين انتقل به ..

\* \* \*

والأيام تمر .. والشهور .. والسنوات .. وحياته مزدحمة بالفرجة على ما في الحياة من آراء وأفكار ومجالات على قدر ما يستطيع أن يصل إلى الفرجة عليه من مشاهد الحياة .. وعلى قدر ما يسمعه وما يقرؤه من كلام يدور في مجالات الحياة ..

إلى أن انتهى من كلية الحقوق .. حصل على الليسانس .. وكان متفوقا وإن لم يكن من الأوائل .. إن تطلعه إلى المعرفة لم يترك عقله متفرغا للمواد التي تدرس له في الجامعة حتى يكون من الأوائل الخريجين .. ولكنه متفوق كما هو متفوق دائما في كل الامتحانات الدراسية التي مرت به ..

وكان مع الفرجة التي تحيط به بعد أن انتهى من الجامعة وحصل على الليسانس واتقا من أنه سيجد الطريق الذى يريده ليبدأ العمل .. ليبدأ في الحصول على دخل خاص ويربح أباه من الإنفاق عليه .. إنه الآن شخصية مسؤولة مسؤولة كاملة .. وبدأ إحساسه بالمسؤولية يتركز في إحساسه بدليل .. إن الحب مسؤولة أيضا .. فكيف يحدد مسؤوليته عن حبه .. عن دليل ؟ ..

إن الطريق الطبيعي لتحديد مسؤولية الحب هو الزواج ..

هل يتزوج دليل ؟ ..

وكيف .. !؟

« سهر الليل » ليلياس ..  
www.iiias.com



طبيعة الفتاة المعتزة بنفسها القوية الشخصية .. إنها تفرض على الشاب أن يبدأ هو بعرض أمنيته بالزواج بها ..

والآن بعد أن تخرّج في الجامعة ونال الليسانس وبدأ استقلاله بنفسه واثقا أنه سيجد العمل الذي يريده .. ومهما كان هذا العمل فلا شك أنه يبدأ بدخل محدود .. فهل يستطيع بهذا الدخل المحدود أن يوفر مطالب الحياة التي تعيشها ابنة الباشا .. الحياة التي تعيشها دلبر ؟ .. إنه يرفض تصور أنه هو الذي سينتقل إلى حياتها وليس هي التي تنتقل إلى حياته .. ليس هو الذي ينتقل ليعيش في قصر الروزنجابي ولكنها هي التي تنتقل لتعيش في بيت غائم أفندي .. وتعيش سعيدة كما تعيش أخته .. إن ما سيجمعه بدلبر ليس مظاهر الحياة وليس حسابات الدخل .. إن ما يجمعه بها هو الحب .. والحب أقوى من كل مظاهر الحياة .. الحب لا يقوم على نظريات حساسية .. تحسب بالأرقام قيمة ما يملك الآخر وما يصل إليه وما ينفق .. إن الحب يستمد قوته من نفسه .. وممتعته أن يبدأ المحبان بالاستقرار على الأرض .. أرض الحب .. ثم يبدأ الحياة معا .. إلى أن يقيما أفخم عمارة في الدنيا .. عمارة الحب ..

ورغم ذلك مضت أيام وهو متردد في أن يفتح دلبر في موضوع الزواج .. وقد التقى بها في شارع الجبلية كما تعودا خلال سنوات .. وأبلغها في تواضع وهندوء نخر حصوله على الليسانس .. وانطلقت فرحتها حتى تعلقت بعنقه في الشارع الهادئ الخافت الضوء وأخذت تقبله .. وكانت قبلا فرحة حتى إنه لم يكتف بها على خديه وشد شفتيها إلى شفتيه ومال بها على أرض شاطئ النيل يهيمان أكثر في القبل .. كانت قبلات أحر من كل ما سبقها من قبلات وسرت في خلجاتهما .. ورغم ذلك .. وبعد أن انتهت

( ٧ )

لقد مر الآن أكثر من أربع سنوات على لقاء منير بدلبر .. سنوات حب عجيب لم يرهما خلافا أي صورة للمستقبل ولم يتبادلا أي وعد .. كأنه حب ليس له مستقبل يشغلان نفسيهما به أو يحسبان حسابه .. حب يعيش يوما بيوم .. وكل ما يحرصان عليه هو أن تستمر أيام اللقاء .. وهو حرص لا يدفعهما إلى مجازفة أو مغامرة ولكنه حرص هادئ كالحرص على لقاء الأصدقاء ..

وكان منير مؤمنا بكل فكره وكل إحساسه أن ما بينه وبين دلبر هو حب .. حب كامل .. وكان يطرد من فكره وإحساسه كل خاطر يدعو إلى اليأس .. ويطرد الصورة التي كانت تراوده أحيانا .. صورة ابنة الباشا تفرج على ابن الأفندي .. وصورة ابن الأفندي يفرج على ابنة الباشا .. كأن ما بينهما ليس حبا إنما مجرد فرجة يتمتع بها كل منهما بالآخر .. لا .. إنه متأكد أنه حب وإلا ما استمر كل هذه السنوات ولكانت الفرجة انتهت بعد لقاء أو اثنين .. وكان دائما يفكر في رسم مستقبل هذا الحب .. وليس له إلا مستقبل واحد .. استمرار اللقاء العمر كله .. أن يعيشا حياة واحدة .. أي الزواج .. ولكنه لا يستطيع أن يبدأ في عرض مشروع المستقبل .. مشروع الزواج .. وهو لا يزال طالبا يعيش معتمدا على أبيه الأفندي المتوسط الحال .. لا يستطيع أن يبدأ إلا وهو معتمد على نفسه .. مستقل بالمسؤولية .. وهو في الوقت نفسه لا ينتظر أن تبدأ دلبر في مفاحمته برسم المستقبل .. أي تطالبه بالزواج .. لا .. لا يمكن .. ليس هذا من

انقيل .. قبل أن يفترقا .. عجز أن يفاتحها في موضوع الزواج .. موضوع المستقبل .. وهى هائمة فى فرحتها وكأنها تفضل الحب بلا مستقبل فلا تشده إليه ..

وقد عاد يومها إلى البيت واحتلى بأخته بثينة التى من المفروض أنها أصبحت صديقة لدبير وطلب منها بعد كلام طويل أن تبدأ هى فى عرض موضوع الزواج على دبير .. وقالت بثينة وهى تنظر إلى أخيها كأنها مشفقة عليه :

— إنى لو بدأت معها هذا الموضوع .. فكأنى أسعى إلى اتفاق بين العائلتين .. وأنت تعلم أن ليس بين العائلتين ما يمكن أن يحقق أى اتفاق أو نسب .. .. أين نحن وأين هم ؟ ..

وقال منير فى رجاء :

— إنك لن تحدثها باسم العائلة .. ولكنها صديقتك وكأنك تداعينها بفكرة خطرت لك كأنك تلتقين نكتة .. إن كل ما أريد أن أعرفه هو وقع هذه النكتة عليها قبل أن أحيلها أنا إلى موضوع جاد ..

وقالت بثينة من خلال ابتسامتها المشفقة :

— إننا لم نصل بصداقتنا إلى حد تبادل النكت .. إنها صداقة لم ترفع الكلفة بينى وبينها فى عالم واحد .. وأنا أذهب لزيارتها فى قصر الروزنامجى فأحس كأنى أمتع نفسى بالجلوس فى حديقة عامة رائعة .. وربما أتى هى لزيارتى فتحس أنها تزور تحفة رائعة من تحف آثار القاهرة .. لا .. لا يمكن أن أفاتحها فى موضوع الزواج .. إن كل ما يربطنا بدبير هو ما بينك وبينها .. هو حيكما .. ولا يستطيع أحد أن يقدر ما يمكن أن يصل إليه هذا الحب إلا أنت وهى .. فابدأ أنت بعرض موضوع الزواج عليها .. وأنت وحدك

الذى تتحمل النتيجة ..

وقال وهو يتهد كأنه هو الآخر يشفق على نفسه :

— هل تعلمين أننا طوال هذه السنوات ، لم نتحدث أبدا عن مستقبلنا معا .. زواج أم حب بلا زواج أم لا زواج ولا حب ؟ ..

وقالت بثينة ضاحكة :

— ليس من حق طالب أن يفاتح فتاة فى موضوع الزواج .. ولو أن صديقتى عليّة تحب فنى لا يزال فى المدرسة الثانوية ورغم ذلك اتفقا على الزواج .. بعد عمر طويل .. وأنت الآن لم تعد طالبا فصارحها لتطمئن وتستريح برسم حياتك ..

ولم يستطع منير أن ينام ليلتها .. إن مسؤولية تحديد مستقبل حبه هى مسؤوليته وحده .. وقام فى الفجر وخرج من البيت وأخذ يطوف بالشوارع وهو تائه حائر إلى أن كانت الساعة الثامنة فذهب إلى دكان نفس البقال وأمسك بالتليفون فى عصبية بعد أن حيا البقال تحية عابرة كأنه لم يعد يمه أن يتبع هذا البقال ما يقوله فى التليفون .. وردت عليه دبير وقال لها فى عصبية ودون تحية الصباح :

— يجب أن أقابلك هذا المساء .. فى الجبلية ..

وقالت دبير فى دهشة :

— ماذا حدث ؟

وقال فوراً :

— ستعلمين عندما نلتقى ..

وقالت فى صوت خافت كأنها حائرة :

— فى الساعة السابعة ..

وكرر وهو نائه :

— في السابعة ..

ثم ألقى سماعة التليفون ..

وقضى يومه وهو يسير على قدميه دون أن يدري أين يذهب .. ودون أن يخطر على باله أن يتردد على الأصدقاء الذي يحاول أن يستعين بهم في تحديد العمل الذي يريد .. كل ما في فكره هو ترديد الكلمات التي سيقولها لدلبر .. وتصور ما سترد عليه به من كلمات ..

إلى أن وقف في انتظارها في شارع الجبلية .. وإلى أن رآها قادمة في خطواتها الرشيقة وقوامها يهتز مع خطواتها كأنه يعرف لحنا هادئا ممتعا .. والتفت يداها بيديه كما تعودا ثم جذبها وجلس بها على السور الذي يمتد مع الشارع مطلا على النيل .. وقال وهو يتسهم ويحاول أن يضغط على أعصابه :

— لقد مضى على أيام وأنا أفكر في موضوع واحد .. حتى تعبت ولم أعد أستطيع أن أستمع في التفكير .. إننا يجب أن نحدد مستقبلنا ..

وقالت دلبر في دهشة بريئة :

— ماذا يشغلنا بالمستقبل ؟ .. مضت سنوات ومستقبلنا مستمر ولن ينقطع لقاءنا أبدا ..

وقال وهو يلتقط يدها ويضغط عليها :

— إن لقاءنا لا نحدد لنا مستقبل .. حتى نثقتنا في عواطفنا ليست هي المستقبل .. المستقبل هو الحياة التي نعيشها معا .. ونحن لا نزال في حاجة إلى تحديد صورة هذه الحياة .. ( وضغط على يدها أكثر وخفت صوته كأنه يتهد فائلا ) .. دلبر .. هل تتزوجيني ؟ ..

واتسعت عينا دلبر من شدة المفاجأة وسكنت فترة ثم قالت وهي تحني رأسها كأنها تسائل نفسها :

— لم لا ؟ ..

وقال بسرعة كأنه كان قد أعد كل كلمة :

— أنت تعرفين الفارق الكبير بين حالتك وحالتي .. أنت من عائلة في منتهى الغنى وأنا من عائلة ليست في منتهى الفقر ولكنها ليست غنية .. وقالت كأنها تطيب خاطره :

— لا بهم .. قلت لك إن المرحوم بابا كان مفلسا عندما تزوج أُمِّي ..

وقال منبر وهو يتسهم متحسرا :

— ولكنه كان ابن عائلة الروزنامجي .. عائلة توازي عائلة أمك .. ولكني أنا من عائلات الأفندية ..

وقالت دلبر وهي يتسهم :

— الدنيا تغيرت .. إن ابنة طبويزة تزوجت من إنجليزي سائق تاكسي ..

قال وهو يقاوم نفسه :

— هل تقبلني العائلة زوجا لك ؟ ..!

قالت في بساطة :

— لا أدري .. اطلبني .. ونرى ما يحدث ..

وقال وهو يلور على وجهها بعينه :

— ولو رفضت العائلة ؟

قالت في هدوء :

— سنفكر فيما نفعله لو رفضت ..

وقال وهو يرخى عينيه كأنه مستسلم :

— ومن أحدثه من أفراد عائلتك ؟

قالت فوراً :

— طبعاً تبدأ الكلام مع أخي كمال .. إنه صديقك .. وهو الوحيد في

العائلة الذى لا يطبق تقاليد زمان ..

وقال وهو لا يزال مبتسماً :

— لقد كنت مقررًا أن أبدأ الكلام فعلاً مع كمال ولكنى أردت أن أسمع

رأيك أولاً ..

إن يحيى باشا الروزنامجى كان قد مات منذ عامين .. وكان منير قد اشترك

في تشييع الجنائز ومواساة كمال .. وإن كان لم يجد كمال حزينا على وفاة أبيه ..

وكان كأن وفاة أبيه حدث طبيعي لا يؤثر في الكون ولا فيه فليس هناك

ما يدعو إلى الحزن ولا حتى إلى كل هذه المظاهر التى اتخذت لتشييع

جثمانه .. ودلبر أيضا لم تكن حزينه على موت أبيها وإن كانت قد حرصت

على ارتداء الثوب الأسود .. رغم أن كمال هو الأخ الأصغر .. إنما لا شك أنه

الأقرب إليه في طلب يد أخته ليتزوجها ..

وذهب إلى الشلة الماركسية التى تجتمع في مقهى الأسيوطى .. وفرح

كمال به كما عوده بالفرحة كلما انضم إلى اجتمع الشلة .. وجلس يستمع إلى

المناقشات دون أن يشترك فيها بل دون أن يبذل جهدا في الاستماع إليها ..

كان ساهما يعد الكلمات التى سيفتح بها كمال بعد أن ينتهى هذا الاجتماع ..

وانتهى الاجتماع .. ومال منير على كمال هامسا :

— أريد أن أدخلو بك .. تعال تمشى وحدنا ..

وقال كمال ضاحكا :

— تعال نذهب إلى بيتنا .. إلى جوعان وأتمنى العشاء .. وتشمشى

معى ..

وقال منير وهو يحاول الضحك :

— تعال أنت معى إلى بيتنا .. وتعرض لمفاجآت أمى عند تقديم العشاء

كما أفاجأ أنا دائما ..

وقال كمال وهو يرد الضحكة :

— لا .. إلى جوعان إلى حد أنى لا أحتمل المفاجآت ..

وركب منير بجانبه في سيارته الصغيرة القديمة التى يتعمد الظهور بها

عندما يكون في الأحياء الشعبية وهو ساخط .. لقد كان يفضل أن يفتح

كمال في الموضوع وهم في مقهى الأسيوطى ، أو وهما يتمشيان حوله .. إن

شخصية كمال تتغير دون تعمد بمجرد دخوله إلى بيته .. إلى قصر

الروزنامجى .. تصبح شخصية أقل تواضعا .. وأبعد قليلا عن الماركسية ..

وكان يفضل أن يحادثه وهو في منتهى التواضع .. وفي منتهى الماركسية التى

تلغى الفوارق عن الطبقات .. وقال منير وكال يقود السيارة .. وكان يتكلم في

لهجة حاسمة جريئة كأنه قرر أن يقتحم الحصن ..

— لن أنتظر حتى أفتح الموضوع ونحن نتناول العشاء .. اسمع يا كمال ..

لعلك لا تعلم أنى وأختك دلبر أصدقاء .. وقد كان يجب أن نطلعك على

هذه الصداقة منذ بدأت كما تفرض الأصول .. وحتى لا أخفى عنك شيئا

لك فيه .. وكأنى أخافك أو كأنى أسرقك .. وقد حاولت فعلاً منذ البداية أن

أصارحك .. ولكن الظروف لم تسمح .. و ..

وقال كمال مبتسماً وكأنه يسخر من منير الذى يعتقد أنه يستطيع أن يخفى

عنه شيئا :

— إلى أعلم بصداقتك لأختي منذ بدأت .. وإن كنت لم أهتم بتتبع تفاصيل هذه الصداقة ..

ودهش منير .. لقد كان كمال يعلم .. وطرده الدهشة وقال وهو يحاول أن يكون هادئا :

— لقد تطورت التفاصيل خلال سنوات .. حتى إلى اليوم أطلب منك يد أختك دلبر ..

وضغط كمال على فرامل السيارة بعنف ووقفت وهي تطلق صوتا عاليا كأنه الصراخ .. ونظرت إلى منير بعينين جاحظتين .. متسائلا وكأنه لا يصدق ما سمعه :

— ماذا تقول ؟

وقال منير وهو يخفي ارتعاشه صوته :

— أريد موافقتك على زواجي من دلبر ..

وهذا كمال قليلا .. وركن السيارة التي يقودها بجانب الرصيف .. واسترخى على ظهر مقعده وقال كأنه ساهم مع فكره :

— هل دلبر موافقة ؟

وقال منير وهو ينظر إلى كمال في عينيهِ كأنه يعلن استعداده لأي مناقشة أو أى تحقيق :

— طبعاً موافقة .. كان لا يمكن أن أطلب موافقتك إلا بعد موافقتها .. وسكت كمال لحظة يجمع فيها فكره ثم قال كأنه يعلن مبدئاً جديداً :

— إن الصداقة بينك وبين دلبر هي موضوع خاص بينكما .. ولكن الزواج موضوع آخر ..

وقال منير مقاطعاً :

— إنها ليست مجرد صداقة .. إنه حب .. حب مضى عليه سنوات .. وقال كمال وكأنه يحاول أن يكتم غيظه :

— حتى الحب .. إنه علاقة بين اثنين .. ولكن الزواج هو علاقة بين هذين الاثنين والمجتمع الذي يحيط بهما .. لذلك فإنني عندما علمت أن بينك وبين أختي علاقة لم أحاول أن أحشر نفسي فيها .. لأنها علاقة خاصة .. وأختي حرة في اختيار علاقاتها .. وحررة أيضاً في الاستجابة لأي علاقة اختارتها مهما تبادت .. ما دامت علاقة ليست عائلتها أو مجتمعها مسئولاً عنها .. أما الزواج فلا يمكن أن ينفرد به الاثنان .. إنه إجراء يؤدي إلى وضع يدخل في اختصاص العائلة كلها والمجتمع كله .. وأنا لا يمكن أن أشارككما في تحمل مسؤولية هذه العائلة وهذا المجتمع ..

وقال منير وهو يحاول أن يهدأ بابتسامته :

— لقد كنت أنت المسئول عن حيننا .. فقد رأيت دلبر أول مرة من بعيد

دون أن أجرؤ على الاقتراب منها .. فقد كنت أقدر أن الفارق الاجتماعي بيني وبينها يحول بيننا إلى الأبد .. لا يمكن أن تجمع ابنة الباشا بابين الأندلسي على أمل واجد .. حتى ولو كان مجرد أمل الحب .. هكذا كنت مقتنعاً .. وكان لا يمكن أن أصل حتى اليوم بعلاقتي بدلبر إلى أكثر من الإعجاب من بعيد .. ولكنك ناديتني وتعرفت لي .. وأحسست منذ اليوم الأول أن المجتمع يمكن أن يجمع بين أولاد الباشوات وأولاد الأندلسية .. أفتعنتي منذ البداية بإزالة الفوارق بين الطبقات ولو عن طريق الماركسية .. فدفعني ماركسيته إلى جرأة الإقدام على التقرب من أختك دلبر .. وربما هي أيضاً لم تقبل جرأتني إلا بعد أن رأيتني معك .. فأنت المسئول .. وإذا كنت مسئولاً عن تحقيق حيننا فأنت مسئول عن تحقيق النتيجة الطبيعية لهذا الحب .. أى تحقيق الزواج ..

وقال كمال ساخرا :

— إنى لم أحاول إقناع المرحوم أبى أو إقناع أمى أو إخوتى مبادئ الماركسية أو بالجميع الماركسى .. ولا حتى إقناع دلبر رغم أنها أقرب إخوتى إلى .. لأنى أعلم مقدما أن لا أمل فى إقناعها .. ولذلك لن أحاول إقناعهم بأن تتزوج دلبر ..

وقال منير كأنه يلومه :

— ولكنك أقنعت نفسك بالماركسية .. ويمكنك إقناع نفسك بزواجى

من دلبر ..

وقال كمال كأنه وصل إلى حد المصارحة التامة :

— إنى مقتنع بالماركسية ولكنى لا أعيشها .. إنى لا أزال أعيش المجتمع الطبقي بكل ما فيه .. أعيش فى قصر الروزنامجى .. فى انتظار أن تقوم الثورة الماركسية الشاملة .. وبعدها أعيش .. أعيش الثورة .. وتستطيع أنت ودلبر أن تنتظرا الثورة ثم تتزوجا بعدها ..

وصاح منير كأنه لم يعد يحتمل :

— إن هذه الثورة لا تزال وهما .. ونحن لا نستطيع أن نعتمد على

الأوهام .. نريد أن نعيش الواقع ونتزوج ..

وقال كمال وهو يتنحج كأنه يقاوم نفسه :

— ليس أمامكما إلا أن تتحملا شرعية زواجكما وحدكما كما تحملا

مسئولية الحب .. ولن أتدخل ما دامت دلبر موافقة على ما يتم بينكما ..

كأن كمال يترك له حرية الزواج من أخته دون موافقة العائلة ولا موافقته ..

كأنه يحرضه على الهزوب بأخته .. لا .. لا يمكن .. إنه يتزوج دلبر لأنه

يحبها .. ولكنه لا يتزوجها إلا وعائلتها أيضا تحبه وتعتر به وبأنه يشرفها أن

يتزوج ابنتها .. إنه فقير ولكنه أنظف وأقوى من عائلة الروزنامجى ..

وقال منير وهو يحنى رأسه بأسى ويمد يده إلى مقبض السيارة :

— لا أدرى ما يمكن أن يتم بينى وبين دلبر .. لقد علقنا كل آمالنا

عليك .. واسمح لى .. إنى لا أستطيع أن أتناول معك العشاء ..

وقتح باب السيارة ونزل منها وكال يصيح وراءه ضاحكا ضحكة مفتعلة :

— إنك ترحمنى من هذا الموضوع حتى أستطيع أن أشبع بطنى بطعام

العشاء فأنى أكاد أموت جوعا .. مع السلامة ..

وانطلق كمال بسيارته بسرعة كأنه يقفز بها بعيدا عن منير .. وسار منير

طويلا كعادته دون أن يحس بثقل قدميه .. ودخل البيت وألقى بنفسه على

فراشه دون أن يفكر فى النوم .. وعقله لا يرتاح من التفكير فى الماضى

والحاضر والمستقبل .. وتطوف به ابتسامات ساخرة .. إن الماركسى يرفض

أن ينقل أخته من طبقة إلى طبقة .. إنه مهما تهادى فى ماركسيته فهو أساسا

ابن باشا ويرفض أن يناسب الأفندية ..

وفى صباح اليوم التالى اتصل بدلبر فى التليفون دون أن يهتم باختيار المكان

الذى يتحدث منه وقال لها فوراً :

— لقد التقيت أمس بأخيك وحدثته فى كل شىء ..

وقالت فى بساطة دون أن يبدو فى صوتها رنة نائرة ولا حتى آسفة :

— أعلم .. وأعلم أنه رافض .. لقد حدثنى طويلا ليلة أمس ..

قال وهو لا يقدر أنه يتحدث فى التليفون وإن كان حريصا على صوت

خفيض :

— لقد طلب منى أن تتحمل مسئولية الزواج وحدنا ..

وقالت ساخرة :

— إنه يطلب المستحيل .. فهي حياة لا نستطيع أن نتحملها  
وحدنا ..

وقال بسرعة وهو يلهث :

— إن الحب قد يصل أحيانا إلى درجة الجنون ..

وقالت كأنها تضحك :

— لننتظر إلى أن نحين .. وسأراك غدا ..

وترك التليفون بعد أن اتفقا على موعد ومكان اللقاء .. شارع الجبلية  
أيضا .. وفي نفس اليوم فوجئ بكمال يمر عليه في بيته وينظره في سيارته بعد  
أن أرسل إليه ابن البواب .. ونزل إليه وصافحه في برود وجلس بجانبه  
صامتا .. وقال له كمال وهو يحلق في وجهه بكل عينيه :

— إنى أعتبر الموضوع الذى تحدثنا فيه أمس قد انتهى .. وقد تركت لك  
الحرية الشخصية التى أعرف أنك تؤمن بها .. وهناك الآن موضوع فى  
منتهى الأهمية .. إن خطاب بك عضو مجلس الشيوخ سيقدم مشروعا  
بتحديد ملكية الأرض الزراعية بخمسين فدانا .. ونحن طبعاً نؤيد هذا  
المشروع ونبذل كل جهدنا فى فرضه .. وقد اتصلنا بخطاب بك واتفقنا على  
الكثير مما يجب أن نقوم به .. وأنا أعرف أنك صديق لبعض الصحفيين  
وأتمنى لو استطعت أن تجندهم فى خدمة المشروع .. إنه ليس مشروعا  
ماركسيا حتى تعتذر كعادتك عنه ولكنه لا شك خطوة نحو الماركسية ..  
وقال منير ساخرا وبلا اهتمام بعد أن تعب فى الاستماع إلى كمال :

— إنه مشروع وهمى .. لعله مجرد دعاية يقوم بها صاحبه لنفسه .. فإن  
كل أعضاء المجلس يملكون أكثر من خمسين فدانا ولا يمكن أن يقبل واحد  
منهم التنازل عن شبر واحد من أرضه ..

وقال كمال فى حماس :

— حتى لو كان مجرد دعاية .. فهي دعاية لنا ..

وقال منير وهو يتلفت إلى الطريق الذى يقود فيه كمال السيارة :

— إلى أين ؟

وقال كمال فى بساطة :

— إن الشلة تنتظرنا فى مقهى الأسبوطى ..

وقال منير فورا وبخلة :

— آسف لن أستطيع أن أحضر اجتماع اليوم ..

ولم يجادله أو يتحائل عليه كمال وقال فى بساطة :

— سأعود بك إلى بيتك ..

وقاطعه منير بسرعة :

— لا .. سأتركك هنا ..

وأوقف كمال السيارة بلا تردد وهو يقول له :

— مع السلامة .. يجب أن أراك غدا لتتفق على ما نفعله ..

وقال منير وهو ينزل من السيارة :

— بإذن الله ..

وانطلق كمال بالسيارة وهو يلوى شفتيه .. ما دخل إذن الله هنا ؟ .. إنه  
إذن منير نفسه .. إنه لا يحتمل ذكر الله حتى فى هذه الكلمات الروتينية ..  
وسار منير وهو مقتنع بأن كمال لم يأت إليه لأهمية المشروع الجديد .. إنما  
أتى ليطمئن إلى استمرار صداقته بعد الحديث الذى جرى معه أمس ..  
ورغم ذلك لم يكن كمال صادقا عندما قال إنه ترك الحرية له ولأخته ليتحملا  
مسئولية ما يريدان .. وكان قد مضى حوالى ثلاثة أسابيع فى لقاءات بين منير

ودلبر .. لقاءات في كلام لا يصلان به إلى قرار . كان منبر أيضا لم يصل به جنون الحب إلى حد أن يقدم على تحمل مسؤولية الزواج وحده .. إلى أن التقيا آخر مرة .. وقالت له دلبر في رجاء :

— أرجو أن تفهمنى عندما تفاجأ بما سأقوله لك ..

وقال مبتسما في مرح :

— إنى افهمك أبعد مما أسمعك منك ..

قالت وهي ترحى عينها :

— لقد قبلت أن تعلن خطوبتى ..

وفغر فاه من دهشة المفاجأة وقال كأنه لا يصدق أذنيه :

— خطوبتك إلى من ..

وقالت في بساطة :

— إنى اعرف أنك تعرفه .. إنه عادل السلانكلى ..

واتسع فمه الذى تعرفه الدهشة .. إن هذا السلانكلى هو أتمفه شخصية في الشلة الماركسية .. إنه بلا شخصية رغم أنه ينتمى إلى هذه العائلة القديمة سليله الغزو التركي فهو يملك مئات الأفدنة .. إنه دائما مستسلم استسلاما كاملا لصديقه كمال الروزنامجى ويردد كلماته كالبيغاء .. كل الشلة تعرفه وتعامله على أنه تافه .. وهو شخصيا لا يطيقه ويرد عليه عندما يحاول أن يثر معه مناقشة باحتقار شديد ..

وصاح منبر في وجه دلبر :

— لماذا اخترت هذا التافه ؟ ..

وقالت دلبر وعيناها معلقتان في عيني منبر :

— إن أحدى كمال رشحه لى .. وقبلت لأنى أعرف عنه أنه سهل ..

وقال ساخطا :

— ماذا تقصدين بأنه سهل .. ؟

قالت مبتسمة وهي تقترب منه أكثر :

— إنى واثقة أنه لن يمس حرىتى .. أنت تعلم أنى رفضت كل من

رشحوه لى حرصا على حرىتى ولكنى وصلت إلى اليأس من أن أتزوجك

أنت ووجدت عادل السلانكلى لن يؤثر فى حرىتى معك .. فقبلت ..

وقال من خلال سخطه :

— ستكونين لرجل آخر فماذا تفعلين بمررتك معى ؟ ..

وقالت كأنها تنطلق فى فرحة :

— ستكون حرية أوسع .. ستتصل لى كل يوم فى التليفون دون أن تنقيد

بموعد الساعة الثامنة صباحا .. وسنلتقى دون أن تنقيد بشارع الجبلية ..

ربما أصبح لنا مكان نتمتع فيه بحرية الحب .. إنى لم أقبل الزواج بعادل إلا بعد

أن اطمأننت على حياتى معك ..

وقال ساخرا :

— طبعاً .. صاحبة السمو الأميرة من حقها وهى زوجة أن تختار

الشماشرجى والسائق والسفرجى وأيضا تختار المرافق .. وشكرا لأنك قررت

أن أكون مرافقا لسيادتك .. رفيق .. عشيق ..

وصاحت دفاعا عن نفسها :

— لقد قررت أن أعيش الحب .. وأنا أحبك ..

وقال كأنه يحادث نفسه :

— إن الحب يحصن نفسه ولا يسمح لرجل غريب أن يدخل فيه ..

كيف يكون الحب وأنت لرجل آخر وأنا لامرأة أخرى ؟ ..

وقاطعته وكأنها تتوسل إليه أن يفهمها :



— كُن واقعياً .. لقد حاولنا أن نتزوج ولم نستطع .. وانتظرنا أن نحج  
حتى نتحدى العائلة وكل المجتمع ونحمل المسؤولية وحدنا ولكننا لم نحج ..  
ولم يبق لنا إلا أن نستسلم للواقع ونحتفظ في الوقت نفسه كل منا بالآخر ..  
نحتفظ بالحب ..

وقال في هدوء كأنه يرثي نفسه :

— إن واقعي يختلف عن واقعك .. إنى لا أعتقد أن هذا طريق الاحتفاظ  
بالحب .. إنه طريق تشويه وتلوين الحب .. فالحب ليس مجرد لقاء ولكنه  
حياة .. وقد كنا نلتقي في انتظار أن تبدأ حياتنا .. حياة الحب .. ولكنك  
خنت الحب وتريدين أن تنتقلي بجمته لا إلى قبر بل إلى فراش يجمعنا حولها ..  
حول الجثة ..

وقالت وكأنها بدأت تياس :

— إن الواقع هو الذي يفرض علينا شروطه .. ومن حقنا أن نتحايل على  
هذه الشروط حتى لا نكون عبيدا .. إننا أحرار .. وأنت تؤمن بالحرية ..  
وقال فوراً وفي لهجة حادة كأنه يلقي عليها درساً :

— الحرية مذاهب تشمل كل ما في الحياة .. فالقاتل حر .. واللص  
حر .. والزانية حرة .. كما أن الماركسي حر .. والرأسمالي حر .. ونحن مختلفان  
في اختيار مذهب الحرية ..

ولم ترد .. سكنت باليأس ينهار بها ..

وعاد يقول في لهجة حاسمة :

— هل أنت مصممة على هذا الزواج ؟ ..

وقالت دون أن تنظر إليه :

— إنى مقتنعة إلى حد التصميم ..

وقال في حدة :

— إذن لا تسأليني شيئاً .. ولن أسألك شيئاً .. ولتترك المصير  
للقدر .. ومع السلامة ..

وهم أن يتحرك مبتعداً عنها .. فصاحت به :

— أئن تسير معي حتى آخر الشارع ؟ ..

قال في جفاء :

— تقدميني .. وسأكون خلفك ..

وصاحت في غيظ :

— لا أريدك أن تسير معي ولا خلفي .. اذهب أنت ..

وتقدمها مبتعداً عنها .. ولكنها عندما بدأت بعد دقائق تسير في الشارع  
خافت الضوء كان لا يزال محتبباً خلف شجرة ليطمئن عليها حتى تصل إلى  
بيتها .. إلى قصرها ..

وهو وحده تعصف به الزوابع .. إن كمال هو الذي حرض أخته على  
الزواج من السلانكلي .. ربما لأنه من أعضاء الشلة الماركسية ومستسلم له ..  
ربما لو كان هو قد انضم إلى الشلة كان هو الذي اختاره كإل لأخته .. ولكن  
لا إن كمال لم يختر السلانكلي لأنه عضو الشلة .. عضو الحزب .. ولكن  
لأنه من عائلة السلانكلي .. عائلة موازية اجتماعياً لعائلة الروزنامجي .. إن  
أساس شخصية كمال ليست قائمة على أنه ماركسي ولكنها قائمة على أنه ابن  
ذوات ..

وفي صباح اليوم التالي لم يبحث منير عن تليفون ليتصل بدليلر .. مر أكثر  
من أسبوع وهو لا يتصل بها .. كان قد قرر أن يقضى على كل ما بينه  
وبينها .. يقضى على حبه مهما عانت عواطفه ومهما عانى من حرمان .. إنه

لن يحتمل ما تعدده به دلبر .. إنه طريق لا يستطيع أن يعيش فيه .. إنها لم تكن بالنسبة له مجرد امرأة يشتهيها حتى يقبل وعدها بإشباع شهيته .. كانت بالنسبة له حياة كاملة .. وقد انتهى الأمل في هذه الحياة .. ويجب أن يستسلم لليأس ..

وفوجئ بعد أن مرت الأيام بسيارة دلبر تصل إلى البيت ويصعد السائق ويسلم خطابا منها إلى أخته بثينة ..

إنه خطاب قصير مهذب بكلمات فرنسية ترجو فيه دلبر صديقتها بثينة أن تبلغ أباها بانتظارها أن يتصل بها بالتليفون ..

وتردد .. لن يحدثها بالتليفون .. وأختها بثينة تلح عليه .. إنها تؤيد أن يهجر حبه لها .. فهي أيضا متأكدة بأنه حب بلا أمل .. ولكن ليحدثها في التليفون بلا حب ..

وفي نفس موعد الثامنة صباحا حادثها في التليفون وهو يضغط على كل أعصابه المرعشة .. إنه يحبها .. ولكن يجب أن يقاوم هذا الحب ويبدو قويا وهو يحدثها .. وقال فورا بمجرد أن سمع صوتها :

— هل حدث جديد ؟ ..

وقالت وصوتها ينبض مع قلبها :

— أي جديد تقصد ؟ ..

قال في حدة :

— جديد بالنسبة لزواجك ؟ ..

قالت في رنة إغراء :

— لم يحدث جديد .. ولكنني أريد أن ألقاك ..

قال في حسم :

١٣٠

— لا داعي لأى لقاء ..

قالت كأنها ترجوه :

— مهما حدث بيننا فإن هناك ما يمكن أن يستمر إلى الأبد ..

صداقتنا ..

وقال بسرعة :

— إننا في حاجة إلى مدة طويلة حتى يتحول كل ما كان إلى مجرد

صداقة .. مع السلامة ..

وتركها .. وعاد يعيش معاناة قاسية وهو يقاوم كل ذكرياته وآماله ..

لا أحد ممن يعرف منير يتصور أنه يربط نفسه بالمبادئ العامة إلى هذا

الحد .. الشرف .. الأصول .. الشرع .. التسامى .. حتى الذين كانوا

يعتبرونه أنه مجرد متفرج على كل ما يجري في الحياة لا يعلمون أن هناك

نواحي في الحياة يرفض التفرج عليها .. إنه إلى اليوم ورغم أنه وصل إلى

الخامسة والعشرين لم يتفرج على امرأة يمارس الجنس معها .. حتى في صباه

عرض عليه صديقه محمد عبد الله عبد اللطيف أن يذهب معا إلى وش البركة

ليمارسا الجنس مع إحدى البغايا المحترقات .. فرفض رغم أن صديقه وعده

بأن يدفع له العشرة القروش التي كانت تأخذها البغي .. إنه إلى اليوم لا يزال

من هذه الناحية بكرا .. وعندما غلبه حبه للدلبر كان كل ما أباحه لنفسه

معها هو القبلات .. وكان قادرا دائما على أن يقاوم ما هو أكثر .. ولا يمكن

أن يقبل أن يصل إلى ما هو أكثر بعد أن تزوجت دلبر رغم أنها تقول إنها

تزوجت لتصل معه إلى هذا الذي هو أكثر ..

وكال يتردد عليه .. بل إنه كأنه يعتمد أن تتلاحق لقاءاته به .. ومنير

يرفض أن يصحبه في اجتماعات الشلثة .. بل ويرفض أيضا أن يلتقى به في

قصر الروزنامجى .. إنما يكتفى أن يطوف معه بالسيارة في الشوارع .. أو يجلسا فترة في مقهى آخر غير مقهى الأسيوطى .. ويدعوه منير أحيانا إلى زيارته في بيت العائلة ليقدّم له القهوة أو الشاي أو زجاجة الكازوزة ولم يعد يدعوه إلى الغداء أو العشاء .. فمنير أصبح يكره أن يحس ويواجه الفارق بين ما يستطيع أن يقدمه على مائدته وما يستطيع كمال أن يقدمه على مائدة الروزنامجى .. ولو أن كمال يتعمد أن يثبت عدم اعترافه بهذه الفوارق إعلانا لمذهبه الماركسي ..

وفي كل هذه اللقاءات لم يكن الحديث يشمل من بعيد أو قريب أى إشارة إلى مصير موضوع دلبر .. إلى أن مضى حوالى ثلاثة شهور وقال له كمال في لقاء :

— هناك حدث يجب أن أصارحك به .. فصدقتنا أقوى من كل الأحداث .. خصوصا وأنه حدث عادى طبيعى .. إن أختى دلبر ستزوج صديقنا عادل السلانكى ..

وقال منير وهو يضغط على أعصابه :

— أعرف ..

وقال كمال في دهشة :

— كيف عرفت .. ؟

وقال منير في بساطة وكأنه لم يعد هناك شيء يخفيه :

— دلبر قالت لى ..

وابتلع كمال ريقه كأنه يتلعق حيرته في كيف يعلق على اتصال أخته به ثم قال وهو يتعطل البساطة أيضا :

— إن الزفاف يوم الخميس القادم .. وأنت مدعو .. قد تعود إلى البيت

فتجد الدعوة في انتظارك ..

وقال وهو ساهم :

— يشرفنى .. ومبروك لأختك وصديقنا عادل وأنت وكل العائلة ..

وتركه بسرعة لينفرد بما يعانیه بعيدا عنه ..

وفي اليوم التالي جاءت سيارة الروزنامجى وصعد السائق ليبلغ أخته بشينة أن دلبر هام ستأتى لزيارتها في الساعة الخامسة .. تحيى إليه وهو رافض أن يذهب إليها .. وتحيى إليه قبل الزفاف لعل الشوق يكون قد تغلب عليه فيقبل ما عرضته عليه .. أن يستمر لقاؤهما .. أن يستمر حبيهما ..

وخرج من البيت مصمما ألا يعود ويراها .. وجاءت دلبر بحجة دعوة أخته بشينة وأفراد العائلة إلى حفل الزفاف .. ولم تستمر الزيارة طويلا بعد أن اكتشفت أن منير ليس في البيت .. وخاب أملها في أن يكون قد تعمد انتظارها ..

ورفضت العائلة كلها الدعوة .. ليس بين العائلتين ما يبرر أن يشتركا في فرح .. وقالت له أخته بشينة :

— لا أريد أن أتفرج عنهم أو يتفرجوا على ..

وقالت أمه ضاحكة :

— إنه فرح يجب أن تذهب إليه كل بنت بفستان جديد فلنوفر نحن وهدوشة الفساتين ..

ولكن منير ذهب هو وحده إلى حفل الزفاف ..

ذهب وكأنه مصمم على تحدى دلبر وإقناعها بأن الأمر لم يعد مهمه .. إنه حفل كبير يتزاحم فيه المدعوون من رجال ونساء وجمع أغلب باشوات مصر من رجال حزب الوفد .. وجمع أيضا كل أفراد شلة كمال الماركسية ..

كان أول ما طرأ على بال منير بعد أن تخرج وحصل على الليسانس هو أن يكون وكيلًا للنيابة .. فأبوه يتمنى أن يتفاخر ويتباهى بأن ابنه وكيل للنيابة .. وهو قد حصل على مجموع يؤهله ليكون وكيلًا للنيابة وله من المعارف ممن يمكن أن يعتمد عليهم في السعي للوصول إلى هذه الوظيفة .. ولكنه كان في قرارة نفسه لا يريد أن يكون وكيلًا للنيابة .. حتى لو كان قد تخرج وهو من الأربعة الأوائل لما تمنى أن يكون معيدًا في الجامعة ليصل إلى درجة أستاذ .. إنه لا يريد أن يكون موظف حكومة .. ولن يطيق أن يعيش حياته كموظف .. إنه يتمنى أن يعيش محتفظًا بحريته .. حتى حرية أكل العيش .. والطريق الوحيد الذي يضمن له هذه الحرية هو أن يتفرغ للمحاماة .. وفي الوقت نفسه لا يشعر برغبة في الاستمرار في دراسة القانون حتى يحصل على الدكتوراة كما يلح عليه أبوه وكل معارفه بعد أن عرفوا عنه تفوقه في الدراسة .. إن أغلبية ثقافته حصل عليها من خارج الجامعة .. حصل عليها من إطلاق حريته في اختيار ما يقرؤه .. لم يكن أبدًا يحصر نفسه داخل قراءة مقررات الجامعة متخصصًا في دراسة القانون .. لقد بنى شخصيته على حرية التفرج على كل ما في الحياة من أفكار وآراء سياسية وأدبية واجتماعية واقتصادية .. وهي حرية تضمن له أن يستفيد بها في بناء نفسه أكثر مما يستفيد لو تفرغ للحصول على الدكتوراه .. ولقد استطاع أن يقنع أباه بأمنيته التي يريد أن يحققها لنفسه .. وربما لم يقتنع الأب ولكن حبه لابنه وثقته فيه كانت تدفعه في النهاية للاستسلام له

بل إنه دعى عبد الباسط الذي يقوم على خدمتهم في مقهى الأسيوطي .. ومنير محشور وسط الزحام صامتًا .. إلى أن بدأت الزفة ودخلت العروس تتأبط ذراع العريس .. ولا حظ منير أنها وهي تحطو نحو الكوشة تلتفت بين المدعوين كأنها تبحث عن واحد .. ربما كانت تبحث عنه .. وابتسم ساخرًا من نفسه .. إنه لا يمكن أن يخاطر على بال دالر في زفافها .. لعلها تلتفت فقط لتعرض على الناس ابتسامتها الحلوة ..

ووقف العروسان في الكوشة والمدعوون يمرون بهما ويهتفون .. وتعمد أن يصل إليها .. وحاول وهو يضافحها أن يقول مبروك .. ولكنه لم يستطع .. ولمس يدها لمسة سريعة كما لمس يد السلانكلي .. ودون حتى أن يرفع عينيه إلى عينها .. وقبل أن يخطفو سمعها تقول :

— أين بيثينة ؟ ..

ورفع عينيه إليها .. إن عينها تحملقان فيه كأنها تريد أن تلتقي نفسها عليه .. ولكنه أرخى عينيه عنها وخطا دون أن يرد عليها .. ثم سار بزاحم حتى يخرج من القصر كله دون أن ينتظر كما هو المفروض لسمع غناء أم كلثوم ..

وعاد إلى البيت كأنه يلقي بنفسه في جحيم معاناته .. إن جحيم الآخرة أخف من جحيم الدنيا .. وقد انتقل بحبه إلى الآخرة .. وبعد يومين من الزفاف سافر كمال إلى لندن ليتم دراسة الماركسية كما يقول ..

وقد ارتاح لسفره ..

ارتاح من كل عائلة الروزنامجي ..

ولكل ما يريده .. وربما زاد اطمئنانه عندما علم أن ابنه سيقضى فترة التمرين في المحاماة التي تنص عليها الإجراءات في مكتب الأستاذ المحامي الكبير عبد الهادي مرعي .. إنه من أكبر المحامين في مصر ومن أكثرهم احتراما .. وهو محام ليس له حياة سياسية .. ليس عضوا في حزب من الأحزاب .. ولا يعتبر نفسه سياسيا مستقلا .. ولم يقبل أن يكون وزيرا رغم كثرة المرات التي عرضت عليه الوزارة مع الإلحاح الشديد .. إنه أستاذ متفرغ للمحاماة .. وإن كانت مرافعاته أمام المحاكم في القضايا التي يقبل الترافع فيها تدوى كلماتها شعبيا وتؤثر في كل المجالات السياسية .. حتى إن كثيرا من كلماته تردد كأنها شعارات .. وقد كان منير معجبا بل مبهورا بالأستاذ مرعي منذ كان طالبا .. وقد سبق أن جمع اثنين من زملائه الطلبة والتقوا بالأستاذ مرعي ليأخذوا رأيه في مشكلة من مشاكل القانون الذي يدرسونه .. واستقبلهم بما هو معروف عنه من بساطة وأبدى إعجابهم يومها بطريقة عرض منير لأرائه القانونية .. وهو ما شجع منير على أن يطلب لقاءه مرة ثانية بعد فترة طويلة .. وفرح بأن الأستاذ لا يزال يتذكره .. ولم يتردد الأستاذ بعد أن تخرج منير في أن يقبله تحت التمرين في مكتبه ..

وأصبحت كل حياته داخل مكتب الأستاذ مرعي .. كان يذهب في الصباح الباكر لينتظر الأستاذ ثم يذهب معه إلى المحكمة أو يكلف بالذهاب إلى محكمة أخرى ليؤدي إجراءات سهلة كطلب التأجيل .. ثم يعود إلى المكتب ويبقى فيه إلى المساء ويقوم بكل ما يطلب منه أو ما يسعى إلى القيام به حتى بدأ يعرف عنه الأستاذ وبقية زملائه المحامين في المكتب قدرته الرائعة على كتابة المذكرات القانونية .. وإن كان قد احتاج إلى فترة طويلة قبل أن يعرف بأنه يجيد الترافع أمام المحاكم .. إن المرافعة هيلقاء خطاب أمام

القضاة وجمهور المحكمة وهو لا يبوى الخطابة ولم يحاول منذ كان طالبا أن يكون خطيبا .. لذلك ظل طول حياته متفوقا في كتابة المذكرات عن تفوقه في خطب المرافعات .. وبجانب كل هذا أصبح معروفا بالجهد الكبير الذي يبذله في عمله حتى كان الحاسدون يقولون عنه إنه حمار شغل ..

وكانت الفرحة الكبرى التي أحاطت به منذ احترف المحاماة هي فرحة صديق العمر عبد الله عبد اللطيف .. لقد أصبح يستقبله في المحل بترحاب كبير كأنه يستقبل شخصية رسمية .. حضرة المحامي .. ويتباهى به أمام كل أهل الحى وأصحاب الدكاكين ومن يعرفهم من جماعة الإخوان المسلمين .. وأصبح يسعى ليحبل عليه كثيرا من القضايا .. حتى الأستاذ منصور أحمدين عضو الإخوان أصبح يعهد إليه بقضايا بينها قضايا سياسية للإفراج عن يقبض عليهم من الإخوان .. وهو يختار في قبول مسؤولية هذه القضايا .. لا شك أنهم لم يلجئوا إليه إلا لأنه يعمل في مكتب الأستاذ عبد الهادي مرعي .. والأستاذ مرعي يقبل القضايا نظير أتعاب ضخمة .. وهو لا يستطيع أن يفرض عليهم نفس الأتعاب .. كما أنهم يلجئون إليه ليدفعوا أتعابا أقل جدا .. وكان يحاول أن يقنعهم بأن ليس من حقه بعد قبول قضايا باسمه لأنه لا يزال تحت التمرين .. ولكنهم كانوا يصرون حتى بدأ يغلبه التأكد بثقتهم فيه وتقديرهم له .. ويزداد حيرة .. إلى أن حل له المشكلة الأستاذ مرعي نفسه ..

كان الأستاذ مرعي قد أظهر تقديره للجهد الذي يبذله منير في عمله بعد فترة قصيرة من انضمامه إلى مكتبه .. فخصص له منذ الشهر الأول عشرة جنيهات كمكافأة شهرية .. وقد فرح بهذه الجنيهات العشرة فرحة هائلة .. كانت أول جنيهات يكسبها بنفسه ويحصل عليها بعمله .. وقد حملها كما هي

وذهب بها إلى أبيه ووضعها في يده دون أن يتكلم .. وفرح أبوه واحتضن ابنه إلى صدره .. لقد بدأ ابنه يكسب ويتحمل مسؤولية نفسه .. وابتعد الأب قليلا ثم عاد وأعاد العشرة الجنيات إلى يد ابنه بعد أن أضاف إليها جنبيين .. ومال منير يقبل يد أبيه .. إنه صاحب الفضل عليه وسيبقى دائما صاحب الفضل .. وعرفت الأم وأخواته البنات بأنه حصل على أول كسب في حياته فهللت مباركات صائحات ضاحكات .. لم يكن ينقصهن إلا إطلاق الزغاريد .. وصاح فبين منير :

— كل واحدة تحمد الهدية التي تريدها .. ما عدا أمي فأنا الذي سأختار

لها ..

واشترى لكل أخت ما تريده كهدية واشترى لأمه طرحة غالية توضع على الرأس كان منذ سنوات قد سمعها وهي تبدي إعجابها بها عندما رأتها على رأس إحدى صديقات العائلة .. وكانت فرحة استمرت أياما .. كأنه زف إلى عروس .. زف إلى الحياة ..

ولم يلبث الأستاذ عبد الهادي مرعى بعد فترة قصيرة أن رفع مكافأة منير إلى خمسة عشر جنيا في الشهر وإعجاب به يتزايد .. إلى أن اكتشف حيرته مع القضايا التي نجىء إليه وكيف يعهد بها إلى المكتب .. فتاده في جلسة خاصة وقال له :

— إن كل القضايا التي تصل إليك مباشرة اعتبرها قضايا خاصة بك .. وتحمل وحدك كل مسؤوليتها .. وأعطيك الحق في أن تتقدم بها إلى القضاء باسم المكتب .. أى باسمي .. دون أن تعرضها على .. ودون أن يكون للمكتب أتعاب فيها .. وأنا واثق أنك تستطيع أن تجمع بين قضايا المكتب والقضايا التي تخصك ..

وعجز منير عن إيفاء الأستاذ حقه من الشكر .. إنه أستاذ عظيم يتعهد بناء مستقبل الشباب كأنه يبنى مستقبل مصر ومستقبل المهنة بعده .. وأصبح منير يتلقى القضايا الخاصة التي يحرص صديقه عبد الله على إرسالها إليه .. ولم يكن يهتم بتحديد أتعابه مقدما .. إنه يقبل أى مبلغ يريد صاحب القضية أن يدفعه له .. إلا طبعا قيمة الرسوم عن القضايا فلم يصل إلى حد التبرع بها ويفرض على المتقاضى دفعها .. ورغم ذلك بدأ يجمع إيرادات كبيرا من هذه القضايا .. ليس إيرادات محام كبير .. ولكنه إيرادات أكبر مما كان يريده في سنوات البداية بالنسبة لنفسه .. خصوصا وأنه لا يزال تحت التمرين ..

وكان تفرغه لعمله في المحاماة يشغله عن مجرد خاطر يخطر له ويحمل صورة حبيبته التي تخلت عنه وتزوجت غيره .. دلبر .. ورغم ذلك فكان يعود إلى البيت ويلقى نفسه على السرير متعبا فلا يغمض عينيه إلا بعد أن تمر عليه صورة دلبر .. إنها لا تزال تعيش فيه .. وكان بعد سفر أخيها كمال قد انقطع نهائيا عن شلة الماركسية .. لم يحدث إلا أن خليل عضو الشلة والذي كان زميلا له في المدرسة الثانوية قد اتصل به مرة في تليفون مكتب المحاماة فلم يشجعه على لقاء .. وكانت المحاماة قد فتحت له مجالاً أوسع في الفرجة على الحياة التي تسيطر على طبيعته .. إن القضايا فرجة .. وأصحاب القضايا فرجة .. والمواضيع التي تثار في المكتب تشده إلى مواضيع خارج المكتب .. وقد وجد نفسه مشغولاً أكثر إلى مجالات كل الأحزاب السياسية التي تتبادل حكم مصر .. لم يعد يحرص اتصالاته بشلة الماركسية وجماعة الإخوان .. ولكنه أصبح له القدرة على الاتصال بكل الحركة السياسية .. ولكنه كان يفضل أن يكون اتصاله بشباب هذه الحركة .. إنهم يمثلون الجيل

الجديد الذى يجمعهم به .. فيصبح من السهل أن يفهمهم وأن يفهموه .. حتى الخلافات والمناقشات التى تثور داخل الجيل الواحد يمكن أن تستمر مع الفهم .. وإن كان قد أصبح معروفا عنه أنه هادئ في مناقشاته ولا يصل بها أبدا إلى حد إثارة خنافة سياسية .. كما أصبح معروفا عنه أنه لا يقبل الانضمام الكامل إلى أى حزب أو تجمع أو شلة .. إنه فقط يؤيد عن إيمان حرية الجميع محتفظا هو الآخر بحريته .. وكان يؤمن أيضا بأن الجيل الجديد يجب أن ينفرد بالمسئولية وحده .. إن سر تشتت وضياح الحركة السياسية كلها أن الجيل الجديد لا يزال تحت قيادة الجيل القديم .. ربما لو كان الأستاذ منصور أمهدين عضو الإخوان المسلمين من نفس جيله لانتفع بما عرضه عليه من أن تكون الجماعة حزبا سياسيا .. ولكنه من الجيل القديم ..

وفوجئ منير وهو يعيش هذا الزحام فى عمله وفى أفكاره وفى مجالات الفرجة بخطاب يصل إليه من لندن .. من صديقه كمال الروزناجى .. إنه هو الذى حرض أخته على أن تتزوج غيره ورغم ذلك فهو لا يزال مصرا على الارتباط به .. وهو خطاب طويل يحدته فيه عما اكتشفه بدراسته فى كمبودج من تفسيرات جديدة للماركسية .. ويحدثه عن تطورات التنظيمات الماركسية فى بريطانيا وغيرها .. وابتسم منير وهو يقرأ كمتفرج .. إن الحركة الماركسية تنشط وتنتشر فى مصر أيضا حتى إن سفير مصر فى موسكو البندارى باشا قد أعلن عن ماركسيته وأصبح يسمى الباشا الأحمر .. إن كمال عندما يعود سيجد المجال أمامه أوسع مما تركه وربما أصبح يسمى هو الآخر .. ابن النوات الأحمر .. أو الروزناجى الأحمر ..

وجلس يكتب ردا على خطاب كمال .. إنه هو الآخر لا يريد أن يفقد صداقته ورغم كل ما ناله من طغيانه .. طغيان طبقة أولاد النوات رغم أنه ماركسى ..

ثم فوجئ مفاجأة أكبر عندما اتصل به عادل السلانكى بتلفون المكتب .. ماذا يريد منه هذا الحقير ؟ .. أنه يعلم أنه يخترقه حتى من قبل أن يتزوج دلبر .. فماذا يريد منه ؟ .. وقال له السلانكى فى صوت طبيعى : — إن عندى قضية .. وقد اتفقنا على أن خير من يتولاها هو أنت .. وقال منير ساخرا :

— مع من اتفقت ؟ ..

وقال السلانكى فى بساطة :

— مع زوجتى .. إنها تعرفك وصديقة أختك كما قالت لى .. ويظهر أن أخاها كمال كان يحدتها عنك كثيرا ..

واهتز منير وأحس ارتعاشة تزحف على صدره وقال وهو يضغط على كلماته حتى لا ترتعش مع ارتعاشته :

— تفضل فى المكتب الساعة السابعة ..

وقال السلانكى فى هدوء :

— ألا يمكن أن نلتقى عندى فى البيت حتى نوفر على زوجتى المشوار .. إنها قضية تخصها ..

وقال فى حسم :

— إنى أفضل أن أستمع إليك هنا فى المكتب ..

وقال السلانكى بلا مبالاة :

— سأحاول أن أكون عندك فى الساعة ..

وانتهت المكالمة .. ومنير يلوى شفثيه كأنه قرفان .. إن السلانكى  
تافه .. وزوجته دلبر تستغل تفاهته قطعاً .. إنها لا تريد أن تتركه حتى  
ينساها ..

وجاء إليه السلانكى وجلس مرتاحاً على مقعد بجوار مكتبه كأنه ينوى أن  
يطول الحديث .. وقال :

— إنك لم تعد تسأل عن الشلة أو ترانا كمجرد زيارة ..

وقال وهو ينقل عينيه بين زميله اللذين يقضيان فترة التمرين معه في مكتب  
الأستاذ عبد الهادى مرعى يشاركانه نفس حجرة المكتب حتى إنه كان  
يضطر عندما يأتيه صاحب قضية خاصة ليست من قضايا المكتب أن  
يخرج به إلى صالة الاستقبال ويجتمع به هناك .. وقال كأنه يقطع حرية  
الحديث على السلانكى :

— بإذن الله عندما يعود صديقنا كمال نعود إلى الشلة .. خيراً .. ما هي

القضية التى تشغل بالكم ؟ ..

وربما تنبه عادل السلانكى إلى أنه لا يجب أن يتحدث عن الشلة لأنهما  
ليسا وحدهما .. أو ربما كانت طبيعته في الاستسلام للأوامر .. فبدأ يتحدث  
عن القضية .. إنها قضية عمارة في شارع عدلى بوسط البلد وقعت من  
نصيب زوجته دلبر عند تقسيم التركة .. وقد مضى أكثر من ثلاث سنوات ولم  
تسجل هذه العمارة بعد باسم دلبر .. وبدأ يعرض عليه الأوراق التى تثبت  
تقسيم الإرث .. وقال منير :

— ولكنى أعلم أن هناك محامياً يتولى كل شئون العائلة ..

وقال السلانكى دون أن يبدو عليه اهتمام :

— إن زوجتى تعتقد أن إختوتها يتدخلون وأنهم لا يريدون أن يتركوا لها  
العمارة .. لذلك قررت أن تعتمد عليك ولو لتقنع هذا المحامى الآخر  
بإستكمال تسجيل العمارة باسمها ..

وقال منير كأنه ينهى الجلسة :

— اتصل لى بعد يومين وأكون قد انتهيت من دراسة الموضوع ..

وقال السلانكى كأنه يغيره إغراء ساذجا :

— هل نبدأ بتحديد الأتعاب ؟ ..

وقال منير وهو ينظر إليه نفس نظرة الاستهانة التى ينظر بها إليه دائماً :

— ليس الآن .. إتنى لم أقرر بعد أن أتحمل المسئولية ..

وقام واقفا ومد يده إلى السلانكى مصافحاً وكأنه يطرده ويكرر قائلاً :

— بعد يومين تفضل بالمرور على ..

وجلس يقلب في الأوراق التى تركها له السلانكى وهو يعيش في كل ورقة

مع صورة دلبر .. وكانت قد مرت حوالى ساعة عندما دق تلفون المكتب

يطلبه .. وسمع صوتها .. وقالت بمجرد أن سمعت صوته ودون تحية :

— هل أقول لك من أنا أم تعرف الصوت الذى تسمعه ؟ ..

وقال وهو يكتم رعشته :

— أعرفه ..

وقالت بصوتها الهادئ الحلوى الذى مضت سنوات وهو يملأ أذنيه به دون

أن يسمعه :

— لقد مضى أكثر من عام ولم يجمعنا تلفون ..

وقال والابتسامة التى تملو شفثيه ترتمش معه :



— إنها ظروف ..

وقالت ورنه صوتها تخفت كأنها ارتاحت :

— وهل توافق الظروف التي وجدتها حتى تعود إلى حديثنا ؟ ..

قال وهو يحاول ألا يخرج عن حديثه :

— تقصدين القضية ؟ .. إني لم أته بعد من بحثها ..

وقالت بسرعة هادئة :

— لن يكفي بحثها بما سمعت من عادل .. يجب أن تسمع مني .. وأفضل

أن تزورني .. إني أصبحت صاحبة قضية ..

وتلفت حوله .. إنه لا يستطيع أن يجادلها في هذا التلفون وسط هذا

الزحام من رجال وعملاء المكتب .. ثم إنها فعلا صاحبة حق في أن تطلب

منه أن يزورها .. زيارة عمل .. إنها صاحبة قضية .. وقال وهو يحاول أن

يصد حيرته :

— متى .. ؟

وقالت فورا :

— غدا ..

قال :

— إني مرتبط بمواعيد بالمكتب .. إما أن آتي إليك في الساعة الرابعة بعد

الظهر .. أو بعد التاسعة مساء ..

قالت ورنين صوتها يزداد حلاوة :

— بعد التاسعة حتى نستطيع أن نتحدث أكثر .. هل تعرف

العنوان ؟ ..

وقال وكأنه ساهم :

— أعرفه ..

وكان بطبيعته التي تدفعه لأن يعرف كل شيء حتى يزداد علما قد عرف

أنها منذ تزوجت وهي تقيم في شقة بالعمارة الفخمة التي بنيت في شارع

الجبيلية .. نفس الشارع الذي عاشا فيه سنوات حبهما .. كأنها تعمدت

أن تبقى معه .. على الأقل مع ذكرياتها معه .. وقد قضى يومه وليله وهو حائر

مع نفسه .. إنه يعلم أنه لن يذهب إليها في زيارة عمل .. إنه يعود إليها ..

يعود إلى حبه الوحيد الذي كان يعيش فيه .. فهل يعود ؟ .. إنه لم يعد يطيق

المقاومة .. وإن كان قد قضى عمره وهو يتفرج على الحياة فدليل كانت

الوحيدة التي لم يستطيع الاكتفاء بالفرجة عليها وعلى طبقها .. لقد تسملت

الفرجة في كل أعصابه حتى أصبحت حبا .. أصبحت حياة .. وابتسم

ساخرا من نفسه .. إنه لن يستطيع أن يتفرج على قضيتها كما يتفرج على باقي

القضايا حتى وهو يتحمل مسؤوليتها .. إن قضية دلبر هي قضية عودته

إليها ..

والثقيا .. ومنذ اللحظة الأولى كان لا يمكن أن يكون مجرد محام .. وتكون

هي مجرد زبونة لهذا المحامي وصاحبة قضية .. الثقيا وكأنهما لم يفترقا أبدا ..

وقال وهو يتلفت حوله :

— أين زوجك عادل ؟ ..

وقالت بصراحة من خلال ابتسامتها الهادئة التي تحمل حبا الهادئ :

— تركته يسهر مع أصدقائه حتى نبقى وحدنا ..

ولم يرد ذكر هذه القضية بينهما .. إنه حديث يشمل الماضي كله والواقع

الذي وصل إليه .. وقد أصبحا كأنهما يستسلمان لهذا الواقع ولا يريدان أن

يضحيا بنفسيهما فيه بل يتحايلان عليه حتى يعيشاه .. إنه واقع فرضه

المفارق بين ابنة الباشا وابن الأندلى .. وفرض زواجها من غيره .. وهو يحس أنه بدأ يرتفع بنفسه فوق طبقة الأندلية .. إنه ليس موظف حكومة .. إنه يبنى نفسه حرا ويخطو بسرعة في طريق النجاح .. قد يستطيع يوما ما أن يكون باشا لو أراد .. ثم إن زواجها بغيره لا يبرر حرمان كل منهما من الآخر ما دامت لا هي ولا هو كانا يريدان هذا الزواج .. إنه زواج فرضه عليهما المجتمع الطاغى .. ومن حقهما أن يتحديا الطغاة دفاعا عن حقهما في الحب ..

ووجدنا نفسيهما في قبلة .. إنها قبلة أقوى من القبلات التي يذكرانها .. إن قبلة المرأة تختلف عن قبلة الفتاة .. وهي قد أصبحت امرأة .. والرجل في سن العشرين يختلف عن الرجل الذي تعدى العشرين .. وهو قد تعدى الرابعة والعشرين .. ولذلك وجدنا القبلات تشدهما إلى ما هو أكثر ..

وفضت بكارته لأول مرة في حياته .. إن دلبر هي حبه الوحيد وهي المرأة الوحيدة التي أصبحت له كلها .. وربما حدث هذا مع أول لقاء بعد الغيبة الطويلة لأنه لم يكن لهما إحساس بأنه لقاء أول .. لقد عاشا أيام الغيبة الطويلة وكل منهما مع الآخر .. وعادا كأنهما لم يفترقا أبدا .. أو ربما كانت الوحشة والحرمان الطويل دفعهما لأن يأخذ كل منهما كل ما في الآخر .. وانتقل منير إلى حياة جديدة .. إن التلفون يجمعه كل يوم بدلبر .. قد تتصل به هي في تلفون المكتب بكلمات قصيرة مراعاة لجو المكتب .. ويتصل بها هو في كلمات طويلة من خارج المكتب .. فقط من أجل أن يعيش أكثر مع دلبر .. وقد حدث التغيير أيضا في علاقته بزوجها السلانكى .. إنه لم يعد يستهين به أو يحتقره بل أصبح يناقشه ويدي نحوه اهتماما كاذبا .. إنه يعترف بأنه أصبح منافقا كاذبا .. والسلانكى لا يشعر

بشيء ولا يهم بشيء ..

ولكن دلبر لم تأخذ من الشهوة المتأصلة فيه .. شهوة الفرجة على الحياة .. شهوة العمل .. وشهوة اكتشاف الجديد .. وكانت لقاءاتهما تخضع دائما لما يتخيه له عمله من فراغ .. قد تتباعد اللقاءات حتى لا يتعد عن عمله عن انطلاقاته داخل الحياة السياسية .. وقد كسب قضية عمارة دلبر وسجلها باسمها ورفض طبعا أن يأخذ أتعابا .. إنه يرفض أن يأخذ مليما واحدا من دلبر .. بل إنه اتفق معها على ألا يتبادل الهدايا .. حتى لا يقع في مشكلة المساواة بين ما عهده وما يهدها .. ولكنه كان قد أتم فترة التميرين على الحماسة .. وكان يستطيع أن يستمر في مكتب الأستاذ عبد الهادى مرعى .. بل إن الأستاذ مرعى يلمح عليه أن يستمر معه .. ولكنه يحلم بأن يكون محاميا كاملا حرا له مكتب خاص .. فأين يجد شقة خالية يقيم فيها مكتبه ؟ .. وعرضت عليه دلبر أن يأخذ شقة في العمارة التي كسب قضيتها حتى لو اضطر أن يطرد منها أحد السكان .. وقبل منير ولكنه اشترط أن يدفع لها الإيجار .. إنه لا يقبل أن تمن عليه .. وقالت دلبر ضاحكة :

— تدفع إيجارا بشرط ألا تحدده .. تدفع كل شهر ما تريد .. فإن أريدك أن تتركنى أحس بأن هذا المكتب مكسبى ما دام مكتبك .. وكانا يلتقيان هذا اللقاء المتباعد في عمارة الجبلية .. في شقة الزوجية .. وأصبحا يلتقيان أكثر في المكتب الجديد ..

ومنير يزداد نجاحا في عمله .. لقد أصبح محاميا معروفا .. ويزداد نشاطا في مجال الحياة السياسية التي تجمع الجيل الجديد .. أصبحوا كلهم يتقنون به رغم أنه لا ينتمى إلى أى تجمع منهم ويستشرونه في كثير من أرائهم

وكان منير كلما التقى بكمال يبدو بنظرة صامتة كأنه يسأله .. هل عرف شيئا .. هل عرف أنه عاد إلى أخته ؟ .. لا شك أنه عرف أنه أصبح على صداقة مع عادل السلانكي .. فالسلانكي دعاها أكثر من مرة للاجتماع في بيته .. في شقة شارع الجبلية .. وكانت دلبر ترحب به أمام أخيها .. فهل يعلم أنه وصل مع أخته إلى أكثر من الصداقة .. إلى كل شيء ؟ .. ربما لم يعرف .. وربما عرف ولم يهتم فقد قال له مرة إنه لا يهتم بالحياة الخاصة لأى فرد من عائلته .. ومن حق أخته دلبر أن يكون لها حياة خاصة حتى وهى متزوجة .. حياة لا تمس حياة العائلة .. حياة الطبقة العليا التى لا يمسه إلا الزواج .. وهو لم يتزوج أخته ..

وكان كمال بعد أن عاد من رحلته قد تطور أيضا من هذه الناحية .. فلم يكن معروفا عنه أنه على علاقة بأى امرأة أو فتاة .. بل كان كما كان منير لا يحس بإحساس الجنس الذى يدفعه للبحث عن امرأة .. ولكنه بعد أن عاد بدأ يظهر مع عائشة .. إنها فتاة مثقفة من عائلة متوسطة غير معروفة .. وكان يظهر معها كثيرا ويصحبها حتى في لقاءاته مع أصدقائه وأفراد الشلة .. ويبدو أنه قد أقعها بالماركسية أو ربما كانت ماركسية من قبل أن تلتقى به .. وقد أصبحت عضوا رئيسيا من أعضاء الشلة .. والجميع يعرفون أن ما بينها وبين كمال أبعد من الماركسية .. إنه يملكها .. وهى تملكه .. دون أن يعترض أحد على ما بينهما .. كل منهما حر مع نفسه .. وقد سأها منير مرة بعد أن عرفها فترة طويلة .. وكانا جالسين في انتظار كمال :

— هل تتزوجان ؟

وقالت مبتسمة في بساطة :

وتحركتهم .. وقد عاد كمال الروزنامي من لندن .. إنه لم يكتف بلندن بل سافر أيضا إلى موسكو .. وقد عاد وهو متطور فعلا .. إنه يتبع أسلوبا جديدا في تنظيم وتوجيه الشلة الماركسية .. وفي اتصالاته بكل التجمعات الثورية التى أصبحت القاهرة مزدحمة بها .. وقد عاد وهو أشد حرصا على الاحتفاظ بصداقة منير ولم يعد يحاول أن يضمه إلى الشلة أو يقنعه بالماركسية ولكنه أصبح كأنه يعتمد عليه ، كأنه مستشار يعينه في تكوين رأيه وتحديد تصرفاته .. وكان منير هو الذى بدأ بفكرة الدعوة إلى توحيد القوى الثورية .. يجب أن تكون قوة واحدة حتى تستطيع القيام بثورة تنفيذية تصل بها إلى حكم مصر .. بعدها .. بعد الثورة يبدأ تحديد الأدوار .. دور كل مذهب وكل جماعة .. وبدأ فعلا بأن استطاع أن يجمع صديقه كمال الروزنامي الماركسي بالأستاذ عضو الإخوان المسلمين منصور أحمدين في محل بيع الأقمشة الذى يملكه صديق العمر عبد الله عبد اللطيف .. وتركهما يتحدثان معا دون أن يتدخل .. يريدان أن يقررا ما يمكن أن يجمعهما .. ولا يمكن أن يجمعهما سوى الاشتراك في ثورة واحدة متجاهلين علاقتهما .. وكل منهما وافق على أساس اعتزازه بقوته وثقته بأن يستطيع أن يحمو الآخر بعد أن تنجح الثورة .. وقد بدأ يسمى بين باقى التجمعات الثورية .. وكلها توافق على مبدأ الوحدة الثورية وكل تجمع يرحب بالاجتماع بالتجمع الآخر .. وكان يجمعهم فعلا في مكتبه .. ويبدو كأنهم اتفقوا على كل ما يحقق الوحدة .. ولكن آماله كانت تنهار سريعا .. فالاجتماع لا يكاد أن ينفذ حتى يعتزل كل منهم بنفسه في تحركاته عن الآخر .. إن كل منهم يخاف الآخر .. كل منهم يريد الثورة لنفسه وبقيادته .. يريدان على الأقل أن تنسب إليه ..

القديمة .. وقوة البوليس أصبحت مفتتة .. وقوة الجيش أكثر تفتيتا حتى أصبحت الشكنات العسكرية كأنها مقاه تلور فيها المناقشات السياسية أثناء تناول أقذاح القهوة والشاي ..

إن الثورة ستقوم حتما .. كل مصر أصبحت معدة للثورة .. ولا شك أن الجيل الجديد هو الذى سيقوم بهذه الثورة ويتحمل مسئوليتها .. ولكنه لا يستطيع أن يحدد كيف يعد هذا الجيل الثورة .. وكيف يخطط لها .. وكيف يقوم بها .. وقد قامت عدة محاولات ثورية ولكنها فشلت كلها .. ربما لأن حلمه فى توحيد القوى الثورية لم يتحقق ..

إلى أن فوجئ ذات صباح بالمفاجأة الكبرى ..  
لقد قامت الثورة ..  
واشتدت دهشته ..  
إنها ثورة عسكرية ..

«سهر الليل» ليلياس ..  
www.iliias.com

— تقصد أنا وكال ؟ .. لماذا تزوج ؟ .. إن الزواج وضع اجتماعى مفروض للاعتراف بالإنجاب .. أى الاعتراف بالأولاد .. وأنا وكال لا نريد أولادا ..  
وقال منير معارضا :

— ولكن الزواج هو الوضع الشرعى الذى يعترف به المجتمع حتى بلا إنجاب .. أى أن المجتمع لا يعترف الآن بوضعكما أنت وكال ..  
وقالت عائشة بلهجة فتاة مثقفة تنهاه بثقافتها :

— ما هو الوضع الشرعى ؟ .. إنه الإعلان .. أى أن يعلن الرجل والمرأة أن كلا منهما أصبح للآخر .. ونحن قد أعلننا وضعنا أنا وكال عليكم وعلى كل المجتمع .. كلكم تعلمون أنى لكمال وكال لى .. ولسنا فى حاجة إلى المأذون ليسجل هذا الإعلان رسميا .. إن الإعلان الشعبى له قوة الإعلان الرسمى ..

وسكت منير ..  
إن هذه هى آراء كال التى رفض بها زواجه من أخته دلبر .. وربما لا يهमे الآن ما بينه وبين أخته مادام لا يعلن رسميا حتى ولو كان معلنا شعبيا ..

\* \* \*

ومضى يعيش فى هذا الزحام ولا يكون وحده أبدا إلا عندما تكون دلبر بين أحضانها فى هذه اللقاءات المتباعدة .. وهو واثق أن الثورة الوطنية ستقوم قريبا .. قريبا جدا .. ربما غدا أو بعد غد .. فكل السلطات فى مصر أصبحت مفتتة .. الحكم الملكى تفتت وفاروق أصبح أضحوكة كأنه بلياتشو فاشل فى سيرك السياسة .. والإنجليز أصبحوا حريصين على الانزواء فى منطقة القناة .. والأحزاب السياسية كلها مفتتة .. حتى الحزب المحترم حزب الوفد .. أصبح كأنه دكان فى سوق الكانتو يتاجر فى الملابس

بالكلية العسكرية بعد أن انتهى من دراسته الثانوية رغم إلحاح كثير من أصدقائه أهل الحقبة الذين التحقوا بها .. فقد كان يعتقد أن الالتحاق بالجيش قاصر على نوعين من الشباب .. أولاد الذوات الذين يريدون التباهي بالبدلة العسكرية والتباهي بأنهم يتولون حماية طبقتهم التي تتولى الحكم .. أو أولاد الطبقة العادية الذين يفضلون الهرب من الدراسة الجامعية والاعتماد على مرتب ثابت محترم حتى لو تنازلا عن حريتهم .. وهو لا يقبل أن يتنازل عن حريته .. لذلك لم يلتحق بالكلية الحربية .. ولم يحاول أن يكتسب صداقة أحد من رجال الجيش .. ولكنه فوجئ عندما وجد بين الصور التي تنشرها الصحف صورة الصديق القديم معتز الخيدي .. إنه صديق منذ أيام الطفولة وكان يقيم في نفس الحى وفي البيت الملصق ببيته وزامله في المدارس من روضة الأطفال حتى الثانوى .. ولكنه كان صديقا من نوع غريب .. كان معروفا عنه الانزواء والخجل حتى إنه كان لا يشترك مع باقي الأولاد في ألعابهم .. ولا حتى يشترك مع أحد في المذاكرة بعد أن كبر .. لذلك كانت صداقته به صداقة عاتمة لا تجمعهما في شيء مشترك .. وربما أدخله أهله الكلية الحربية ليأسهم من أنه يستطيع أن يتحمل الحياة أو الدراسة الجامعية أو يعيش حياة أسعد بعد الجامعة .. وهو لم يره أبدا منذ التحق بالكلية الحربية فعائلته نفسها انتقلت من الحى لتقيم في حى مصر الجديدة البعيد .. وقد دهش وهو يرى صورته بين رجال الثورة .. لم يكن ينتظر أن يكون بينهم هذا النوع من الشخصيات .. ولكنه استنتج أنه ليس قطعاً من أعضاء مجلس القيادة ولكنه بلا شك لا بد أن يكون من الضباط الأحرار فهو يتولى مهمة لا يعرفها داخل مجلس القيادة .. وفكر أن يتصل به معتمداً على الصداقة القديمة ويحاول أن يفهم منه اتجاه الثورة وبعض خباياها .. ولكن

وقضى منير أياما وهو يتخبط في محاولة فهم وتحليل هذه الثورة مع فرحته بها .. كل الشعب يتخبط وهو فرح .. واعتقد في البداية أنها ليست ثورة .. إنها مجرد ظهور قوة تستطيع أن تفرض إرادتها على الملك وعلى الحكومة لتحقيق مطالب خاصة برجال الجيش .. ثم بدأ تفكيره يتطور .. إنها ليست مجرد قوة لتحقيق مطالب خاصة .. إنها انقلاب عسكري سيشمل كل نظم الحكم .. ثم يستمر فكره في التطور السريع من الأحداث السريعة التي تقع ساعة بعد ساعة .. إنه ليس مجرد انقلاب عسكري .. إنها قوة تحقق ثورة شعبية بدليل أن القادة العسكريين يعتمدون على الشخصيات المدنية التي تمثل القوى الثورية ..

وربما زاد في تخبطه أنه لم يجد بين قادة الثورة الذين يسمع بأسمائهم ويرى صورهم في الجرائد أحداً يعتبر صديقا له أو يعرفه معرفة كاملة .. إنه يرى في صور الجرائد وجوهاً يتذكر أنه سبق أن رآها في بعض الاجتماعات أو الجلسات السياسية .. ولكنه لم يكن بينه وبين أى واحد منهم أى ارتباط شخصى أو حتى ارتباط برأى سياسى .. ربما لأن طبيعة فكره كانت تبعد الجيش عن السياسة .. إن أساس كل ما يؤمن به هو الحرية الشخصية .. وليس من حق أى عسكري أن يكون حراً .. إن مسئولية ومهنة العسكري تفرض عليه أن يكون خاضعا خضوعاً تاماً لأوامر رؤسائه .. أن يخضع للأوامر العسكرية والسياسية .. أيضا .. لقد خرج رجال الجيش عدة مرات ليصلوا ثورات شعبية سياسية إطاعة للأوامر .. وهو نفسه رفض الالتحاق

مستحيل .. إنه لن يشترك في هذا الزحام الذى أصبح يحيط برجال الثورة .. زحام الشخصيات التى تحاول أن تستغل الثورة وتحقق من خلالها أغراضا خاصة ولو مجرد الوصول إلى وظيفة أكبر .. إنه لو اتصل بصديقه القديم معتز فسيستقبله على أنه واحد من المحتاجين المنافقين .. لن يتصل به إلا إذا كان اتصال صدفة ..

وفي هذه الأيام الأولى من الثورة قال له صديقه عبد الله عبد اللطيف :  
— إنها ثورة الإخوان المسلمين .. كل هؤلاء الضباط من الإخوان .. وكان قد بدأ يتبع الاتصالات المستمرة بين قيادة الثورة وقيادة الإخوان .. ولكنه لم يستطع أبدا اكتشاف دور الإخوان فيها .. وكثير من الضباط الذين يتحركون يعلم أنهم فعلا من الإخوان ولكن ليس بينهم من يعتقد أنه يتحمل مسؤولية قيادية ..

وفي نفس اليوم فوجئ بصديقه كمال الروزنامجى يقول له :  
— إننا نؤيد الثورة واشتركنا فيها منذ البداية ولنا ممثلون ماركسيون في مجلس القيادة .. لم أكن أقول لك شيئا لأن كل شيء كان يتم في منتهى السرية .. ودعش منير .. كيف يكون الإخوان والماركسيون قد اشتركوا في ثورة واحدة ؟؟ .. لعلهم قد تحالفوا سرا كما كان هو نفسه يسعى إلى تحالفهم وهو يسعى إلى توحيد القوى الثورية .. أو ربما كانت قيادة الثورة قد تكونت على أساس الارتفاع فوق كل المذاهب والتجمعات السياسية حتى تجمع بينها .. أو ربما كان صديقه كمال يبالغ في ادعاء أن الماركسيين اشتركوا في الثورة .. إن من طبيعته المبالغة ..

ومرت الأيام وهو يتخبط في أفكاره ولا يحاول أبدا أن يسعى إلى اتصال بأحد من قادة الثورة ويكفى باستمرار اتصالاته بالتجمعات التى يعرفها ..

تجمعات الجبل الجديد .. إلى أن قال له صديقه كمال :  
— لقد قررنا أن نحرك العمال كقوة قائمة بذاتها ..  
وقال متعجبا :  
— كيف ؟؟

وقال كمال في لهجة القائد الأعلى :

— سيتحركون في دمنهور وفي شبرا الخيمة وفي أسيوط وطبعا في القاهرة مطالبين بمحقتهم في تولى إدارة مصانعهم ..  
وقال منير كأنه ينصحه :

— ولماذا لا تبدأ هذه التحركات بالاتصال بين القيادات وقد تصل إلى تحقيق مطالب العمال دون أن يتحركوا ..  
وقال كمال في صوت عال كأنه يلقى خطابا :

— لا .. إننا نعيش الفترة الوحيدة التى يستطيع العمال فيها أن يبتوا وجودهم كقوة .. إن الثورة إلى الآن مركزة في قوة الجيش .. وكل القوى الأخرى تحاول أن تثبت وجودها بجانب قوة الجيش .. الوفد يبرز قوته .. والإخوان المسلمون يبرزون قواهم .. وكل تجمع يبرز قواه .. وهى الفرصة الوحيدة التى يبرز فيها العمال قوتهم .. قوة الطبقة العاملة التى تعترف الثورة بها ..

لم يستجب منير لرأيه ..

وكان منذ بدأت الثورة قد ترك بيت العائلة وأقام في مكتبه .. مكتب الحمامة .. الذى كان قد خصص فيه حجرة تعود أن يلتقى فيها بدلبز .. وهى لا تزال تحادته في التلفون وتتردد عليه في مكتبه .. ولكن لقاءها وحديثها أصبح شيئا آخر .. إنها خائفة حتى لا يستطيع حياها أن يتغلب

بأيام الحكم على اثنين من قادة هؤلاء العمال بالإعدام .. لأول مرة تصل  
أحكام الإعدام في مصر إلى رقاب الثور ..

وبعد ما حدث في دمنهور بيومين اثنين فوجيء منير في ساعات أخيرة من  
الليل بباب مكتبه يدق بعنف حتى أيقظه من النوم .. وفتح الباب ليجد  
أمامه ضابطا من ضباط البوليس ومعه أربعة عساكر وقال له في هدوء :

— تفضل معنا ..

وقال منير في دهشة :

— هل تقبضون على ..؟

وقال ضابط البوليس وهو يتسم كأنه يشفق عليه :

— إنك مطلوب .. ربما لسؤالك بضعة أسئلة ..

وقال منير بلهجة المهام :

— أريد أن أعرف حتى أعد نفسي ..

وقال ضابط البوليس من خلال ابتسامته :

— أنا نفسي لا أعرف ..

وقال منير كأنه يستجيب لهدوء الضابط :

— هل تسمح لي بارتداء البذلة ..؟

وقال الضابط :

— تفضل ..

ولكنه دخل وراءه إلى الحجرة الداخلية التي يبدل فيها ملابسه .. وعاد  
منير يقول له :

— هل آخذ معي حقيبة ملابس ..؟

وقال الضابط في صوته المهذب :

على خوفها .. خصوصا بعد أن عزل فاروق عن الحكم .. إن كل الحياة التي  
تعيشها بدأت تنهار .. وهي تسمع أن الثورة ستقضى على كل العائلات  
المالكة القديمة .. وطبعاً من بينها عائلة روزنابجي .. وهي تسمع أنهم  
سيأخذون منهم الأرض .. إن أرضها هي أساساً أرض أمها قبل أن ينقلها  
أبوها إلى اسمه .. وأمها من عائلة الملك حتى لو كانت تنتمي إليها من  
بعيد .. فكيف يتكون لها الأرض أو أرض زوجها السلانكلي ..؟ وكيف  
يعيشان بعد أن يفقدا الأرض ..؟ ومنير يقضى اللقاء كله في تهدئة .. إن  
من حظها أنها وإخوتها قسموا الأرض بعد وفاة أبيها .. وقد سمع أن الثورة  
ستحدد ملكية الأرض بثلاثمائة فدان .. ولن تكون هذه الثلاثمائة فدان ملكاً  
لهم جميعاً بل سيكون كل واحد فيهم مالكاً لثلاثمائة فدان .. وإيرادها يمكنها  
لتعيش كما هي .. بل إنها ستكون أغنى من زوجها لأن أولاد السلانكلي لم  
يقسموا الأرض بينهم .. ثم إن العمارات لم يأت ذكرها في أى مشروع ..  
وهي تملك هذه العمارة التي تضم مكتبه وسيدفع لها الإيجار إذا  
احتاجت .. ثم من يدري ما يمكن أن يحدث ..؟ كل هذا الكلام مجرد  
مشروعات لا تزال الثورة عاجزة عن تحقيقها .. ولا تدري بعد كيف تحكم  
حتى تغطي عجزها .. ولكن دلبر لا تظلمن أبداً .. ولا تتوقف فيها ارتعاشة  
الخوف حتى وهي بين أحضانها يحاول أن يوقف بشفتيه ارتعاشة شفتيها ..  
وفوجيء منير بعد أيام بثورة داخل مصانع دمنهور استولى بها العمال على  
إدارة المصانع .. تحققت أهداف كمال روزنابجي .. ولكن مجلس القيادة في  
القاهرة واجه هذه الثورة العمالية بعنف فاق عتف حكومات ما قبل الثورة  
حتى إنه أرسل قوات من الجيش احتلت دمنهور وقبضت على العمال  
المضربين الثائرين .. ولم تستمر هذه الثورة إلا يوماً واحداً .. وقد تم بعدها

— خذ .. من باب الاحتياط ..

وتعمد أن يراقب ما يضعه منير في الحقبة الصغيرة التي حملها .. ثم صحبه بين العساكر إلى سيارة البوليس .. وسأل في أدب والسيارة تتحرك به :

— إلى أين ؟ ..

وقال الضابط في إشفاق واعتذار :

— ستعرف عندما تصل ..

ولم يلح منير في سؤاله .. إنه يقدر لهذا الضابط معاملته المهذبة .. إنه يطبق الأوامر في رفق .. ولعله لا يعلم فعلا لماذا يقبض عليه .. إنها ليست ثورة البوليس .. إنها ثورة الجيش .. وضباط البوليس لا يعلمون شيئا مما يجري في الثورة إلا تنفيذ الأوامر ..

وسارت السيارة طويلا حتى بدأت السماء تفتح على نور الفجر .. ودخلت السجن الكبير .. إنه سجن أبو زعبل ..

وقال منير وضابط البوليس يسلمه إلى ضابط السجن ويقدم إليه الأوراق الخاصة به .. قال في أدب :

— هل أستطيع أن أعرف الاتهام الموجه إلى ؟ ..

ورفع إليه ضابط السجن عينيه في دهشة .. ثم عاد وأطرق في أوراقه .. ثم قال له ساخرا :

— اسأل نفسك يا حضرة الحمامي ..

ثم قام وأخذ يفتش جيبه ويخرج منها كل شيء حتى منديله ويأمره بأن يخلع الرباط عن حذائه ويأخذ منه ساعة يده ثم شده من كتفه وسار به إلى داخل السجن ومعه مجموعة من العساكر إلى أن وقف يفتح بالمفاتيح باب

ززانة كبيرة .. كأنها ملجأ أيتام .. ودفعه كأنه يلقي به داخلها ثم أغلق الباب وراءه دون أن يلفظ بكلمة .. وشهق منير دهشة .. إن صديقه كمال الروزناجي يقف أمامه داخل الززانة .. ومعه عادل السلانكلي .. وخلييل .. وكل أفراد الشلة الماركسية .. ومعهم عدد كبير من أفراد لا يعرف معظمهم .. لعلهم ماركسيون .. واحتضنه كمال وهو يقول ضاحكا :

— الآن أنت ماركسي بحكم الواقع ..

ورفع منير عينيه إلى وجه كمال وهو يتهدد في سخط واستسلام .. فرأى على وجهه كدمات تشق انفه وصدغيه ويبدو أنها كدمات حديثة فلا تزال تحمل لون الدم .. فقال في جزع :

— ما هذا .. هل كنت في معركة ؟ ..

وقال كمال مع ضحكته :

— لا .. كنت في مناقشة ..

وأفسحوا لمير مكانا على الأرض يفرش عليه البطانية التي ألقاها العسكري وراءه بعد أن زج به .. واستلقى عليها وكلهم من حوله يسألونه عن آخر الأخبار .. ثم انهالت عليه النكات لأنه جاء إليهم وهو مرتد بدلة كاملة وقميص ولا بد أن ضابط السجن قد نزع منه رباط العنق .. ومنير سارح بعقله وسط كل هذه الضجة التي أقامها زملاء الززانة ترحيبا به .. إن من السهل عليه أن يعرف أنه ليس مقبوضا عليه في قضية محددة .. إنه معتقل ضمن المعتقلين الماركسيين .. ولكنه ليس ماركسيا .. ثم إنه لم يشترك في أي تحرك أو أي عمل قام به الماركسيون .. إنه كان يعرفهم كمتفرج .. حتى الآراء التي يبديها هي مجرد آراء متفرج على ما يخطر أمامه دون أن يكون له دور فيه .. وأغلب آرائه كانت دائما آراء رافضة معارضة .. فلماذا



ويتعذب ويرقد أياما عقب كل علة دون أن يستطيع الحركة .. وربما حاول أن يعدل عن طبيعته .. طبيعة السيد .. ولكنه كان لا يلبث أن يعود إليها .. وكان أشد ما يحرص عليه هو أن ينفرد بكل تصرفاته بحيث تنسب إليه وحده .. حتى لا يعرض أحدا من زملائه المساجين إلى معاناة ما يعانیه من وسائل التعذيب .. ولم يفكر أبدا في القيام بعمل جماعي داخل السجن ربما لأنه لم يجد خطة يمكن أن يحققها بعمل جماعي .. أى بثورة .. إنه مهما كان فهو إنسان شهيم .. زعيم ماركسي شهيم ..

وقد حاول عادل السلانكي مرة أن يتحدى السجن تقليدا للكمال .. إنه طول عمره شخصية مقلدة نافهة .. ولكنه بعد أول علة انصبت عليه أصبح مستسلما ولم يعد يقلد كمال في شخصية السيد ..

ومر مستسلم منذ أن خطا بقدميه داخل السجن .. ويعينه على الاستسلام متعته كمتفرج .. إنه يتفرج على مسرحية جديدة من مسرحيات الحياة ..

ولم تذكر الصحف شيئا عن الاعتقالات أو أسماء المعتقلين .. ممنوع .. والعائلات لا تعرف كيف اختفى أولادهم ولا أين اختفوا .. وفي كل بيت مأتم يستقبل المعزين مع اختفاء جثة الميت .. وطبعا كان محرما تبادل الخطابات بين المعتقلين وأهلهم .. ولكن كان هناك بعض العساكر يتطوعون بتبريد هذه الخطابات نظير أتعاب سخية يقبضونها من كل عائلة يصلون إليها .. إنها سوق رائجة للكسب ..

ولم يحاول منير أن يهرب خطابا إلى أبيه وعائلته .. إنه يتصور العذاب الذي يعيشون فيه .. وهو الذي يعذبهم .. ربما لو كان قد حسب حسابهم منذ البداية لما أقدم على حياة الفرجة التي يعيشها .. أو لاختار ما يتفرج

يعتقلونه ؟ .. هل لأنه صديق كمال الروزنامجي ؟ .. إن الصداقة كالأخوة وهم لن يعتقلوا فؤاد أخوا كمال .. كيف يدافع عن نفسه ويقول لهم كل هذا الكلام .. ويقول لمن ماداموا لم يحققوا معه ؟ ..

وبدأت أيام السجن ..

أيام تستمد فيها الحياة من تعمد إثارة المناقشات .. إنهم يتناقشون دائما كأنهم يتنفسون الهواء .. إن السجن ليس فيه ما يرمز إلى الحياة إلا المناقشة بين الزملاء المساجين .. وهو قد بدأ يعجب بأفراد الحركة الماركسية .. إنهم بسرعة استطاعوا أن ينظموا أنفسهم داخل السجن .. ويتفقوا على أسلوب للتعامل مع إدارة السجن ومع السجناء بحيث يكسبون رضاهم ويطمئنونهم على استسلامهم .. وهم مستسلمون فعلا .. لا يحاولون تحدى ما يفرض عليهم .. ولا يحظر على بالهم أى تفكير في الهرب .. وكل آمالهم معلقة بما يمكن أن يحدث خارج السجن لا ما يحدث داخله .. الوحيد الذى كان يخرج على هذا الاستسلام هو كمال الروزنامجي نفسه .. ربما لأنه عاش طوال عمره سيذا .. ابن باشا .. فلا يستطيع أن يستسلم ليعيش عبدا للضباط والعساكر .. فكان يثور في وجه أى ضابط وأى عسكري .. ويتحداهم في تصرفاته كأنه لا يزال مقتنعا بأن هؤلاء هم العبيد وهو السيد .. ولذلك كان الضابط يعتدون عليه كثيرا بالضرب .. وأحيانا يعزلونه في زنزانة منفردة كأنها قبر تحت الأرض .. بل إنهم أكثر من مرة أصدروا قرارا بجلده .. وكان يجلد بعنف أمام المساجين بعد أن تصفهم الإدارة حوله كأنها تدعوهم لحضور حفل كبير .. حفل للجلد .. وكان كمال يتعذب .. والسياط تركت آثارا ثابتة دائمة على جلده الأبيض .. وأصابع العساكر ترقد على وجهه إثر الصفعات التى تنهال عليه .. وكان كمال يعانى

ضخمة سارت بهم طويلا في طريق الصحراء .. إنه الطريق إلى الواحات .. إلى أن وجدوا أنفسهم أخيرا أمام مجموعة من الخيام ملقاة وسط الصحراء .. هنا سيعيشون .. إنه اعتقال جديد أقامته الثورة خصيصا لهم .. وما داموا قد ألقوا بهم وسط الرمال بعيدا عن كل مظاهر الحياة .. فمعنى ذلك أن الثورة نقلتهم إلى عالم آخر .. حكمت عليهم بالاختفاء من الدنيا إلى الأبد .. بالموت .. وربما لم تنفذ فيهم الإعدام لأن عددهم كبير وقد تستغل جثثهم الصحف الأجنبية للتشهير بالثورة ..

وانهار معظمهم ملقيا بنفسه فوق الرمال .. وظهر أمامهم المسئول عن المعسكر .. إنه من ضباط البوليس أيضا وليس من ضباط الجيش .. ضباط الثورة .. وأمر فوراً بتوزيع أرغفة العيش عليهم .. كل فرد رغيفا واحدا من هذه الأرغفة السوداء العطنة .. ثم طلب اثنين من المتدربين عنهم يتولون توزيعهم على الخيام .. إنه ضابط يبدو معقولا رغم جديته .. ويصدر أوامره كأنه يفضّل التفاهم .. على كل حال فلا شك أنه مطمئن على تحمل مسئوليته فلا أحد من المعتقلين يمكن أن يفكر في الهرب إلا إذا فكر في الانتحار بإلقاء نفسه في رمال الصحراء ..

وبدأت أيام معتقل الواحات .. وقد ازداد إعجابا بالعقيلة الماركسية .. العقلية العلمية .. فقد استطاعوا أن ينظموا أنفسهم بشكل جديد بعد أن انتقلوا إلى الواحات .. كانوا كأنهم يقيمون لأنفسهم دولة لها نظمها ولها قوانينها ولها تقاليدها .. ووصلوا إلى أن تحملوا مسئولية العمل كله داخل معسكر الاعتقال .. وملكوا كل فراغهم بإقامة فرق ومباريات رياضية .. وانطلقت المواهب الفنية بينهم تكتب وترسم وتحت تماثيل .. وقد كتبوا أكثر من مسرحية وشيدوا مسرحا يمثلونها عليه

عليه حتى لا يعرضهم للعباد من أجله .. وهو مهتما عانى من وحشة إليهم ومن الوجود داخل السجن فهي معاناة أرحم من أن يتفرغ دقائق بمواجهة أبيه وأمه وأخواته وهو يكتب لهم خطابا .. كيف يخفف عنهم ما صبه عليهم من عذاب ؟ .. كيف يواجه المجرم ضحاياه ؟ .. أما حبيبته دلبر فشيء آخر .. إن لها حياة وله حياته .. ولن تتأثر حياتها بعد أن انتقل بحياته إلى داخل السجن .. لذلك لم يفكر أبدا في إرسال كلمة لها .. إلى أن وجد صديقه عادل السلانكلي يكتب خطابا لهديه لزوجته دلبر .. فقال له باختصار :

— قل لزوجتك أن تتصل بأختي وتطمئنها ..

واستمرت أيام أبو زعبل شهرين .. إلى أن فوجئ الماركسيون المعتقلون بإيقاظهم في الليل وإخراجهم من الزنازين وتحميل كل منهم حاجاته المسموح بها واتخاذ إجراءات سريعة معهم انتهت بحشرهم في سيارات أوتوبيس مع عدد من الحراس ونقلهم إلى محطة السكة الحديد ثم حشرهم في قطار تحرك بهم .. إلى أين ؟ .. واستطاعوا بسهولة أن يستنتجوا أن القطار يسير بهم في اتجاه الصعيد ..

وهو رغم حيرتهم التي تنطلق مع جزعهم يحاولون التخفيف عن أنفسهم بالغناء وتبادل النكات وبالرقص البلدى وأحيانا تنهد قواهم فيسودهم صمت حزين .. صمت الاستسلام .. أو ربما بدأ يهدم الجوع .. فهم منذ أخذوهم من أبو زعبل لم يقدموا لهم شيئا من الطعام .. ولا هذا الخبز الأسود العطن .. وفي آخر النهار وصل بهم القطار إلى أسيوط .. ووجدوا المخطئة يحتلها قوات ضخمة من قوات البوليس .. كان كل بوليس الصعيد تجمع فيها .. وأنزلوهم كأنهم يلقون بهم على الأرض .. وعادوا وجمعوهم في سيارات

ويدعون قائد المعسكر والضباط والعساكر ليكونوا بين المتفرجين .. بل إن القائد ورجاله اندمجوا بين المعتقلين كأنه تجمعهم حالة واحدة ومصيبة واحدة .. مصيبة الإلقاء بهم جميعا في عمق الصحراء .. وربما كان الضابط أو الجندي يتعذب بهذه المصيبة أكثر من المعتقل .. فهو لم يرتكب جريمة أو لم يكن يؤمن بمذهب سياسي معين أو يحاول تحقيق أهداف هذا المذهب حتى يكون هناك ما يرر إلقاءه في الصحراء ويعينه على التحمل كالمعتقلين .. ولكنه ألقى به في الصحراء بحكم وظيفته .. وقد أصبح يكره هذه الوظيفة ويندم ويتهم نفسه بالغياء لأنه اختارها لنفسه .. اختار أن يكون رجل بوليس ..

ولم يكن كمال الروزنابجي هو رئيس أو زعيم هذه الدولة الجديدة .. دولة صحراء الواحات .. إن الشلة الماركسية التي كونها وتزعمها لا تمثل أغلبية المعتقلين .. إنها شلة تمثل أقلية صغيرة .. وربما كان السبب الأقوى أن كل المعتقلين لا يزالون يعتبرونه ابن باشا .. ومهما بلغت ثقهم في إيمانه بالماركسية فهم يحسون بأن دوافع إيمانه تختلف عن دوافع إيمانهم .. ورغم ذلك كانوا يعاملونه باحترام كبير ويصفون عليه بعض مظاهر عظمة الزعامة حتى يشبعون طبيعته .. أي طبيعة السيد .. دون أن يتركوا له حرية الزعامة .. والواقع أنه لم تقم في المعسكر .. أو في الدولة الجديدة .. أي خلافات أو معارك يثيرها التناحر على فرض سلطة الرئاسة أو الزعامة رغم تعدد التشكيلات والتجمعات أو الأحزاب الماركسية المعتقلة .. كانت الدولة الجديدة تعيش في وحدة كاملة .. ووحدة المصيبة .. وتنظيمات ثابتة مستقرة تحقق القدرة على الاحتمال .. احتمال الدفن في رمال الصحراء التي تمتد على مدى النظر من جميع الجهات ..

وكان منير مستمرا في حياة الاستسلام الهادئ .. استسلام المتفرج .. ولكنه لم يكتف بالفرجة فقد كان يشترك في مناقشات تحديد التنظيمات .. بل كان كأنه يكلف بوضع قانون غير مكتوب للدولة الجديدة .. وتوسع في وضع هذه القوانين إلى حد أنها شملت فرض عقوبات على المخالفين للنظم من المعتقلين .. عقوبات نفسية .. أشدها عزل المخالف عن التعامل مع المجموع .. مع المجتمع المعتقل .. أى أن يفرض عليه الخصام .. كان المعتقلون قد قرروا الاعتماد على أنفسهم مستقلين عن قوة البوليس الذي يحكمهم ..

وكان منير قد مضى عليه أربعة أشهر في معتقل الواحات بعد الشهرين اللذين أمضاهما في سجن أبو زعبل .. مضت ستة شهور على اعتقاله .. وفوجئ بقائد المعتقل يدعوه يوما إلى لقاء في مكتبه .. يدعوه وحده .. ثم فوجئ بأن وجد في مكتب القائد رجلا في ثياب مدنية تولى هو كل الحديث معه .. ورجح منير بعد كلمات أنه لا شك من رجال المخابرات .. وهو لا يتكلم بأسلوب رجال البوليس .. إنه من رجال المخابرات العسكرية .. إنه ضابط جيش ..

وقال له ضابط المخابرات :

— هل لازلت ماركسيا .. أم استفدت من الدرس الذي تلقينته ؟ ..

وقال منير في هدوء :

— أنا لم أكن أبدا ماركسيا .. ولم أكن عضوا في أي تنظيم ماركسي ..

وقال رجل المخابرات ساخرا :

— إننا نعلم أنك كنت الرجل الثاني في شلة كمال الروزنابجي ..

وقال محتفظا بهدونه :

— كل ما بينى وبين الروزنامجى صداقة قديمة لا علاقة لها بالشلية الماركسية ..

وصاح ضابط المخابرات كأنه يشتم منير :

— إن امثالكم لا تجمعهم صداقة .. لا يجمعهم إلا تدير المؤامرات ..

وقال منير وهو يتهد حتى يخفى سخطه :

— أنا لم أشترك أبدا في أى عمل يمكن أن تسميه مؤامرة ..

وقال الضابط ساخرا أكثر :

— وهل لازلت مضمنا على صداقة الروزنامجى .. صداقة ابن الباشا ..

وقال منير وهو يشد نفسه حتى لا يقع من الغيظ :

— لم يقع بينى وبين كمال ما يعكر صداقتنا .. فليس هو الذى اعتقلنى ..

وصاح ضابط المخابرات :

— هو الذى اعتقلك .. وما تعتبره صداقة هو ما أدى إلى اعتقالك ..

وقال منير وهو يزفر أنفاسه :

— إن الصداقة حالة تخضع لظروفها .. وتتغير مع تغير الظروف .. أى

لو لم يكن كمال ماركسيا لما اعتقلت أنا رغم أنى لم أكن أبدا ماركسيا ..

وقال الضابط وهو يتسم ابتسامة رسمية كأنه يبلغ منير الخبر السعيد :

— لقد قررنا أن نساعدك على تغيير حالتك .. سنبعدك عن كمال حتى

تبتعد عن صداقة .. سنفرج عنك ..

واتسعت عينا منير دهشة مصحوبة بالفرجة :

— هل سيفرج عنى ؟ ..

وقال الضابط من خلال ابتسامته الرسمية :

— فعلا .. سيفرج عنك ..

وقال منير وقد انقبضت فرحته :

— هل سيفرج عنى وحدى ؟ ..

وقال الضابط وهو يلوى شففيه قرقا :

— وحذك .. إلا إذا فضلت أن تبقى معتقلا مع أصدقائك ..

وصاح منير فى رجاء :

— لا .. إلى منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه السجن وأنا أتمنى

الإفراج .. لم أقتنع أبدا بأن هناك سببا يدعو إلى دخولى السجن ..

وتاه منير مع أفكاره .. إنه فعلا فرح بالإفراج حتى لو أفرج عنه وحده ..

ولا يدري كيف سيستقبل بقية المعتقلين هذا الخبر .. ربما اعتبره بعضهم

كأنه كان جاسوسا عليهم لحساب المخابرات .. ولكن أغليبتهم تعلم أنه ليس

منهم .. ليس ماركسيا .. وأنه اعتقل معهم لمجرد صداقته للروزنامجى وتردده

على شلثة مقهى الأسيوطى .. ربما فرحوا بالإفراج عنه بدافع الإنسانية

وإشفاقهم عليه .. وقد انقسم المعتقلون حوله فعلا .. بعضهم هنا بالإفراج

مع فرحة صادقة .. وبعضهم لوى شففيه احتقارا له وابتعد عنه .. واحتضنه

صديقه كمال الروزنامجى قائلا :

— لقد كنت دائما أتمنى الإفراج عنك حتى دون أن يفرج عنى ..

وأقاموا فى المساء حفلا من حفلاتهم بمناسبة الإفراج عن واحد منهم ..

ولكنه كان حفلا هادئا لم يشترك فيه كل المعتقلين .. ومنير يتلقى مطالب كل

معتقل التى يريد أن يحققها له فى القاهرة .. ويكتب العناوين وأرقام

التليفونات .. ولكنه كان يعتذر عن أى مطلب يحققه لأى منهم خارج الاتصال بعائلته .. ويقول ضاحكا :

— إنى متأكد أنى سأعيش طول عمري تحت المراقبة .. ولن أتمكن من حرية الاتصالات ولو باسم الصداقة ..

وسؤال يرثى له فى رأسه منذ سمع خبر الإفراج عنه من ضابط المخابرات .. لماذا أفرج عنه ؟ .. لقد أفرج عنه وحده أى لم يفرج عنه نتيجة اتجاه سياسى جديد لمجلس قيادة الثورة .. ربما تأكدت المخابرات أنه ليس ماركسيا وأنه مظلوم .. ولكنه لا يعتقد أن البحث عن العدالة يمكن أن يخطر على بال المخابرات .. ربما توسط له أحد المقرين من القيادة .. ولكن من يتوسط له ؟ .. إنه لا يعرف أحدا من هؤلاء المقرين ..

ولم يجد جوابا على تساؤله .. ولكن الحمد لله .. لقد أفرج عنه .. وفى فجر اليوم التالى صحبه أحد ضباط المعتقل فى سيارة إلى أسبوط .. وعلى محطة أسبوط وجد ضابط بوليس آخر فى انتظاره وركب معه القطار إلى القاهرة .. وكان ضابطا مهذبا يعامله باحترام وإن لم يطل الكلام معه .. لم يعد الناس يتكلمون كثيرا ولكن السعادة كانت تملو وجهه طوال الطريق .. ليس سعيدا لأنه يصاحب مظلوما أفرج عنه ولكنه ربما كان سعيدا بمجرد أن صادفته مهمة تحمله لزيارة القاهرة ..

وصاحبه ضابط البوليس بمجرد وصولهم إلى القاهرة إلى مبنى وزارة الداخلية .. ودخل به إلى مكتب موظف كبير .. وما كاد يدخل هذا المكتب حتى شهق من الدهشة ..

إن مع الموظف الكبير صديقه عبد الله عبد اللطيف والأستاذ منصور أحمدين .. وقفز صديق العمر مهللا بمجرد أن رآه واحتضنه وقبله والدموع

فى عينيه وهو يردد كأنه يلهث :

— الحمد لله على السلامة .. الحمد لله على السلامة ..

واحتضنه وقبله أيضا الأستاذ منصور .. وصافحه الموظف الكبير باحترام كبير .. وتم ما بقى من إجراءات الإفراج سريعا وخرج من مبنى الوزارة مع عبد الله ومنصور .. إنهما هما اللذان سعيا للإفراج عنه .. أى أن الإخوان المسلمين هم الذين أفرجوا عنه .. وقد كانوا فى السنة الأولى من الثورة لهم نفوذ كبير لدى مجلس القيادة .. وقال للأستاذ منصور :

— لا أدري كيف أشكرك ..

وصاح صديقه عبد الله :

— إن الشكر لكل أفراد مكتب الإخوان .. لا تدري كم بذلوا وتعبوا حتى وصلوا إلى الإفراج عنك .. إننا سنمر عليهم جميعا واحدا واحدا .. ولا نستطيع لا أنا ولا أنت إيفاء حقهم من الشكر ..

ونظر منير إلى وجه صديقه الدائم فى حب وقال :

— الفضل لك ..

وقال عبد الله كأنه يعلن القرار النهائى :

— الفضل لهم ..

وسار معهما منير وأفكاره تحيطها ابتسامة متعجبة ..

لقد أدخله الماركسيون السجن .. وأفرج عنه الإخوان ..

وكانت مفاجأة زلزلت العائلة كلها بالفرحة عندما رأوا ابنهم منير معهم في البيت .. لقد عادت اللجنة المدفونة إلى الحياة .. والفرحة تعبر عن نفسها بالدموع تروي القبلات .. ولكنهم بدعوا بسرعة يخفون فرحتهم .. وعدلوا عن فكرة دعوة الأقرباء وأهل الحى لتوزيع الشربات عليهم بمناسبة الإفراج عن منير .. إن كثيرين منهم لا يعلمون أنه كان سجيناً معتقلاً .. والذين كانوا يعلمون جاعوا للثبته في هدوء كأنهم يشاركونهم في التستر على السر .. وقد قضى منير في البيت أياما يعيش الحنان والحب العائلي الذى افتقده شهورا طويلة ويختار الكلمات المضحكة التى كانت تحدث داخل السجن ويحكىها لهم ليضحكوا معه .. يريد أن يخفف عن أمه وأخواته البنات صورة ما كان يعانیه .. ولم يكن والده يهتم بمحكايات السجن .. كان ينظر في وجه ابنه بعينيه المتعبتين العجوزتين ويردد .. يجب أن تكون حريصا على نفسك أكثر .. إن الدنيا في مصر تتغير كأننا مقبلون على حياة جديدة .. والحياة الجديدة في حاجة إلى طريق جديد تسير فيه ..

وكان منير مقتنعا بأن مصر بدأت تعيش حياة جديدة .. ولكنه لم يكتشف الطريق الجديد الذى يسير فيه .. إنه لا يسير داخل الأحداث ولكنه يتفرج عليها فما حاجته إلى البحث عن طريق جديد .. إن طريق الفرجة لا يتغير .. ولكنه رغم ذلك بدأ يعانى الحيرة في أيامه .. ربما ما جد عليه هو ما يفرضه عليه الخوف .. الخوف من أن يعود إلى السجن .. وقد بدأ يخرج من البيت إلى شوارع الحياة .. وكل من يصادفه ممن

يعرفونه يصيحون فيه .. أين كنت يا رجل ؟ .. مضت شهور ونحن لا نراك ولا نسمع عنك .. هل كنت مسافرا إلى الخارج ؟ .. ويرد منير ساخرا .. تقريبا .. كنت مسافرا ..

وذهب إلى صديقه عبد الله الذى يدين له بفضل الإفراج عنه .. يدين لشهامته التى عاش فيها طول حياته منذ كان طالبا في المدرسة الابتدائية وتحولت زمانه له إلى صداقة العمر .. وألح عليه عبد الله أن يبدأ في زيارة شخصيات الإخوان الذين سعوا للإفراج عنه .. وقال منير مترددا :

— إنهم سعوا لك ويكفى أن تزورهم أنت ..  
وقال عبد الله مصمما :

— إنهم كانوا يسعون لك أنت وليس مجرد أنك صديقى .. إنهم يعرفونك ويقدرونك .. بل إن الأستاذ منصور أحمدين يعتريك من الإخوان رغم كثرة مناقشاتك معه ..

وقال منير في رجاء :

— إنى خرجت من السجن متعبا وأريد أن أبتعد عن المجالات السياسية على الأقل إلى أن أستريح ..

وقاطعه عبد الله ببراءته التى تصل إلى حد السذاجة :

— إن الإخوان ليسوا مجال سياسة .. إننا مجال الإيمان بديننا وما يفرضه الله على المسلمين ..

وقال منير في أسى :

— حتى المؤمنين قد يصل إليهم الاعتقال والسجن لمجرد أنهم مؤمنون بالله ..

وصاح عبد الله بسذاجته :

— لن تستطيع يد كافر أن تمس أحدا من الإخوان .. إن هذه الثورة هي ثورتنا ولم يعد ينقصها إلا إعلان شريعة الإسلام .. ولنا مندوبون عنا في مجلس القيادة .. وكل الضباط والجنود الذين منا أصبحوا هم أصحاب الكلمة .. علاوة على أن الإخوان هم كل المسلمين .. هم الأغلبية الشعبية الكاسحة ..

واستمع منير إلى كلام عبد الله وهو مشفق عليه .. إنه يعلم أن فكره لا يتسع لأي تقدير سياسى صحيح .. وهو لم ينضم إلى الإخوان سياسيا ولكنه انضم إليهم تبركا .. ويحضر اجتماعاتهم بنفس الروح التي يحضر بها اجتماعات المصلين في جامع الحسين .. ويكرر ما يسمعه منهم كأنه يكرر أحاديث شريفة .. ويتبرع لهم بأمواله كأنه يدفع الزكاة .. إنه مجرد شخصية متدينة عميقة الإيمان بالدين .. وقد اضطر أن يستجيب لإلحاحه بأن يزور الشخصيات الإخوانية بعد أن اقتنع باختصار بعضهم .. وكان خلال هذه الزيارات يكتفى بكلمات الشكر ولا يدخل في أى مناقشة كما كانت عادته .. ويستمع إلى كل منهم كأنه يستمع إلى محاضره يلقيها أستاذ في الراديو دون أن يستزيد الأستاذ أو يسأله أو يناقشه .. وقد أراد صديقه عبد الله بعد ذلك أن يقيم دعوة غداء يدعو إليها الشخصيات الإخوانية وبعض تجار الحمى احتفالا بالإفراج .. ولكن منير رفض إقامة هذه الدعوة أو هذا الحفل وأصر على الرفض واكتفى بدعوة خاصة للأستاذ منصور أحمدين لتناول الغداء على مائدة عبد الله .. إن منير أصبح يعاني الخوف .. والخوف يدفعه إلى كل هذا الحرص في تحركاته واتصالاته .. وقد استطاع في هذه الأيام أن يفتق صديقه عبد الله بأن يتولى بعض موظفى الدكان وعماله توصيل الخطابات التي حملها من السجن إلى عائلة كل سجين .. إنها لا شك

عائلات مفروض عليها الرقابة وهو أيضا مراقب وقد تتصور المخابرات أنه يتصل بها لتنفيذ خطة مؤامرة جديدة .. كما أنه كلف صديقه عبد الله بأن يقوم بالاتصال تليفونيا بعائلات المساجين الذين أعطوه أرقام تليفوناتهم .. لا شك أن كل هذه التليفونات مفروض عليها الرقابة .. وهو واثق أن صوت صديقه عبد الله ليس معروفا ولا مسجلا لدى المخابرات ..

وبدأ منير يتردد على مكتبه .. مكتب الحمامة .. لقد مضت سبعة شهور فقط منذ غاب عنه ولكنه أحس بعد أن دخله كأنه غاب عنه سنوات .. بل أحس كأن شخصيته كمحام قد ضاعت منه وأن عليه أن يبحث عنها حتى يستعيدها .. وأخذ يقلب في أوراق القضايا ويتصل بأصحابها ليبلغهم أنه عاد إلى العمل .. واحترار بينهم .. إن بعضهم يعتقد أنه كان مسافرا إلى الخارج ويتركه على اعتقاده .. وبعضهم يعلم أنه كان معتقلا ولكن مادام قد أفرج عنه سرعيا فالثورة اعتبرته بريئا أو غفرت له .. وهناك البعض الذين سحبوا قضاياهم من مكتبه وحولوها إلى مكاتب أخرى .. ثم إن منهم — وخصوصا من رجال الأعمال — متفائلين جدا ويحاولون توسيع أعمالهم .. ومنهم وخصوصا من أصحاب الأرض متشائمون جدا وكل ما يسعون إليه هو بيع الأرض قبل أن تؤخذ منهم .. وهو وسط هذه الحيرة العامة يحس أن مهنة الحمامة كلها تهتز وتكاد تسقط وتختفى في قاع كما بدأت تختفى محال صناعة الطرايش بعد أن أغشى الطربوش كغطاء الرأس المصرى .. لعله كان يتنبأ بالغيب عندما أصبحت الحمامة بكل جلالها مجرد وظيفة حكومية .. عندما أصبحت العدالة كلها ليست حقا إنسانيا ولكنها أصبحت أيضا مجرد مصلحة حكومية ..

وخلال هذه الأيام كانت دلبر تعيش في فكره وإحساسه .. حبه

الوحيد .. لعلها لا تعلم أنه قد أفرج عنه .. ويجب أن يتصل بها .. ولكنها  
أخت كمال الروزنامجي وزوجة عادل السلانكلي وكلاهما معتقل .. وقد اعتقل  
هو بسبب صداقته لهما .. ربما اعتقل بسبب حبه لهما .. ثم لا شك أن  
تليفونها مراقب .. تليفون عائلة من أكبر العائلات الإقطاعية وأفراد منها تحت  
الاعتقال .. ثم إنه لا يدري إذا كانت لا تزال تقيم وحدها في بيت الزوجية أم  
انتقلت إلى قصر الروزنامجي لتعيش مع أمها .. فأين يتصل بها ؟ ..

وقاوم معاناته .. معاناة الحب .. حتى لا يتصل بها .. ولكنه كان يسير  
يوما في الشارع ودلبر مسيطرة على فكره وإحساسه ودون أن يحاول المقاومة  
دخل إلى أقرب تليفون صادقه واتصل بها .. وسمع صوتها .. إنها لا تزال تقيم  
في شقتها بعمارة شارع الجبلية .. شقة الزوجية .. وما كاد يقول .. ألو ..  
حتى صرخت :

— منير ..

وقال بصوت أعلى من صوتها كأنه يحاول أن يغطي على ذكر اسمه الذي  
نظقت به :

— أختي تحميك .. وتقول إنها في انتظارك اليوم الساعة الثامنة في آخر  
الشارع لتذهب معك في سيارتك لزيارة والدتك .. ومع السلامة ..  
ولا يدري هل فهمته أم لا .. لقد أراد أن يتحايل حتى لا تفهم الرقابة  
المفروضة على التليفون أنه يريد لقاءها في آخر شارع الجبلية .. وأن تأتي  
إليه بسيارتها كما كانا يلتقيان أيام زمان .. أيام بكاره حبيبا .. فهل  
فهمته ؟ ..

وذهب إلى انتظارها .. لقد فهمته فعلا وجاءت إليه تقود سيارتها ..  
وكانت فرحتها فرحة يغلبها الأسمى والهموم والضياع والحيرة .. فرحه يضح فيها

الآنين .. وقد بدأ يطمنها على حال أخيها وزوجها وهما في معتقل صحراء  
الواحات .. ولكن لا يبدو عليها الاهتمام بحال أخيها أو زوجها .. إن كل  
ما تهتم به هو حالها هي .. لقد أصبحت في منتهى حالة اليأس .. وهي تريد  
أن تهرب من مصر كلها .. تريد أن تسافر إلى الخارج .. حتى لو سافرت  
بلا ولا مليم تحمله معها .. إنها تعرف بعض الناس في لبنان وفي باريس ..  
وفي لندن .. وتريد أن تسافر حتى لو اضطرت أن تعمل خادمة في  
الخارج .. وقال مشفقا عليها :

— لم تعد هناك حرية السفر إلى الخارج ..

وقالت وهي تكاد تبهم بالبكاء :

— أعرف .. ولكن الأميرة فائزة استطاعت أن تسافر من مصر .. وقيل

إن الذي ساعدها ضابط من القيادة اسمه البكباشي عزت ..

وقال في قرع ساخط :

— دعى البكباشي عزت يساعذك أنت أيضا ..

وقالت وقد بدأت دموعها تنزف على خديها :

— إني مستعدة أن أرتجى على أي رجل حتى أسافر .. ولكني قبل أن

أعاني ما عانته فائزة حاول أن تساعدن أنت .. البحث لي عن طريق آخر

للسفر .. لقد كنت قد فقدت الأمل في أي طريق آخر ولكن بعد أن عدت

إليّ عدت أتعلم بالأمل ..

وقال بصوت يائس بعد أن جفف دموعها بشفتيه :

— سأحاول ..

واستمر حديثهما الممزق الحائر وهما مختبئان في السيارة واتفقا على موعد

اللقاء آخر حتى لا يضطرا إلى حديث التليفون ..



واتفق منير مع زميل قديم يعمل في مكتب محاماة الأستاذ الكبير عبد الهادي برعي الذي قضى فيه فترة التمرين على المحاماة .. اتفق معه على البحث عن طريق قانوني سليم يوفر للدليبر السفر إلى الخارج .. وأوصى دليبر بالاتصال به .. إنه لا يريد أن يقوم بهذه المهمة بنفسه حتى لا يعرض نفسه للشبهات ويحتقل من جديد ..

وقد استمرت اللقاءات بينه وبين دليبر .. بل إنهما في مرة اتفقا على أن يلتقيا في مكتبه .. وكان قد ترك بيت العائلة وأقام في المكتب حتى يبعد عن أفراد العائلة خوفه وحيرته وما قد يتعرض له من احتمالات .. وكان لقاء أعداء له وخطوطا حتى يهربا من المراقبة .. إن كلا منهما يحس بحاجة إلى الآخر بعد هذا الحرمان الطويل .. ولكنهما عندما التقيا فوق الفراش أحسا كأن جسد كل منهما يركب مع جسد الآخر .. حتى لو كانت الدموع دموع متعة .. ولم يستطع زميله المحامي أن يحصل لدليبر على إذن بالسفر إلى الخارج .. مستحيل .. وتلقت دليبر صامتا ثم قالت لمنير وهي تبتسم ابتسامة مرة :

— إن أختي نسليلار تعرفت إلى ضابط اسمه الصاغ هاشم .. وتقول إنه ضابط مهم وسيحصل لها على إذن بالسفر ..

ثم لم تزد ولا كلمة وابتسامتها المرة معلقة فوق شفتيها ..

حتى أختها نسليلار التي كانت معروفة بالمعجزة والتكبر على كل البشر نزلت إلى السوق الجديد تبحث عن ضابط إلى أن وجدت واحدا .. هل تلتقى دليبر أيضا بنفسها في السوق .. سوق الرقيق .. سوق الجوارى .. بعد أن وصلت إلى منتهى اليأس ؟ .. إنها لا تقول شيئا .. ومنير لا يسألها ولا يحاول أن يعرف .. حتى حبه أصبح مستسلما للقدر ..

ومرت شهور ومنير يتفرج من بعيد على ما يجري في مصر .. إن الاعتقالات بدأت تشمل كل الأحزاب .. وكل الشخصيات التي عاشت الحركة الوطنية .. إنه يستتج أن الثورة بدأت تقضى على كل ما كان موجودا قائما .. دون أن يستطيع أن يتصور ما أعدته من جديد مكان القديم .. إلى أن بدأ الانقسام داخل مجلس قيادة الثورة نفسه .. قامت معركة في داخلها .. معركة عنيفة .. والأحداث والقرارات تتغير يوما بعد يوم .. يوم تقضيه مصر وشعبها في منتهى الحرية .. ويوم يقضيه كل فرد من أفراد الشعب مكبلا بالأغلال .. وهو مع كل هذه الأحداث لا يؤيد ولا يعارض .. إنه فقط متفرج .. بل إنه حرم على نفسه التفكير السياسي فلم يجد ولو خيطا رفيعا يستطيع أن يطلق به فكره ليصل إلى التنبؤ بالمستقبل .. بل إنه توقف عن الاتصال بأحد من أصدقائه أو ممن يعرفهم وأبعدهم جميعا عن زيارته في مكتبه .. لم يعد يتردد إلا على صديقه عبد الله عبد اللطيف .. إنه رغم أنه من الإخوان المسلمين إلا أنه ليس شخصية هامة ولا معروفة بينهم .. ولا علاقة له بأي تحرك من تحركاتهم .. إنما فقط يتبرع لهم من أمواله .. وهو يستريح إلى التردد عليه في محل بيع الأقمشة .. إنه طول حياته لا يستريح إلا في جلسة ساعة مع صديقه عبد الله ..

إلى أن فوجئ في ليلة بطرقات عنيفة على باب مكتبه .. إنها طرقات أعنف مما ينتظر حتى تكاد تكسر الباب .. وقام فرعا من النوم وفتح الباب .. إنه ضابط وبضعة جنود .. إنهم يقبضون عليه مرة أخرى .. والضابط أعنف من الضابط الآخر الذي سبق أن قبض عليه .. وصاح وهو يلقي بكفه الثقيلة على كتفيه :

— معنا يا أستاذ ..

البلد كلها .. ويأكل السلطة .. ويأكل بنى البشر .. وكانت القيادة العليا كأنها تأكل الإخوان المسلمين وتمزقهم بكل ما فى الحيوان من فك الأنياب والمخالب .. ولم يكن الإخوان يفكرون فى تنظيم أنفسهم داخل المعتقل ولم يصلوا إلى أسلوب علمى للتعامل مع ضباط وجنود السجن كما كان يفعل الماركسيون فى سجنهم حتى يقنعوهم بالتخفيف من تعذيبهم .. إنما كان كل اعتمادهم على إيمانهم بالله .. ويتحملون العذاب كأنه يقرهم من الله ويرتفع بهم فى طريقهم إلى الجنة .. وكل لحظاتهم التى تمر بهم بعيدا عن مخالب الحيوان كان لا يشغلهم فيها إلا الصلاة وتلاوة القرآن .. وكان من بينهم شخصيات بارزة تلبو كأنها تتولى قيادتهم .. ولكنهم لم يكونوا قادة منظمين مخططين ولكنهم كانوا كأنهم أئمة .. كل إمام يقف بالمسلمين ويجلس بهم لتلاوة القرآن ..

ولم يكن ضباط وجنود السجن الحرنى يتركونهم لله ولو هذه اللحظات .. كانوا يهجمون عليهم وهم يؤدون الصلاة وينالون عليهم ضربا بالكراييح وأكعاب البنادق كأنهم ضباطهم فى مؤامرة .. مؤامرة مع الله .. وقد حدث أن كان منير يصلى مرة وحده .. لقد أصبح مفرطاف الصلاة .. ولم يعد يجد ما يخفف عنه إلا هذه اللحظات التى يسلم بها نفسه لله .. وإذا بقدم جندى ترتفع أمامه بالحذاء الثقيل ثم تهال عليه ركلا حتى يسقط على الأرض .. وصاح الجندى :

— إذا كنت تريد الصلاة فصل لسيدك ..

وقال منير كأنه يشهق آخر أنفاسه :

— إني أصلى لله ..

وصاح الجندى :

وقال وهو يتلوى تحت قبضة الضابط كالفرخة التى يعدونها للذبح :  
— هل أستطيع أن ألبس ملابسى ؟ ..

وصاح الضابط صريحة ساخرة :

— لا يا أستاذ .. هكذا يكفى ..

وجروه وهو مرتد بيجامة النوم إلى السيارة التى تنتظر فى الشارع وكانت مزدحمة بغيره من المعتقلين لا يعرف أحدا منهم .. ووقف بينهم وكلهم ينظرون بعضهم إلى بعض دون أن يتفوهوا بكلمة ..

وانطلقت بهم السيارة فى طريق طويل إلى أن دخلت بهم إلى سجن عرف فيما بعد أنه السجن الحرنى التابع للجيش مباشرة .. ودون أن يمر على مكتب أو على مسئول جروهم جميعا وألقوا بهم فى زنزانة واسعة .. وشهق دهشة ..

إن معه فى الزنزانة صديقه عبد الله عبد اللطيف والأستاذ منصور أحمدين وكثيرين ممن يعرفهم من الإخوان المسلمين .. لقد اعتقل هذه المرة مع الإخوان ..

واحتضنه عبد الله وهو يقول وكله يرتعش من صدمة المفاجأة :

— وأنت ما ذنبك يا منير .. لماذا حشرك بيننا ؟ ..

وقال منير من خلال الإبتسامة المرة :

— إننا دائما معا يا عبد الله ..

وقضى كل أيام السجن وهو فعلا مع عبد الله .. لا يبتعد عنه .. وهو مستسلم لقدره استسلاما كاملا منطلقا مع طبيعته كمتفرج .. ولكنها كانت فرجة مريرة معذبة .. إنه يتفرج على أشبع ما فى الحياة .. عندما يصبح الإنسان يقوده حيوان .. والحيوان لا يعرف إلا أن يأكل .. يأكل

— الله الذى يمرضكم قبضنا عليه وأعدمتاه .. الله الواحد الذى يستطيع أن يفرض عليك أمره هو الرئيس .. فغير اتجاه القلعة حتى تثبت إيمانك ويرضى عنك .. إن الله الذى تصلى له لن يفرج عنك فصل لمن يفرج عنك ..

وأشار الجندى بأصبعه ناحية القلعة الجديدة التى يريد أن يصل لها .. ناحية حتى منشية البكرى .. ناحية مجلس قيادة الثورة ..

وسكت منير متحملا الركلات ..

وكان كل ما يشغل منير داخل السجن هو حال صديقه عبد الله .. إنه يتحمل السجن وتحمل العذاب الذى يصب عليه وهو ساهم كأنه لا يحس به .. إن كل فكره وكل إحساسه محصور فى مصير عمله التجارى ومصير زوجته وأولاده .. إنها المرة الأولى فى حياته التى يغيب عن محله وعائلته .. لم يكن يغيب عنهم من قبل ولو يوما واحدا .. وتمضى الشهور وهو غائب عنهم .. وكان لا يصارح أحدا من أصدقائه المعتقلين بحالته إلا منير عندما يتخلى به .. وكان منير يحس دائما أن عبد الله بهم بالكاء .. ولكنه لم يكن يبكى أبدا أمام أحد .. ولا حتى أمام رجال السجن وهم يعذبونه .. كانت قوة رجولته وشهامته تتحمل كل شيء بلا بكاء .. لن يكون أبدا ضعيفا إلى حد أن يبكى .. ولكن منير استيقظ مرة فى أواخر الليل وهو راقد بجانب عبد الله على أرض الزنزانة وسمع صوت دموعه تنهمر على خديه .. ولم يعد عبد الله يتحمل .. لقد ثار مرة فى وجه السجنائين وأخذ يشتمهم .. يا كفرة .. يا مجرمين .. يا أولاد الكلاب .. وعندما انهالوا عليه بالكرايح تصدى لهم وأخذ يضرب فيهم لا دفاعا عن نفسه ولكن ثورة عليهم .. حتى عندما جاء الضابط استطاع أن يصل بذراعه إليه ويضربه ..

إنه قوى .. وبقية الإخوان يتفرجون من بعيد وهم يدعون له بالهداية ويرسلون له من داخل صنوبرهم آيات من القرآن .. إلى أن انتهت المعركة الصغيرة وأخذ الجنود عبد الله واحتفوا به ..

ولم يعد عبد الله ..

لقد صبا عليه العذاب حتى قتله .. مات عبد الله قبل أن يحاكم على اعتقاله ..

وأحس منير كأن كل شيء فى حياته قد انتهى .. أحس كأنه صاحب مع عبد الله .. وعاش أكثر استسلاما دون أن يخفف عن نفسه بالفرجة .. لا شيء يتفرج عليه وهو فى القبر .. بل إنه لم يعد يتكلم ..

وقد مضت ثلاث سنوات وهو داخل السجن .. إن سجنه مع الإخوان كأنه لن ينتهى .. ليس كسجنه مع الماركسيين الذى لم يستمر سوى شهر .. وكانوا ينقلونهم من سجن إلى سجن .. نقلوهم من السجن الحرفى إلى سجن طرة .. ثم نقلوهم من سجن طرة إلى سجن أف زعيل .. إلى أن كان يوم واستدعى إلى مكتب المأمور .. وفقر فاه دهشة .. إن حول مكتب المأمور يجلس صديقه كمال الروزنامجى وصديقه خليل أحد أفراد الشلة الماركسية .. ولكنها دهشة لم تنطلق بمثل الفرحة التى انطلقت منه عندما شاهد صديقه المرحوم عبد الله فى وزارة الداخلية عندما أفرج عنه بعد أن اعتقل أول مرة .. وكان قد سمع وهو فى السجن عن أن الثورة بدأت تفرج عن الماركسيين ولكنه لم يكن يتصور أنهم خرجوا من المعتقل ليعملوا مع الثورة .. ويحتلوا من النفوذ والقدرة إلى حد أن يستطيع كمال زيارته فى السجن .. واحتضنه كمال و خليل .. وقال رجل آخر كان يجلس بجانب المأمور لعله مندوب المخابرات :

— مبروك يا أستاذ منير .. لقد أفرج عنك ..

وقال في صوت خافت :

— شكرا ..

وعاد الرجل يقول :

— لقد تأكدنا أنك لست من الإخوان .. وإن كنا قد تأخرنا إلى أن

تأكدنا .. أسفون ..

وقال منير كأنه يحدث نفسه :

— لم أكن أبدا إخوانيا ..

وقال الرجل كأنه يدافع عن المخابرات :

— ولكنك كنت متصلا بهم وصديقا للكثيرين منهم ..

وقال منير وهو يتنهد في أسى :

— كنت صديقا للمرحوم عبد الله عبد اللطيف .. ولم أكن أستطيع أبدا

أن أستغنى عن صداقته .. حتى بعد أن مات وهو معنا في المعتقل فلا زلت

اعتز بصداقته ..

وسكت الجميع كأنهم لا يريدون أن ينظروا إلى عورة من عوراتهم

كشفت أمامهم .. وتمت إجراءات الإفراج بسرعة .. وودعه بقية المعتقلين

من الإخوان بلا فرحة ولا تعليق ودون أن يطلب منه أى واحد خدمة يؤديها

له بعد الإفراج .. إنهم في منتهى الاستسلام للقدر .. ربما حتى لو أفرج عنهم

جميعا فلن تسودهم الفرحة أبدا .. كلها أحكام الله إلى أن يدخلوا الجنة ..

وقال له صديقه كمال وهو يجلس بجانبه في سيارته التي يقودها ومعهما

صديقه الآخر خليل وضابط المخابرات .. إنه ضابط مباحث .. وليس

ضابط مخابرات عسكرية .. لأنه صحبهم يومها إلى وزارة الداخلية لإتمام

إجراءات الإفراج .. قال كمال :

— لقد كنت أقول لهم .. كيف يعتقل منير مع الإخوان وقد سبق أن

اعتقل معنا باعتباره ماركسيا ؟ ..

وقال منير كأنه يسخر من نفسه :

— إنه نصيب كل من يؤمن بالحرية .. حرية الجميع .. وكل ما يصيب

أى جانب يصيب هذا الذى يؤمن بالحرية .. إنى لا أعتقل لأنى ماركسى أو

لأنى إخوانى .. بل لأنى أومن بالحرية ولن أضمن سلامتى إلا إذا كفرت

بالحرية ..

إنها لهجة جديدة يتكلم بها منير .. وقال له كمال مشفقا عليه :

— لا تقل هذا الكلام .. ستبقى دائما حرا كما كنت ..

وتمت بقية الإجراءات في وزارة الداخلية بسرعة .. وحمله كمال وخليل إلى

بيت عائلته وقال له وهو يودعه :

— سأراك غدا :

وقال منير مبتسما :

— بعد غد .. إنى لا أعرف بعد كيف أنام على سرير بعد أن تعودت

النوم على الأرض ..

وفوجئت العائلة بظهوره بينهم .. لقد خرجت الجنة من القبر وعادت إلى

الحياة .. ولكن المفاجأة كانت أهدأ من المفاجأة التي شملتهم عندما أفرج

عنه بعد الاعتقال الأول .. ودموع وقبلات الفرحة كانت أيضا أهدأ ..

كأنهم أصبحوا مستسلمين إلى أن هذا هو نصيب ابنهم الوحيد .. وبدأ كما

هى العادة يحكى لهم عن سنوات السجن دون أن يجسم مالاقيه من

عذاب .. وبدعوا يحدثونه عما مر بهم من أحداث .. ووالده العجوز يستمع

صامتاً .. ولم يقل إلا كلمة واحدة هي نفس الكلمة التي سبق أن استقبله بها وهو خارج من السجن :

— الدنيا تغيرت أكثر يا منير .. واحسب حسابك لتغير معها ..  
وقال منير متنبها في بأس :  
— ربنا يستر يا أبنى ..

وعندما دخل غرفته ليبدل ثيابه دخلت معه أمه ورأت على ظهره خطا أحمر طويلا .. إنه خط تركته لسعة كراباج .. وانحنت تقبل آثار التعذيب ودموعها في عينها دون أن تنطق بكلمة ..

ونام .. كأنه لم يتم أبدا طوال هذه السنوات الثلاث ..  
وقام في الصباح وخرج من البيت دون استئذان وانجه كأنه يجرى إلى محل بيع الأقمشة الذي كان يملكه صديقه المرحوم عبد الله عبد اللطيف .. إن أحاه الأكبر أحمد هو الذي يدير المحل الآن .. واستقبله في برود .. وقال له منير :

— البقية في حياتك ..

وقال أحمد في برود :

— لقد علمنا بخبر وفاة المرحوم ..

وقال منير كأنه يهيم بالبكاء :

— إني لم أكن صديقا للمرحوم وحده .. بل صديقا للعائلة كلها .. وأنا

تحت أمر العائلة في كل ما تريد ..

وقال أحمد كأنه يطرده :

— أنا لست كالمرحوم أخي .. لا يهمني سوى المحل .. ولا دخل لي في

السياسة ولا علاقة لي بالإخوان .. ولا أحب أن أعرض نفسي للشبهات ..

إنه يطرده من الاقتراب منه أو من العائلة ..

وابتعد حزينا .. لقد مات كل ما كان يربطه بصديق العمر عبدالله .. لم

تبق منه إلا ذكريات يعيش فيها وحده ..

وسار يبحث عن صديقه كمال .. إن قصر الروزنامي قد صودر وأصبح

للحكومة .. ولم تعد الشلة تجتمع في مقهى الأسبوطي كما كانوا يجتمعون أيام

زمان .. واحتار أين يجد كمال ؟ .. وتذكر أن صديقه خليل قد قال له إنه

أصبح موظفا في وزارة الثقافة .. فذهب يبحث عنه هناك .. إن كل أفراد

الشلة أصبحوا موظفين .. وهم موظفون لهم نفوذ والوزير في كل وزارة يعتمد

عليهم .. وقد وجد خليل وأخذته للقاء كمال .. إنه يقيم الآن وحده في شقة

صغيرة .. وقال له ضاحكا :

— لقد اتفقنا أن أتركك تمام حتى الغد ..

وقال منير وهو يبادل الضحك :

— ليلة واحدة تمت فيها على سرير كانت تكفي لأعود إلى الحياة ..

وبدأ يلتقي بأفراد الشلة .. التقى بعادل السلانكلي وسأله خلال

الحديث في لهجة رسمية وقد عاد قلبه يبيض من جديد :

— كيف حال زوجتك ؟

وقال السلانكلي ضاحكا :

— سافرت منذ سنوات .. إنها تقيم الآن في بيروت .. وقد أذهب إليها

قريبا ..

وابتسم منير في حسرة .. لا بد أنها وجدت البيكاشي أو الصاغ الذي

أتاح لها أن تسافر كما فعلت الأميرة فائزة وأختها نسليلار .. يجب أن يتخلص

من كل فكره وإحساسه بها .. يتخلص حتى من ذكرياته معها .. إذا كانت

قد بقيت ذكرياته مع صديقه المرحوم عبد الله فلا يجب أن يبقى على شيء من حبيبته دلب .. ورغم ذلك تعود آماله ترحف عليه .. هل يستطيع أن يذهب إليها هو الآخر يلتقى بها في بيروت كما يأمل زوجها ؟ ..

وتمر الأيام وهو يلتقى بأفراد الشلة الماركسية .. لقد أصبح لهم فعلا نفوذ كبير في الدولة .. طبعاً بعد أن احتل الاتحاد السوفيتى مصر .. وهم يعرضون عليه أن يتولى وظيفة ذات قيمة .. وهو نفسه بدأ يفكر واقعياً .. والواقع يفرض عليه أن يعلن أنه ماركسى حتى يضمن على الأقل القوة التى تحميه من الاعتقال .. ولكنه لا يزال يرفض الوظيفة ويرفض الانضمام لأى حزب .. إنه بذلك يعتقل نفسه في سجن أعنف من السجون التى كان معتقلاً فيها .. إن السجون إذا كانت تحرم حرية الحركة فهى جرية لا تحرم حرية الفكر .. إنك داخل السجن تستطيع أن تطلق فكرك لما تريد حتى وأنت مقيد الجسد .. أما الوظائف والأحزاب فهى تحرمك من حرية الفكر حتى لو أطلقت حرية جسدك .. حرية السير على قدميك .. لذلك كان يتعد عن كل أصدقائه الذين يصبحون من كبار الموظفين .. بل ابتعد عن واحد منهم أصبح وزيراً ..

وقد رفض كل الوظائف التى عرضها عليه الماركسيون .. وقد لاحظ أن صديقه كمال روزنابجى ومعه عادل السلانكى .. لم يوضعا في وظائف رئيسية مهمة .. لعلهما رغم صدق ماركسيتهما ورغم إنهما أيدا مصادرة قصورهما وأرضهما .. وأرادا أن يؤكد إيمانها بأن العدالة الاجتماعية التى تسود الشعب حتى لو ضحيا بأمل كليهما ومصالحهما الخاصة .. رغم ذلك فهما لا يزالان ينسبان إلى أن كلا منهما ابن باشا قديم .. لذلك لا يستطيع أى قيادة أن تظهر اعتمادها عليهما .. واكتفى المسئولون بتعيينهما هما الاثني

محررين في إحدى الصحف ..

وظل يرفض الوظيفة ويرفض إعلان أنه أصبح ماركسياً .. ولكن الماركسيين لا يزالون محتفظين بصداقته .. إنهم يؤمنون بأنه صاحب رأى يستفيدون منه .. إنه دائماً مستشار لهم حتى لو لم يكن منهم .. ويساعدونه بأن يمدوه بقضايا لها أتعاب ضخمة ويقنعونه بأن ينضم إلى لجان بعيدة عن الحكومة لها مكافآت محترمة ..

ولكن الاتجاه نحو الواقعية لا يزال يراوده .. إنه لو كان أكثر واقعية فلماذا لا ينضم للحزب الرسمى .. حزب الثورة والحكومة .. أى ينضم إلى الاتحاد القومى ؟ .. إن الماركسيين فضوا حزبهم وأعلنوا انضمامهم إلى الاتحاد القومى الذى تطور وأصبح يحمل اسم الاتحاد الاشتراكى .. رغم أنهم لا يزالون ماركسيين .. ثم من أدراه بمصير هؤلاء الماركسيين ؟ .. قد تغير الأحوال من جديد ويعتقلون ويعتقل معهم .. إنه ليكون أكثر واقعية فالطريق الوحيد هو أن ينضم إلى حزب أو تنظيم الاتحاد القومى .. ولكنه لا يستطيع ..

إن فكره لا يستطيع أن يتحول ويخرج به عن طبيعته .. طبيعة المتفرج ..

بل إنه لا يستطيع بعد كل ما عاناه أن يلجأ إلى صديق صباه وجاره وابن الحنطة .. البكباشى معتز الجنيدى .. إن معتز لم يعد يعرف الآن رتبة البكباشى .. لم يعد يعرف بأى رتبة عسكرية .. ولكنه أصبح يتولى مركزاً مهماً ومسئولية واسعة من داخل مركز قيادة الثورة .. إن جمال عبد الناصر نفسه لم يعد يحمل أو يعرف بأى رتبة عسكرية .. لا بكباشى ولا فريق .. كذلك كل أعضاء مجلس القيادة ما عدا عبد الحكيم عامر بحكم مركزه

.. وكان منير في منتهى السعادة بلقاء أصدقاء الصبا أبناء الحى .. إنهم كلهم ناجحون في الحياة مع اختلاف درجة نجاحهم .. كلهم وصلوا إلى فوق وأعلامهم هو ما وصل إليه الصديق معتر الجنيدى .. إنه صاحب مكتب من مكاتب قيادة الثورة .. وإن كان لا أحد يدري مهمة هذا المكتب .. أهو سكرتير .. أم مستشار .. أم قائم بالأعمال .. وأعمال من ؟ .. أعمال عبد الناصر أم أعمال المشير عبد الحكيم عامر ؟ .. لا أحد يدري مهمته بالضبط .. ولكن الجميع يعلنون أنه أصبح مهما جدا وسلطاته تمتد إلى كل شبر في الدولة وتقوده يصل إلى أى مكان منها .. وكان منير خلال الدعوة يخطف اللوحات إلى معتر .. لقد تغير عما كان في صباه .. لقد كان معروفا في الحى بانزواته وحججه وسكوته وعدم إقدامه على الاشتراك في ألعاب الحى أو في الحناقات .. إلى أن اختفى عن الحى كله بعد أن التحق بالكلية الحربية وبعد أن تركت عائلته الحى إلى حى آخر .. وظل مخفيا مجهولا إلى أن قامت الثورة فبدأ اسمه يظهر من بعيد .. ثم بدأ هذا الاسم يقترب حتى أصبح من أسماء الصف الثانى بعد صف أعضاء مجلس القيادة .. إلى أن أصبح اسمه يتردد حتى مع أسماء مجلس القيادة .. ووصل إلى كل هذه السلطة وهذا النفوذ .. وهو يجلس الآن بين أصدقاء الصبا بشخصية أخرى .. شخصية معتزة بنفسها وكأنه يتباهى بنجاحه وشطارته وذكائه .. وهو ليس خجولا ولا منزويا كما كان .. إنه يفرض شخصيته .. ويبدأ في الأسئلة .. ثم يقدم من عنده تفاصيل كثيرة عن كل ما يتعرض له

كقائد للجيش لا يحكم عضويته لمجلس القيادة .. لذلك فليس غريبا أن يصبح زميل صباه معتر الجنيدى بلا لقب عسكري لأنه أصبح يحمل مسئولية سياسية رئيسية .. وهو لو أراد أن يكون واقعا ويضمن الأمان طول العمر فيجب أن يبحث عن لقاء معتر ويعتمد على صداقة صباه .. ولكنه لا يستطيع أن يسجن نفسه داخل صداقة أحد كبار المسئولين .. لا يستطيع .. إنه لا يستطيع أن يتنازل عن حريته حتى باسم الصداقة .. ولكنه التقى صدفة بصديق آخر من أصدقاء الصبا وأبناء الحى .. إنه ممدوح رفعت .. وفرح ممدوح بلقائه كما فرح به هو .. إنه أصبح الآن موظفا كبيرا يتولى مسئولية عدة مصانع .. وقال له ممدوح إنه قرر إقامة دعوة لكل أصدقاء الصبا أبناء الحى الذين لا يزال يلتقى بهم .. وهو يدعو .. وقبل منير الدعوة مرحبا .. وقال له ممدوح كأنه يتباهى بنجاح الدعوة : — ستلتقى بصديقا معتر ..

والتقى بمعتر الذى وصل إلى أكبر مركز وصل إليه واحد من أبناء الحى ..

حديث .. ولكن الواقع أن هذه الشخصية تحتفظ بأنها شخصية رجل مهذب .. مؤدب .. نظيف اللسان والكلمات ..

وقد بدأت الدعوة بين أصدقاء الصبا بتبادل الذكريات والضحك طويلا على نوادر كل منهم .. وبعد فترة بدأ كل واحد من المدعوين يقترب من معزز الجنيدي ويبدأ معه حديثا هامسا .. ربما كان يطلب منه .. أو يشكو إليه .. ولكن منير لم يحاول أن ينفرد بمعزز .. ولا حتى أن يحيطه باهتمام خاص يميزه عن باقي الأصدقاء .. إنه مجرد صديق آخر من أصدقاء الصبا الذين فرقت بينه وبينهم الأيام .. ورغم ذلك فقد كانت للمحادثات والابتسامات المتبادلة بينهما تعبير عن فرحة كل منهما بلقاء الأهمر .. وكأن ما بينهما من أحاسيس صداقة الصبا أقوى كثيرا مما بينهما وبين الآخرين ..

وكان معزز الجنيدي هو الذى بدأ الحديث الخاص مع منير أثناء تناول طعام العشاء الفخم الذى أعده هاجب الدعوة صديق الصبا مملوح رفعت .. وكانوا يحملون أطباق الطعام ووقفا بسبب زحام المدعوين .. واقترب معزز من منير وهو يحمل طبقه قائلا :  
— إنك لم تحاول أبدا أن تسأل عنى ..

وقال منير ضاحكا :

— إني أتبع ما ينشر من أخبارك دائما .. وكنت أدهش .. كيف استطاع الصبي الخجول معزز أن يسير في هذا الطريق الصعب ؟ ..  
وقال معزز ضاحكا وهو يسير بمنير بعيدا عن باقي المدعوين :  
— وأنا أيضا كنت أتبع أخبارك .. كانت أخبارك تصلنى .. وكنت أيضا أدهش .. كيف يمكن أن يكون الصبي الهادئ العاقل مرة ماركسيا .. ومرة إخوانيا .. ولا يكف عن التحرك في المجال السياسى ..

وقاطعه منير دون أن يدهش من أنه يعرف كل أخباره :  
— أنا لم أكن أبدا ماركسيا ولا من الإخوان ولا أى شيء آخر .. ولكن لعلك تذكر أنى منذ صغرى وأنا من هواة الفرجة .. وكنت معروفا بينكم بأنى أقرأ كثيرا .. وكنت أقرأ لأتفرج على ما تقدمه لى القراءة .. ثم أصبحت ألتقى بكل أصحاب الاتجاهات السياسية كأنى وجدت مسارح أخرى للفرجة عن طريق القراءة .. إني أصف نفسى دائما بأنى متفرج .. وإن كانت الفرجة قد كلفتنى كثيرا من المعاناة ..

وقال معزز مبتسما :

— لو كنت قد اتصلت لى فرما كنت أستطيع أن أنقلك من المعاناة .. وأنا لم أغبر رأبى فيك منذ الصبا ولكن عدم اتصالك لى جعلنى أشعر كأنك أنت الذى غيرت رأبى فى وأصبحت ترفض استعادة صداقتنا ..

وقال منير مبتسما :

— أبدا .. لم يتغير رأبى فيك رغم دهشتى بك .. ولكن مركز الآن يجعل كل من يتصل بك وكأنه صاحب طلب .. إما طلب ليحقق مصالح خاصة وإما طلب لإنقاذه .. وأنا لا أحب أن ألقاك كصاحب طلب .. أو إنى لم أعود أن أطلب .. إنى لا أطلب حتى أتعب القضايا التى أترافع فيها بل أترك صاحب القضية هو الذى يطلب منى أن أقبل ما يدفعه لى ..  
وقال معزز وهو يتناول الطعام من الطبق الذى يحمله بيديه :

— إنك مثالى .. ترفض الاعتراف بالواقع .. ولذلك عشت تعانى الواقع .. ولكن اسمع .. ليس كل ما يتصل لى من أصحاب المطالب .. وليست كل مهمتى استجابة أو رفض هذه المطالب الخاصة .. إن هناك قضايا عامة تخص مصر كلها وأحتاج فيها إلى الاتصال بمن يعينى فيها .. وقد



خطرت على بالي كثيرا لأعتمد عليك ..

وقال منير في دهشة :

— أى قضايا تقصد ؟

وقال معتر وهو يلقي الطبق من يده على المائدة :

— قضايا كثيرة .. وأنا أعلم أنك تقرأ كثيرا .. أو كما تقول عن نفسك  
تقضى حياتك متفرجا .. وأنا ليس لدى وقت للقراءة أو للفرجة وتستطيع  
أنت أن تشركني معك فيما تقرؤه وتتفرج عليه .. وليس هنا مجال الحديث .. هل  
أستطيع أن أراك غدا ..؟

وقال منير وهو متردد كأنه لم يفهم بعد ما يطلبه منه معتر :

— يشرفنى .. أين أراك ومتى ؟

وقال معتر وكأنه فرح :

— غدا في مكنتى .. الساعة العاشرة صباحا .. ( وتوقف برهة ثم

استطرد ) .. لا .. لنتلقى في بيتي وفي العاشرة مساء ..

وانتهى حفل لقاء أصدقاء الصبا ..

وفي مساء اليوم التالي كان منير جالسا مع معتر في بيته .. وبعد حديث

طويل عما يريد منه معتر .. قال له :

— أنت تعلم أن اتصالاتنا الرئيسية الآن مع الاتحاد السوفيتى .. وأنا أريد

أن أعرف كل شيء عن الماركسية .. لا كنتظرية ولكن كما هى مطبقة في

روسيا .. حتى أفهم وأقدر كيف أتعامل مع هذه الدولة الجديدة علينا ..

هل تعلم كيف تطبق الماركسية في روسيا ..؟

وقال منير مبتسما :

— إنها ليست مطبقة في روسيا ولا في أى مكان من العالم ، إنى قرأت

كثيرا وسمعت كثيرا عن النظم القائمة في روسيا ..

وحدثه منير كثيرا بكل ما يعرفه عن نظم الاتحاد السوفيتى .. وطالت

الجلسة حتى قرب الفجر .. وقال له معتر وهو يودعه :

— إن كل ما بيننا مجرد صداقة ليس لها أى صفة رسمية ما دمت لا تريد

منصبا ولا وظيفة .. اعتبر كأننا في كلية من كليات الجامعة أنت أستاذها

الوحيد وأنا طالبها الوحيد .. وطبعاً دون أن يعرف أحد شيئاً عن هذه الكلية

الجامعة القاصرة علينا ..

وخرج منير من لقاء معتر وهو سعيد .. يحس كأنه وجد طريقاً يستطيع

فيه أن يشترك في حكم مصر .. يشترك برأيه لا بمنصب يصل إليه ..

ومرت سنوات واتصاله بمعتر الجيندى لا ينقطع .. وظل هذا الاتصال

كأنه سر لا يعرفه أحد وإن كان الكثيرون قد بدعوا يكتشفون أن هناك

صداقة وطيدة تربطه بمعتر .. وهو ما فتح أمامه مجالا جديدا لعمله

كمحام .. إن كثيرا من القضايا التى أصبحت تقدم إليه لا يمكن أن يحلها

القضاء .. ولكن يمكن أن يحلها معتر .. وكان يرفض معظم هذه القضايا ولا

يقبل منها إلا ما يستطيع أن يطرق لحلها باب القانون والقضاء أو على الأقل

طريق السعى الشرعى ..

وكان معتر يتصل به عندما يطرأ عليه موضوع جديد يريد أن يستعين به

في دراسته .. وكان منير يقدم إليه ما يعرفه عن هذا الموضوع .. وكان أحيانا

يقرأ كتابا جديدا أو يبذل جهدا في البحث حتى يستكمل الموضوع الذى

يسأل فيه .. ولكنه كان دائما يقول رأيه الصادق في اقتناعه به .. ولم يكن يهمه

أن يأخذ معتر برأيه أو لا يأخذ به .. المهم أنه محتفظ بحريته في إبداء رأيه ..

وهو واثق أن معتر يقبل منه هذه الحرية ما دامت حرية مقصورة فيما يلزم

بينهما ولا تخرج إلى الشارع ..

وفي يوم قال له معتر :

— إني حائر .. فالفروض أنك الآن أستاذ جامعي أمام طالبك الوحيد الذي هو أنا .. والمفروض أن الأستاذ الجامعي له مرتب أو أتعاب .. فكيف أحدد أتعابك وكيف أدفعها لك ؟

وقال معتر هذا الكلام وهو يضع على المائدة أمام منير رزمة كبيرة من الأوراق المالية .. كلها أوراق من العشرة الجنيهات .. ونظر منير إلى الرزمة ساخرا ثم قال مبتسما :

— أنا لست أستاذًا .. ولا أقبل أن أكون بالنسبة لك أستاذًا .. إن كل ما أعتز به بيننا هو أننا أصدقاء .. والصداقة ليس لها مرتب ولا أتعاب .. وإلا حاسبتك على المتأخر من الأتعاب منذ كنا أصدقاء أيام الصبا .. وقال معتر ضاحكا :

— كنت واثقا أنك سترفض ..

ولكنه ترك رزمة الأوراق المالية أمام منير لعلها تغريه .. إلى أن انتهت المقابلة ..

وكان ارتباط منير بصداقة كمال الروزناجي واتصالاته بباقي الشلة الماركسية لا يزال مستمرا .. ولم يكن له اتصال بالإخوان المسلمين فكلمهم لا يزالون في المعتقل .. ربما لو كان على صلة بمعتر أيام زمان لاستطاع عن طريقه أن يفرج عن صديقه عبد الله عبد اللطيف قبل أن يموت في المعتقل .. الله رحمه .. ولم يعد لمنير أى اتصال بأى حركة سياسية أخرى فقد شطبت جميع الأحزاب السياسية وتم اعتقال معظم رجالها .. ومن لم يعتقل منهم فضل الانزواء بعيدا عن السياسة .. لم يعد هناك إلا بعض التحركات السرية حتى بين الماركسيين

ولكنه لم يتعود التعامل تحت الأرض مع التحركات السرية ..

وفوجئ منير يوما بصديقه كمال الروزناجي يقول له إنه قرر السفر إلى الخارج .. وسأله منير في دهشة :

— إلى أين ؟

وقال كمال ضاحكا ويبدو أنه كان يخفي سرا وراء ضحكته :

— لم أقرر بعد .. ولكننى سأصل إلى جنيف ومن هناك إما أن أتجه إلى موسكو أو إلى لندن ..

وسافر كمال فعلا وسافر معه عادل السلانكي زوج دلير .. إن السفر للخارج أصبح مباحا للماركسيين .. ومن يدري ؟.. لعلهما سافرا للقاء دلير أو على الأقل للبحث عنها .. وقد مضت شهور دون أن يرسل له كمال أى خطاب كما تعود أن يرسل له عندما سافر لأول مرة .. وهو لا يعلم أين هو ؟.. لقد سمع أنه في لندن .. وسمع أنه في بيروت .. ولكنه لم يرسل أى خطاب لأى أحد يستطيع أن يعرف منه أين هو ..

لماذا لا يهرب هو الآخر السفر .. ليرى كمال أو على الأصح ليرى دلير .. إن حبه لدلير وصل إلى منتهى اليأس ولم يعد له فيه أى أمل .. ولكنه يتمنى أن يراها ولو من بعيد ليشبع طبيعة الفرجة فيه .. ولكن إلى أين يسافر ؟.. إنه يستطيع أن يطلب من معتر الجنيدي أن يعرف له عن طريق المخابرات أين تقيم دلير وأين يقيم أخوها كمال .. ولكن ليس من مبادئه أن يستعين بالمخابرات وإلا ترك نفسه بينهم بأنه منها .. ثم لماذا لا يسافر لمرود الفرجة على العالم حتى دون أن يرى دلير أو كمال ؟ إنه لم يتفرج على خارج مصر أبدا رغم شهوة الفرجة المتمكنة منه ..

وقدم طلبا للسفر إلى الخارج كما تنص الإجراءات ..

ورفض طلبه ..

إن اسمه في القائمة السوداء ..

ولو كان الماركسيون هم المحرم عليهم السفر فاسمه في القائمة السوداء للماركسيين .. وإذا كان الإخوان المسلمون هم المحرومين فاسمه في قائمة أسمائهم أيضا ..

وروى هذه الحادثة لصديقه معتز وهو يضحك .. ورد عليه معتز في بساطة :

— ولا يهملك .. ستسافر ..

وبعد أيام استدعاه معتز إلى لقاء وقال له :

— لقد اكتشفت أن هناك معلومات كثيرة تفحصنا ولا أظن أنك

جمعتها .. وهى معلومات خاصة بموقف السياسة البريطانية من السياسة الأمريكية .. وهناك كتب جديدة صدرت في لندن بعد عام ٥٦ تحلل هذا الموقف .. ثم هناك وثائق كثيرة قد نشرت .. وبما أنك ستسافر فأرجو أن تبقى في لندن إلى أن تجمع معلومات كافية في هذا الموضوع ..

ثم رفع معتز حقيبة سامسونيت صغيرة وناولها لنير .. وحاول منير أن يفتحها سائلا :

— ما هنا ؟ ..

وقال معتز مبتسما :

— هذه حقيبة جمعت لك فيها أوراقا خاصة بهذا الموضوع ..

لا تفتحها هنا .. فليس لدى وقت لنقاش طويل .. خذها معك وافتحها وأنت وحده .. وقد صدرت الأوامر بالسماح لك بالسفر ..

وحمل منير الحقيبة الصغيرة وفتحها في مكتبه .. إنها تحمل مبلغا كبيرا

من الدولارات .. عشرة آلاف دولار .. إن معتز يريد أن يدفع له نفقات سفره .. وربما اقتل هذا الموضوع الذى كلفه بحثه مجرد تبير دفع هذا المبلغ الكبير له .. هل يرفض ؟ .. هل يعيد الحقيقة إلى معتز ؟ .. ولكنه لو أعادها فربما حرم من السفر .. أو ربما غضب منه معتز .. لماذا لا يكون واقعا ولو مرة .. ولو على حساب مبادئه .. إنه سبق أن كان واقعا على حساب المبادئ عندما كان قد قرر أن يتعد عن دلبه بعد أن تزوجت .. كان لا يريد أن يكون عشيقا لامرأة متزوجة .. هذه مبادئ شرعية صارمة يؤمن بها .. ولكنه استسلم للواقع وأصبح عشيقا لدليل .. فلماذا لا يستسلم للواقع هذه المرة أيضا ؟ ..

وسافر .. ودخل المطار وهو يحمل الحقيبة في يده بما فيها من دولارات .. واستقبل باحترام كبير ولم يجروا أحد على تفتيشه .. إن الأمر الذى يبيح له السفر صدر من الرئاسة .. فأى موظف في الدولة يستطيع أن يفتشه وكأنه يفتش الرئاسة .. وكان قد سبق وسمع أن رجال المخابرات يسافرون إلى الخارج وهم ليسوا معتمدين على أموال تحول إليهم أو يجلبونها هناك .. بل يسافرون وهم يحملون مثل هذه الحقيبة الصغيرة التى تحمل آلاف الدولارات .. وطرد عن فكره هذا الخاطر بسرعة .. إنه ليس من رجال المخابرات .. إنه مجرد صديق .. أو إنه أخذ أتعابه .. أتعاب الأستاذ ..

ووصل إلى لندن .. وفوجئ بأن أحد موظفى السفارة يستقبله في المطار .. إنه موظف من موظفى مكتب الملحق العسكرى .. لقد كان الملحق العسكرى أيامها هو مندوب المخابرات .. إن المخابرات هى التى تهتم به .. كأنه يتبعها وسافر بأوامرها .. وذلك علاوة على الاستقبال الرسمى الذى أقامه له السفير وإن كان لم يتعد دعوته إلى العشاء : عوة خاصة .. وقد وجد

كل شيء سهلا في لندن بفضل اهتمام السفارة .. وكان يريد أن يرى كل الشوارع والدور والمتحف التي قرأ اسمها في قصص أرسين لوبين عندما كان يقرأها في صباه والتي سمع بها من أصدقاء سبقوه في السفر .. كان يريد أن يتفرج على كل شيء .. وقد سألت منذ اليوم الأول عن صديقه كمال الروزنجي .. وعن أخته دلبر وزوجها عادل السلانكلي .. وأكد له الملحق العسكري أن لديه أسماء كل المصريين الذين في بريطانيا كلها وليس بينها هذه الأسماء .. لعل كمال اختار أن يذهب إلى موسكو .. ولكن أين دلبر ..؟ إنها قطعا لم تفكر في موسكو .. لعلها في بيروت .. ولعلها تعمل جرسونة في مقهى أو في بار .. ومن يدري ..؟ لعلها استطاعت أن تعيش في البلد الآخر حياة بنات الذوات التي كانت تعيشها في مصر قبل الثورة .. وقد أراد أن يظهر أمام السفارة كأنه فعلا في مهمة رسمية فأخذ يطلب زيارة أهم المكتبات .. وتصفح فعلا كثيرا من الكتب .. وحمل معه بعضها .. ولم يكن بينها كتب عن الموضوع الذي ادعى معتز الجنيدي اهتمامه به ..

وكان قد مضى عليه عشرين يوما في لندن وقرر العودة .. وقال له موظف المخابرات المكلف بمصاحبته :  
— إذن نبدأ في الشراء ..  
وقال منير في دهشة :  
— شراء ماذا ..؟  
وقال مراقفه في تعجب .. فقد كان كل من يأتي إلى لندن من الرسميين يأتي للشراء .. فلماذا أتى هذا الشخص ..؟ وقال في بساطة :  
— شراء الهدايا وما تحتاج إليه .. إن دكاكين لندن معروفة بأن فيها كل ما

لا تجده في مصر ..

ولم يكن يريد شيئا .. ولكنه يجب أن يشتري .. واشتري هدايا لأهله وأخواته البنات .. واشتري لنفسه بدلة جاهزة وقطعة من القماش وقمصان وكرفنتات .. وكان يجب أن يشتري أيضا هدية لصديقه معتز الجنيدي .. واشتري له قلم باركر .. إن أقلام الباركر أصبحت نادرة وغالية في مصر .. ورغم ذلك كان كل ما أنفقته في لندن أقل من نصف الدولارات المعبأة في الحقيبية السامسونيت الصغيرة ..

وقد اختار أن يعود إلى مصر عن طريق بيروت .. قد يجد دلبر أو كمال هناك .. إنه يذوب شوقا للتفرج عليها .. عليها .. وقد أمضى في بيروت أسبوعا متفرغا للفرجة على كل لبنان .. ولم يجد دلبر رغم أنه وصل إلى حد التردد على البارات وكباريات الليل بحثا عنها ولما سمعه من أن كثيرا من النساء المصريات حتى من نساء عائلات كبيرة محترمة ممن هربن من مصر إلى بيروت كن يعملن في الكباريات والبارات .. ولم يجد دلبر ولا كمال .. ولا سمع عنهما شيئا من رجال المخابرات في السفارة ..

لقد أنفق على نفسه في بيروت وفي سبعة أيام ضعف ما أنفقته في لندن خلال عشرين يوما .. ولا يدري فيما كان ينفق .. إن بيروت لها قوة جذب خاصة لكل ما في جيبيك ..

وعاد إلى مصر وقضى أياما في مجاملات وتقاليد العودة بعد أول غيبة عن مصر .. إن الغيبة عن مصر تترك شوقا أكثر إلى الحرية أكثر من الغيبة في السجن ما دام السجن داخل مصر .. إن الإنسان لا يستطيع أن يذوق طعم الحرية إلا داخل بلده .. وبدأت حياته تستمر كما كانت .. أهم ما في هي اتصالات الصداقة التي تجمعها بمعتز الجنيدي ..

بكلمة .. ترى ما حجم الشنطة السامسونيت التي سافر وهو يحملها معه ؟ ..

\* \* \*

وعاش منير حياة مصر السياسية الجديدة كعادته .. مجرد متفرج .. وإن كان قد تعدد أن يعيد نفسه إلى آخر صفوف المتفرجين .. وكان من الأحداث الهامة التي وقعت هو حدث الإفراج عن كل المعتقلين من الإخوان .. لقد سبق الإفراج عن بعضهم ولكنه لم يتصل بأحد من المفرج عنهم ولا أحد منهم اتصل به .. ولكن في هذه المرة أفرج عن صديقه الأستاذ منصور أحمدين الذي جمعه به أيام زمان صديق عمره عبد الله عبد اللطيف .. إنه يجب أن يزوره بعد الإفراج عنه على الأقل ليقرأ الفاتحة معا ترهما على صديقهما عبد الله .. ولكنه ظل مترددا شهورا .. لقد أصبح يتردد دائما قبل القيام بأى حركة .. ربما وصل به العمر .. عمر العجز .. إلى سن التردد .. إلى أن فوجئ بالأستاذ منصور يزوره بنفسه في مكتبه .. إنه لم يتغير .. لا يزال على إيمانه وبنفس آرائه وحماسه رغم أنه قضى أكثر من سبعة عشر عاما معتقلا .. وقال له منصور في هدوء الأستاذ :

— إن هناك أحاديث كثيرة تتردد هذه الأيام حول السماح بإقامة التجمعات السياسية والدينية .. وأعتقد أنها فرصة لطلب الاعتراف الرسمي بجماعة الإخوان المسلمين .. وأرجو أن تساعدنا .. لقد خرجت من المعتقل منذ زمن طويل وأعتقد أن لك القدرة على الاتصال أكثر من أى واحد فينا .. وقال منير مبتسما كأنه يعيد حديثا قديما ولا يعترف بتطور الزمن :

— إن الأحداث التي تدور الآن تنحصر في إعادة تكوين الأحزاب .. فلماذا لا يطلب الإخوان تشكيل حزب إسلامى مصرى كما سبق أن

وكان يتعمد أن يتتبع كل أخبار معتز حتى يزداد فهما له .. وقد فهم في فترة أن معتز هو من رجال المشير عبد الحكيم عامر .. إن مكتبه في نفس مبنى قيادة المشير .. ولكنه كان يعود في فترة أخرى ويقدر أن معتز هو من رجال جمال عبد الناصر .. إنه يتحمل مسئوليات داخل رئاسة عبد الناصر .. وأحيانا يعتبره محل ثقة الاثنين .. عبد الناصر وعبد الحكيم .. ولم يكن هو شخصا يههه أن يفرق بين ناصر وعامر .. كلاهما في تقديره واحد .. حتى بعد أن مرت السنوات وأصبحت مصر بهزيمة عام ٦٧ لم يفرق في مسئولية الهزيمة بين عبد الناصر وعبد الحكيم .. إنها مسئولية واحدة مشتركة .. وإذا كان عبد الحكيم قد انتحر كما قيل فإن عبد الناصر أيضا قد انتحر .. لقد مات بعد المشير بثلاث سنوات ولكنه كان يقال إنه كان يعيش ميتا منذ أعلنت الهزيمة .. كان ميتا مع عبد الحكيم ..

وقد أعقبت الهزيمة وموت المشير حملة اعتقالات واسعة شملت كل رجال المشير .. وبدأ منير يقدر أن صديقه معتز سيعتقل .. وإذا اعتقل فقد يعتقل معه فقد أصبح معروفا أنه صديقه ويعمل معه .. ولكن حملة الاعتقالات لم تكن عنيفة واسعة كالحملة التي قامت بها الثورة على الإخوان المسلمين بعد اتهامهم بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر .. رغم أن هزيمة ٦٧ كانت اغتياالا لمصر كلها .. ولم يسمع أن صديقه معتز الجنيدى قد اعتقل ..

وكانت قد مضت شهور لم يتصل به معتز .. إن الاتفاق بينهما كان يقوم على أن يتصل به معتز كلما أراد .. وهو قطعاً لم يكن يحتاج إليه في فترة الإعداد للهزيمة ولا بعدها .. لذلك لم يتصل به .. ولكنه كان واثقا أنه لم يعتقل .. ثم تأكد أنه سافر إلى الخارج .. إلى لندن .. ودون أن يودعه

عرضت عليك أيام زمان ؟ ..

وقال الأستاذ منصور في تصميم :

— لا .. إن جماعة الإخوان ستبقى دائما دعوة ..

وقال منير ملحا :

— إن الإسلام دين ودنيا .. والدين يقوم على الدعوة .. والدنيا تفرض

ممارسة الواقع .. والواقع يفرض عليكم إقامة حزب سياسي ..

وقال الأستاذ منصور في هدوء وهو لا يزال على إصراره :

— إن الدعوة تشمل الدين والدنيا ..

وعاد منير إلى إلحاحه قائلا :

— إن جماعة الإخوان المسلمين تعتبر جماعة الشهداء .. وقد مات

مؤسسها الشيخ حسن البنا مقتولا .. واعتقل رئيسها التالي وخرج من

المعتقل ليحوت في بيته .. وأنتم في حاجة الآن إلى تشكيل جديد وإلى رئيس

جديد .. والخطوة الجريئة نحو التطور الواقعي هي أن تكونوا حزبا ..

وقال الأستاذ منصور وكأنه يطالبه بالانتقال إلى موضوع آخر :

— إن قوة الإخوان في مبادئها وليس فقط في تنظيمها أو رئاستها ..

وستبقى قوية دائما ..

وانتهى اللقاء على أن يبدأ منير في السعي لإعتراف الدولة بتنظيم جماعة

الإخوان .. ولكنه لم يستطع أن يحقق شيئا .. رغم أن الدولة كانت في فترة

مجاملة للإخوان حتى إنها أباحت لهم إصدار مجلة خاصة بهم .. ومنير يعترف

أنه لم يعد يستطيع أن يبذل نفس الجهد الذي كان يبذله لكسب القضايا

التي يقبل تحمل مسئوليتها .. ربما كان قد تعب من كل حياته .. أو ربما كان

الملل .. لقد أصبح يعيش الأحداث حتى دون أن يتعب نفسه بإبداء الرأي

كمتفرج .. لقد نقل نفسه إلى الصفوف البعيدة للمتفرجين .. بعيدا عن

يستمع إلى رأيه .. سواء صلفق مؤيدا أو بصق رافضا .. حتى عندما اغتيل

أنور السادات .. كان رأيه رافضا لعملية الاعتقال .. ولكنه لم يترك نفسه

لمجرد إبداء رأيه .. وسكت مستسلما لليأس والملل والتعب من كل الحياة

السياسية التي عاش بفكره ..

\*\*\*

وهو يعيش وحده إلى الآن في الغرفة الضيقة الملحقة بمكتبه .. مكتب

الحمامة .. فهو لم يتزوج .. إن المرأة الوحيدة التي دخلت حياته ولمسها هي

دلبر .. لم يكن في حياته نساء لا قبلها ولا بعدها .. ولم يفكر أبدا في الزواج

منذ فشل في الزواج من دلبر .. وإلحاح أبيه وأمه وأخواته البنات عليه ليتزوج

كان يدفعه إلى الضحك الساخر .. ماذا يفعل بالزواج ؟ .. ماذا يفعل

بامرأة إلا إذا كانت دلبر ؟ .. إنه ليس في حاجة إلى خادمة .. وكل عائلته

لا تفكر إلا في أن تكون له خادمة يسمونها زوجة .. وهو سعيد بوحدته ..

سعادة دفعته حتى أن يرفض الإقامة مع العائلة .. ولكن على قدر سعادته

باحتمال هذه الوحدة فأحيانا يضيق بها .. وقد دفعه الضيق إلى أن سعى منذ

سنوات بعيدة إلى الانضمام إلى النادي الأهلي .. واختار الأهلي لأنه اعتبره

ناديا مدنيا في حين كان يعتبر الزمالك ناديا عسكريا ربما لأن المشير عبد

الحكيم عامر هو المسيطر عليه .. ولكنه لم يكن يتردد على النادي الأهلي ..

كان مشغولا بعمله كمحام وبتصالاته كمفكر سياسي .. وكان يعتز بأن

الكثيرين من المشتغلين بالسياسة يلجئون إلى رأيه .. إنهم يعرفون أنه ليس

معهم ولا ضدهم .. ويعرفون أنه لا يبحث عن منصب أو مركز يمكن أن

يمسهم من بعيد أو قريب .. ولكنه صاحب رأى محترم .. رأى قائم على

سنوات طويلة من الفرجة على الحياة السياسية المصرية كلها .. فرجة دراسية بروح وطنية خالصة .. وكانوا يترددون الآن كثيرا عليه في مكتبه ليستمعوا إلى رأيه .. ولكنه بدأ يضيّق حتى بالمكتب .. وأصبح يتردد كثيرا على النادي الأهلي .. ولكن حتى في النادي الأهلي كانوا يلجئون إليه لمعرفة رأيه السياسي ..

وكان جالسا في الركن المنزوي من حديقة النادي الأهلي عندما لمح من بعيد عباس ربيع وهو يتقدم إليه .. وبدأت الدهشة تلمع في عينيه .. إنه يعرف عباس ربيع منذ بدأ شابا لامعا في العلوم الاقتصادية واستطاع بسرعة أن يكون معروفا لدى كل الدوائر الرسمية التي يهيمها الاقتصاد .. ثم بسرعة استطاع أن يكون وزيرا في عهد حكومات عبد الناصر .. ولكنه لم يبق طويلا في الوزارة .. خرج .. ولم يخرج لظروف متعلقة بالحالة الاقتصادية ولكنه خرج لظروف سياسية كانت تسيطر عليها الشلل .. خرج هو وشلته من الوزارة .. ومنذ خرج لم يعد متفرغا للعلوم الاقتصادية .. أصبح معروفا أكثر بتفرغه السياسي رغم أنه لا يزال يتولى مسئوليات اقتصادية خارج الوزارة .. كان على اتصال وثيق بكل الشخصيات السياسية وكان عضوا في كل المؤتمرات واللجان الاقتصادية التي تقيمها الحكومة .. وكان مرشحا دائما للعودة إلى الوزارة .. ولكنه لم يعد في أيام عبد الناصر .. وعندما بدأت حكومات أنور السادات اتخذ موقفا سياسيا قفز به فورا إلى الوزارة .. إنه يبدو شخصية أخرى أكثر هدوءا وهو داخل الوزارة .. ولكنه أيضا لم يبق في الوزارة فترة طويلة .. خرج .. وعاد إلى أسواق السياسة ولكنه عاد أكثر اندفاعا وأصرح في تحديد مواقفه .. وعندما قامت الأحزاب نسب اسمه إلى أكثر من حزب معارض .. ولكنه رغم اتصاله بالجميع لم يثبت عليه انضمامه

لحزب .. بل إنه كان مستمرا في اتصالاته بالمستولين كواحد من علماء الاقتصاد ..

وخلال كل هذه السنوات الطويلة لم يكن ما بينه وبين عباس ما يعتبر صداقة .. ولكنها كانت معرفة .. وتمضى فترات طويلة دون أن يلتقى به .. ثم فجأة يراه أمامه .. ولم يكن يراه أبدا عندما يكون وزيرا .. ولكنه لا يراه إلا وهو خارج الوزارة .. وكان الحديث بينهما يقتصر على السياسة .. ويبدو عباس وكأنه يستطلع رأيه أو يبحث عن مستقبل موقف من مواقفه السياسية .. ثم يعود ويغيب عنه فترة طويلة إلى أن يفاجئه بقاء آخر .. ترى ماذا جاء به اليوم ؟ ..

وابتسم منير بينه وبين نفسه ابتسامة ساخرة وهو يقوم واقفا يستقبل عباس ربيع ..

وصاح عباس وهو يهز يده في حرارة :

— انيك يا منير بك .. أين أنت ؟ .. لقد طفت القاهرة كلها باحثا عنك إلى أن اكتشفت أنك تجلس في حديقة النادي الأهلي .. لا شك أنك اخترت النادي لتحتفظ بشبابك ..

وقال منير من خلال ابتسامة لاهية :

— إن هذه الحديقة تجمع بين منتهى الشباب ومنتهى العواجز .. وأنا أعيش الآن المنتهى ..

وقال عباس وهو يجلس بجانبه مقتربا :

— لقد تعودناك على أنك تعيش دائما المستقبل .. تعيشه بآرائك وصدق تقديرك .. والمستقبل لا نهاية له ..

وقال منير في برود :

— التفكير في المستقبل مسئولية .. وقد أعفيت نفسى من المسئولية وأحلت نفسى على المعاش ..

وقال عباس مبتسما ابتسامه رجاء :

— الفكر لا يحال أبدا على المعاش .. ومهما تمادى الإنسان في العمر يبقى الفكر في شبابه .. لا يشيخ ولا يضعف .. بل لا يتغير .. فالشاب الغيبي يبقى غيبا مهما مضى به العمر والدكي يبقى ذكيا .. ولو عدنا إلى الفكر الذى كان يرسم لك المستقبل أيام شبابتك لوجدناه يرسم نفس الخطوط اليوم .. وقد اعتمدنا كثيرا على فكرك منذ بدأنا .. والصور التى كنت ترسمها للمستقبل تحققت كلها رغم أنها كانت تذهلنا عندما نسمعها بل كنا أحيانا نرفضها .. وقد مضى علينا فترة طويلة لم نطلع فيها على فكرك ولا سمعنا صوتك .. والواقع أنى كنت أبحث عنك إلى أن وجدتك لأنى فى حاجة إلى أن أعيش فكرك الذى تعودت عليه ليصور لى المستقبل .. فأنا حائر إلى أقصى حدود الحيرة .. لم أعد أستطيع أن أرى صورة للمستقبل ..

وقال منير فى هدوء :

— أى مستقبل ؟

وقال عباس فى عنف :

— مستقبل بلدنا .. مستقبل الحالة التى نعيشها ..

وضغط منير على شفثيه كأنه يجمع فكره ثم قال :

— هناك فرق بين الحالة الوطنية والقضية الوطنية .. فالحالة تدفع إلى حصر الفكر فى الواقع حتى يتغلب على مشكلات هذا الواقع .. والقضية تدفع الفكر إلى تصور المستقبل لأنه فكر يرفض الواقع من أساسه .. ولو راجعت تاريخ مصر الحديث لوجدت أن تطور المستقبل قام على قضايا وطنية

واشترك فيه كل الشعب بما فيه غير المتخصصين بإلحاح الدافع الوطنى .. ونحن الآن نعيش بلا قضايا وطنية أو أن هناك إجماعا كاملا على تأجيل كل ما يخطر على الفكر من قضايا وطنية إلى أن نجتاز الحالة التى نعيشها .. وهى حالة تقتصر مسئوليتها على المتخصصين ..

وصاح عباس فى دهشة :

— ألا تعتبر الغلاء الذى يعصر عروق الشعب قضية وطنية تستحق

البحث عن المستقبل ؟

وقال منير فى هدوء :

— لا .. الغلاء ليس قضية وطنية ، إنه حالة وطنية .. وقد كان الغلاء بالنسبة لطبقة الأغلبية الشعبية قائما دائما ولكننا كنا ننسبه إلى قضايا وطنية .. كنا ننسبه إلى الاحتلال البريطانى أو إلى حكم العائلة الملكية أو إلى ضعف الأحزاب السياسية القائمة .. وانحصر الفكر السياسى بيننا فى تحديد مستقبل كل هذه القضايا بدافع إصلاح الحالة .. ولذلك قامت الثورة وقضت على الاحتلال البريطانى والعائلة المالكة والأحزاب السياسية .. وحالة الغلاء مستمرة حتى اليوم ولكننا لا يمكن أن ننسبها إلى قضايا وطنية حتى ندعو إلى ثورة أخرى .. إنها حالة تنحصر مسئوليتها فى المختصين الإداريين ..

وقال عباس فى حدة :

— إن هؤلاء الإداريين مضت عليهم سنوات وهم يتحملون المسئولية والغلاء يشتد .. فلماذا لا يطردون ليحل محلهم من هم أقدر منهم على تحمل المسئولية ؟ .. لماذا لا نطالب بطردهم حتى بأن تقوم ثورة عليهم ..

وقال منير مبتسما فى إشفاق :



— هناك إحساس شعبي عام بالمساواة بين كل الإداريين بما فهم الوزراء .. ليس بينهم في نظر الناس من هو أقدر من الآخر .. وربما كان ذلك يرجع إلى الخطأ الأكبر الذي بدأ منذ قامت الثورة .. وهو التحريم على أى شخصية بأن تقدم نفسها للشعب كشخصية لها ذاتها ولها ما تتميز به .. فلم يجد الشعب شخصية يعلق أمله عليها ويطلب بأن تتحمل مسئوليته .. إن الناس اليوم لا تعرف حتى أسماء الوزراء ولا تهتم بمعرفتها .. ليس هناك إلا اسم واحد وشخصية واحدة يعرفها الناس .. اسم وشخصية رئيس الدولة .. لذلك لا يمكن أن تصبح المطالبة بتغيير الوزارة والوزراء قضية وطنية .. إنها مجرد حالة تعتمد على ما يقرره رئيس الدولة وحده .. وافرض أنك عدت اليوم وزيرا في الوزارة فما هو الأمل الذي يمكن أن يعلقه الناس عليك ؟ .. إنك رغم كل تاريخك الطويل لا يعرف الناس عنك شيئا لأنه لم يكن أمامك أبدا الفرصة لأن تقدم نفسك للناس .. كان الطريق الوحيد أمامك هو أن تقدم نفسك لرئيس الدولة .. وأتمنى لك ألا تعود وزيرا .. إنك تستطيع أن تتقن نفسك بإنشاء شركة لصيد السمك حتى ينخفض سعر السمك فيعرفك الناس وتصبح شخصية وطنية كما كانت شخصية طلعت حرب ..

وقال عباس وهو يقلب شفتيه قرفا :

— حتى لو أنشأت مثل هذه الشركة فستنسب إلى الحكومة وسأدعو رئيس الدولة لافتتاحها كأني أعترف أن الفضل له .. إن عثمان أحمد عثمان أنشأ عشرات الشركات ورغم ذلك فكل قيمته تقدر وترتفع وتنخفض على أساس صلته الخاصة برئيس الدولة .. ولم يستكمل أبدا شخصية مستقلة وطنية بحيث يطالب به الشعب كزعيم أو قائد لإنقاذ الحالة ..

وقال منير في هدوء :

— كل ما يهمني أن اتفعلك بأننا نعيش حالة لا قضية وطنية .. ولا يستطيع أن يعينك على النهوض بهذه الحالة إلا الخبراء وأنا كما تعلم لست خبيرا في شيء ..

وقال عباس بسرعة :

— إنك خبير في القضايا الوطنية .. فلماذا لا تتقن بأن ارتباطنا بأمريكا هو أساس الحالة التي وصلنا إليها .. كما كان ارتباطنا بالإمبراطورية البريطانية هي الحالة التي كنا نعيشها أيام زمان ؟ .. وارتباطنا بأمريكا هو أساس ارتباطنا بإسرائيل .. وكنا في حالة من نوع آخر أثناء ارتباطنا بالاتحاد السوفيتي ؟ .. أليست هذه قضية وطنية تدفع الفكر إلى البحث عن طريق المستقبل .. حتى لو كان طريق الثورة ؟ ..

وقال منير وهو يبتسم ساخرا :

— إن الحالة أقوى من القضية .. ليس في مصر إحساس وطني بالتخلص من أمريكا .. إن أنشأنا الاحتلال الأجنبي قد تغيرت .. ثم إننا مررنا بتجارب أفقنا بأن التخلص من أمريكا معناه الاعتماد على روسيا .. وأفقنا التجربة بأن الاعتماد على أمريكا أرحم من الاعتماد على روسيا .. لم تعد هذه القضايا تعتبر قضايا وطنية .. ما هو الفرق بيننا وبين سوريا أو ليبيا مثلا ؟ .. هل هو فارق في الإحساس الوطني .. أبدا .. إنه فارق في الاختيار بين أمريكا وروسيا .. لذلك فارتباطنا بأمريكا ليس قضية إنما هو أيضا حالة لن تتطور إلا إذا ارتفعت إلى مستوى قضية ..

وقام عباس واقفا والسخط يكسو وجهه :

— إنك تدفعني إلى اليأس .. يبدو أنك قد أحلت فكرك فعلا إلى

وابتسم منير ابتسامة ساخرة .. لقد أخطأ بترديد رمز القرش تعبيرا  
عن رأيه .. لقد اختفى القرش .. وكان يجب أن يردد رمز الجنيه .. فإن الجنيه لم  
يختف بعد .. ومسح على جبينه بكفه كأنه يزج عنه هذه الآراء وعاد يطلق  
عينيه ليعيش الماضى بين فروع الشجر العجوز ..

( قمت )

« شهر الليل » لياس  
www.iiias.com

المعاش .. سلام عليكم ..

وابتعد وهو يدق الأرض بقدميه ساخطا ..

ومنير يتبعه بابتسامة ساخرة ..

واسترخى على مقعده وأطلق عينيه إلى حدائق النادى كأنه يبحث عن  
شئ .. يبحث عن ماض انتهى .. إن كل شجرة في هذه الحديقة عاشت  
الماضى ولكنها لم تعد تظلل .. لم تعد تظلل العواجيز ولا الذكريات .. ولكنها  
تظلل الجيل الجديد والمستقبل .. وشبان النادى يتجمعون ويتناقشون ..  
ولكنه لا يسمع في مناقشاتهم شيئا مما كان هو يتناقش فيه .. ولا يسمع رأيا  
كآرائه .. إن الجيل الجديد لا يعيش قضية وطنية عامة كالقضايا التى كان  
يعيشها ولكنه يعيش قضية فردية تخص كل منهم .. قضية القرش .. كيف  
يصل إلى القرش ؟ .. ولكن .. من يدرى .. لعل الجيل الجديد يكتشف أن  
الفرد لا يستطيع أن يصل إلى القرش وحده .. إن القرش هو قمة القوة التى  
تقوم عليها الدولة .. إن القرش هو القوة التى تعتمد عليها حرية الدولة .. وهو  
الذى يقيم الجيش الذى يحمى الحرية .. وهو الذى يحقق الحضارة التى سبق  
أن بنت الأهرام لتبنى أهراما جديدة .. لذلك فالقرش لا يمكن أن يكون  
هدفا فرديا .. إنه هدف عام يجمع الشعب كله في طريق واحد للبحث  
عنه .. إن القرش هو الحياة .. ولا يمكن أن تكون الحياة حرة إلا إذا كان  
القرش حرا .. ولا يمكن أن تكون الحياة نظيفة إلا إذا كان القرش نظيفا ..  
ولا يمكن أن تكون للحياة مبادئ إلا إذا كان للقرش مبادئ .. ولا يدرى  
متى يكتشف الجيل الجديد طريق مستقبل الحياة .. أى مستقبل  
القرش ؟ ..

- ( ١ ، ٢ ) صانع الحب ويانع الحب  
 ( ٣ ) أنا حرة  
 ( ٤ ) الطريق المسدود  
 ( ٥ ) أين عمري  
 ( ٦ ) النظارة السوداء  
 ( ٧ ) في بيتنا رجل  
 ( ٨ ) لا أنا  
 ( ٩ ) منتهى الحب  
 لا تطفىء الشمس ( جزء اول )  
 ( ١٠ ) لا تطفىء الشمس ( جزء ثان )  
 ( ١١ ) شيء في صدري  
 ( ١٢ ) زوجة أحمد  
 ( ١٣ ) البنات والصيف  
 ( ١٤ ) لا شيء يهم  
 ( ١٥ ) أنف وثلاث عيون ( جزء اول )  
 أنف وثلاث عيون ( جزء ثان )  
 ( ١٦ ) شفتاه  
 ( ١٧ ) لا ٠٠ ليس جسديك  
 ( ١٨ ) عقلي وقلبي  
 ( ١٩ ) بئر الحرمان  
 ( ٢٠ ) علبة من صفيح  
 ( ٢١ ) ثقب في الثوب الأسود
- ( ٢٢ ) بنت السلطان  
 ( ٢٣ ) سيدة في خدمتك  
 ( ٢٤ ) نساء لهن أسنان بيضاء  
 ( ٢٥ ) لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص  
 ( ٢٦ ) الوسادة الخالية  
 ( ٢٧ ) دمي ودموعي وابتسامتي  
 ( ٢٨ ) الراقصة والسياسي  
 ( ٢٩ ) حتى لا يطير الدخان  
 ( ٣٠ ) العذراء والشعر الأبيض  
 ( ٣١ ) ونسيت أني امرأة  
 ( ٣٢ ) الهزيمة كان اسمها فاطمة  
 ( ٣٣ ) لا تتركوني هنا وحدي